
رونان بينيت
المتشائم
ترجمة: أسامة إسبر
التكوين
رواية

رونان بينيت

المتشائم

ترجمة

أسامة إسبر

التكوين

رونان بينيت Ronan Bennett روائي إيرلنديّ وُلد سنة 1956، نشأ في بلفاست ودرس في مدرسة كاثوليكية. حصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ وصار صحفيًا حرًّا. ألّف عدة روايات من بينها:

- السجن الثاني.
- أطاح به الغرباء.
- نار ومطر (مذكرات).

Ronan Bennett

The Catastrophist

رونان بينيت، المتشائم، رواية

ترجمة، أسامة إسبر

الطبعة الأولى 2015

© حقوق النشر والترجمة والاقتباس محفوظة

لـ دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر

هاتف: 00963 112236468

فاكس: 00963112257677

ص. ب: 11418، دمشق. بيروت

www.attakwin.com

taakwen@yahoo.com

نهر "سانكورو"

كانون الأول/ديسمبر 1960

ما الذي ينبغي أن أبحث عنه الآن؟ ليس نهر سانكورو عريضاً كنهر الكونغو، وخاصّة عند هذه النقطة حيث تعبر السفينة، ولكنّ له اللون الطيني البليد نفسه، ومسحة لون الصدأ نفسها بعد سقوط المطر. وفيه أيضاً إضمامات أزهار الياقوتية المائية العائمة التي أعرفها من ليوبولدفيل. رأيتها هنا من قبل، في ستانليبول، وقرب الشلالات في أسفل العاصمة، شاهدتُها في ماتادي تتقدم نحو البحر الفسيح. الأزهار أرجوانية أو حمراء ضاربة إلى الأرجواني. بعضها الآخر أزرق شاحب أو يميل إلى الأرجواني. إن الطفيليات الزائدة في هذه الأرض المتخمة بالعلقات جميلة وشريرة. ذلك أنّ الأنهار لا تطرد بعيداً رموز العدوى. سقط المطر بغزارة لمدة ساعتين بعد الظهر، مجبراً موكبنا العبثي على الخروج من الطريق. كان هذا تأخيراً آخر أُضيف إلى تأخيرات كثيرة. وحالاً بعد أن صحتْ السماء زعم أحدُ مساعديه أنه سمع محرّك طائرة مراقبة وكان هناك إنذار عام، ولكن حين نظرتُ إلى الأعلى لم أرَ أي شيء. ما الذي يهم؟ فقد وصلنا إلى نهر سانكورو. ففي الجانب الآخر أمان، وكان قد عبر هو وأوغوست والآخرون من الدائرة الداخلية. بردَ الهواء. مرّتْ اللحظات الساحرة التي رأيتُ فيها كرة الشمس الحمراء وأشجار النخيل حيث تجثم الغربان المبرقشة، وينوح القصب، وتدوس خطوط العمال الذاهبين إلى منازلهم الطرق الغبارية المحفّرة. كم المسافة التي يقطعونها في

يوم واحد؟ في مكان قريب جداً منّي تنقّ ضفدعة. وتبدأ الزيزان كورسها. أي شيء آخر يجب أن ألاحظه هنا؟ فأنا الراصد المُدرَّب. الروائح؟ نعم، هناك أشياء تُشَمّ. أستطيع أن أشمّ رائحة الأسماك التي كوّمتْها النسوة أمامهنّ في أكوام أنيقة من المسامير الفضية المعقوفة. أستطيع أن أشمّ رائحة البيض المسلوق، والبُلبُلهْ، وأعشاب المنيهوت المقلية التي حضّرْنها آملات بيعها. أشمُّ رائحة الزيت الساخن ودخان عوادم شاحنات الجنود. وفي الجانب الآخر من النهر كانَ ينتظرُ مع المراكبيّ العجوز.

دخل الجنود بيننا، أو بينهم، لأنني لستُ في الواقع منهم، ولأنَّ وضعي، وحضوري المرواغ دوماً، واضحان على الرغم من جراحي المرئية. لا يتوجّب عليَّ أن أكون خائفاً كالآخرين. إنيس خائفة، ولو لم يكن على نفسها. تقف إلى جانب سيارة البيجو السماوية اللون التي كانت تسافر بها بولين في الأيام الثلاثة الأخيرة. الأبواب مفتوحة، والجالسون في الداخل المختنقون يتوسّلون النسائم. وفي الخلف، تُمسك بولين بالفتى. فيما إنيس، كمثل الآخرين في فريقنا، تدرس حركات الجنود ونظراتهم من أجل فهم نواياهم. كانت إشاراتهم حتى الآن عدوانية غير محددة، وطالما أنّ نواياهم عامة وهم غير مهتاجين يمكن أن نعبر كي ننضم إليه. يقتربون من السيارات والمسافرين. لا أحد يقول شيئاً. يأتون إلى سيارة بولين. يتعرف عليها ضابط ويطلب، أولاً باللغة اللنغالية، ثم بالفرنسية: من هو؟ من هو؟ تبقى بولين صامتة. يرتفع صوت الضابط، تتجمع قطرات العرق على جبينه. يدخل جندي إلى السيارة وينتزع رولاند من قبضة أمه. تنطلق صرخة. تتحرك إنيس نحو الأمام. بولين الآن خارج السيارة، لا ترى إلا ولدها، لا تعني لها بنادق الجنود شيئاً. سُمعت كلمات بصوت مرتفع في إحدى لغاتهم،

استجوابية وعنيدة. يرفع جندي كعب بندقيته ويضرب رونالد على الوجه. الآن نعرف.

ما الذي يجب أن أنظر إليه؟ الآن نعرف أن الحيوات معرضة للخطر. حُطِّم وجه طفل ولكنني رأيتُ الكثير. رأيت جثثاً ودماء. وسمعتُ عويلاً ورعباً. أُراقبُ كما لو عبْر شاشة، وأُصغي كما لو لتسجيل، أقاطعه بإرادتي: اللعنات والتوسلات التهديدات والأنين. أنا أفكّر بجذام السياسة، بتفاهة هذه البلاد، والكوميديا الوضيعة لكوارثها. أنا أفكّر، في الواقع، برسكين. نعم، رسكين. وكلّ هذا يجعلني غاضباً من إنيس، لأننا لم نكن مضطرين للمجيء إلى هنا: لا أحد منا ينتمي إلى هذه اللحظة من المهزلة والميلودراما. وفي الواقع أشعر بفقدان الصبر، وتقريباً بالإحراج. لن أكون قادراً على الاعتراف بهذا لإنيس. ولكنني أملك أكثر من تبرير قليل. ثمة إثارة عاطفية واهتياج شديدان حيال هذا العمل كله. ينطبق هذا حتى على هذه الرحلة. كان بوسعنا الوصول إلى ستانليفيل أمس، أن نربح مسافة يوم، لأن الطرق كانت بشكل عام جيدة. ولم يتمكن الجنود من الوصول إلى "الغنيمة". ولو كنّا قد تحركنا حتى بالحد الأدنى للسرعة، لكانوا جميعاً آمنين، ولما كان رونالد ينزف، أو محطّم الوجه. لدي سبب لغيظي.

ساءت الأمور الآن. فالجنود اهتاجوا، ونشبت المشاجرات. قال أحدهم إنهم رجال قبيلة البالوبا. لا أستطيع التأكيد، ولكن إذا كان هذا صحيحاً فإن الموقف خطير، ذلك أن البالوبا يريدون أن يأخذوا بثأرهم. ذهبتُ كي أقف مع إنيس. إنها صغيرة جداً وضعيفة. وضعتُ ذراعي حولها، كي أطمئنها وأمنعها من الحركة؛ فأنا لا أثق بمزاجها. ثمة شيء امتلكني في بواعثي، لا أستطيع إنكاره. كان أوغوست يراقب من الجهة الأخرى للنهر. إنه يراقبنا، ولمرة ـ للمرة الأولى منذ

وقت طويل ـ كنتُ أكثر قرباً منه. أنا إلى جانبها مرة ثانية، وربما سأكون قادراً على البقاء إلى جانبها.

كان الأمر مثل محاولة الإمساك بطائر. فقد كانت تتحرك بقلق إلى هذه الجهة أو تلك، مصارعة كي تتابع الدوامات الدائرة للعراك. لم أعرف إن كانت واعية لي أو للمْستي أو نواياي الحريصة. لم تبادلني النظر ولكنها ضربتْ قفص ذراعيَّ وصارعت للسير نحو الحاجز المؤقت للميناء حيث، كما لو بأمر صادر لم أسمعه، تجمهر فريقنا والجنود. أفلتُّها، نظرتْ إليَّ لثانية، نظرة بين الذعر والإتهام: لديها أنباء عن مأساة وشيكة، ومرة ثانية لم أسمع. انطلقتْ، وابتعدت عني راكضة كي تنضم إلى الآخرين. انتهى الشجار فجأة، لم يكن هناك أصوات بشرية. تبعتُها، وفيما كنت أقترب اكتشفتُ سبب هذا الهدوء المفاجئ. حدّقْنا عبر النهر.

كان قد وضع إحدى قدميه في المركب. كان المركب الخشبي المتين قادراً على نقل سيارة واحدة وركابها كل مرة فقط. ألحّ مونغول والآخرون على أن يذهب أولاً. حتى عندئذ توانوا. استطعتُ أن أرى مونغول، ومويليلي وكيميشانغا، يتوسلون إليه ألا يرجع. تابعوا مراقبة الجنود بعصبية؛ وكانوا يهربون بعيداً نحو الدغل، تاركين كلمات الوداع عالقة في الجو خلفهم، اعتذاراً من أجل هربهم الضروري. عانق أوغست، الذي بدا كئيباً، على شفا البكاء، قائده ورحل أيضاً. الآن لا يوجد سوى المراكبيّ.

شقّتْ قطعة الخشب المخروطية الطويلة طريقها على المياه، فيما انتفختْ كرات العضلات في ذراع الزوارقيّ، وشرايينه... وانطلقوا. رأيتُ إنيس تغمض عينيها. كان بعض أعضاء فريقنا يخرجون من حاجز الميناء شاردين ومتألمين كالمعزين الأوائل الراجعين من جنازة.

ازداد استيائي، وشعرتُ بأنني أذكِّرهم بالتأخُّر الذي كان يمكن تجنُّبه الذي قاد إلى هذا.

كان يقف تقريباً في مقدمة المركب، طويلاً ونحيلاً، تلمع نظَّارتهُ في أواخر ما تبقى من الشمس. ما الذي يفكّر به؟ لا بدّ أنه رأى الجندي يضرب ابنه الذي يبلغ السنتين من العمر، ولا بدّ أنه مهتمّ بسلامة بولين. ربما كانت هذه الإيماءة لها، تسديد دين عن مغامراته التي لا تُحصى. إن إنيس، التي أتّهمها بأنّها متزمّتة، شكتْ مرات كثيرة منذ وصولنا إلى هنا: "رجال هذه البلاد!" لاأعتقد أنه مقتنع بأنه يعبر إلى موته. ربما يراهن على كونه قادراً على تخلصينا من هذه المشكلة بالحديث، كما خلّصنا بحديثه من المشكلة السابقة، ومن تلك التي قبلها. ليست هذه تضحية بالذات بطولية. إنها، كما الأمر دوماً لديه، حساب سياسي وإيمان بالذات.

حين ابتعدوا عشرين قدماً عن حاجز الميناء، ظهرت طائرة صغيرة انحدرت باتجاه المركب. كانت تتبع مجرى النهر، ثم تهبط بسرعة وترتفع كي تدور في الأعلى. مرة أخرى تبدل الجوّ بشكل مفاجئ. فسحَ عدم الإيمان والاستسلام المجال للتوتر المرتفع، والخوف المحسوس. سمعتُ صوتاً يصرخ، مليئاً بالعاطفة، صوتَ إنيس: "كلا يا باتريس، كلا".

أمسكت بولين رونالد وحدّقتْ في حيرة. كنتُ قد رأيتُها فقط في ثياب أوروبية أنيقة وكعبين عاليين أما الآن فهي فتاة قروية شابة: تنظر من وجه إلى آخر باحتياج: أيستطيع أحد أن يشرح هذا لها؟ ما الذي سيعنيه لها؟ لولدها؟ اتصل خشب المركب ورصيف المرفأ بصوت اصطدام خفيف. تقدم الجنود إلى الأمام من أجل سجينهم. ابتعدتُ

كي أقف وحيداً، منفصيلاً، بعيداً عن أشخاص وأشياء هذه اللحظة غير الضرورية. طنَّت زيزان، ونقّتْ ضفادع.

حين أخذه جنود البالوبا، عبرتْ وجهه نظرة ذعر؛ إنه يفهم الآن طبيعة موقفه. فكرّتُ برسكين، بذلك الأمر: "إذا ماتَ رجلٌ عند قدميك، ينبغي ألا تساعده بل أن تنتبه إلى لون شفتيه. على الضفة البعيدة، عاود أوغوست الظهور كي يأخذ إجازة دون كلمات، نظرتْ إنيس إلى الأعلى عبر دموعها ورفعتْ يداً، اندفع جندي كي يسدِّد، فتراجع أوغوست إلى الخلف في الدغل.

هذه قصّة فشل.

* * *

الجزء الأول

"ليوبولدفيل"، تشرين الثاني/ نوفمبر 1959

الفصل الأول

تكشّفتْ اسفنجة الغابة المثقّبة عن شجيرات منخفضة ورمال. الشمس حمراء في الشرق.

جئتُ إلى هنا كي أكون مع إنيس، أنا هنا من أجلها، علماً بأنني أجهل كيف ستستقبلني. لا أحد من معارفي سيقرُّ بأنني عاطفيّ، ولكنّني أحمل رسالة في يدي من الأسابيع الأولى لعلاقتنا. ذلك أنّ رجلاً في عمري يجب أن يعرف أن يقرأ ويعاود قراءة شيء كهذا، على نحو أفضل، مرة بعد أخرى. إن السطور التي فكرت أن أتتبّع فيها طريقَ عودةٍ إليها تلاشت. وفي كل مرة أنظر أضيع أكثر فحسب.

تحلّق الطائرة فوق الخط البني المتعرّج للنهر. تنزلق العجلات على المدرّج بصوت صرير ضئيل ونهبط.

أريدك أن تعرفني. أريدك أن تفهم كيف يُعثر عليّ، وأين. أريدك ـ هذا أنانيّ جداً! ـ أن تكون جزءاً من عالم أشعر أنه ينتمي إليّ. آه، إنّ هذا يصبح معقّداً، ولكن عليّ قوله. أحبّكَ، أحبّك، دائماً ـ إنيس. أطوي الكلمات التي هي من زمن آخر وأضع الرسالة بعيداً. أنا محرج من الميلودراما الخاصة بي. ولكنني هنا لأنني أعرف ـ أعرف بعمق ـ أن هذه فرصتي الأخيرة كي أجعل الحب يعمل بالنسبة لي، وأنا خائف من أنني سأفشل.

تشير المضيفة إلى الطريق فأسير مع المستوطنين العائدين وعائلاتهم، ومع رجال الأعمال، والكهنة والراهبات، والطلاب والمدراء وضباط الجيش. عَبرْنا مروحية عسكرية جاثمة وطائرة صغيرة خفيفة. كان اسمنت وزجاج بناء المحطّة النهائية أمامنا وخلفنا، وفي شاشة بعيدة من أشجار الموز والنخيل يقف ولد صغير مع عنزاته.

يفتح بوّابٌ الباب الزجاجي ويخصُّني بابتسامة مفاجئة. أخرج جواز سفري لمسؤول يتحدث أولاً بالفلمنكية ثم بالفرنسية. كانت غرفة الوافدين مزينة بنباتات زينة ذات أوراق عريضة وبوابات من الحديد المشغول. حقائبنا تُصفُّ في عملية مُصمتة تؤديها أيد سوداء عديدة.

تنتظرُ إنيس، صغيرةً، شكلها مُتردد لا يبدي اهتماماً في فستان مزيَّن بدوائر صغيرة لونه أزرق. تشير إليّ أنها حاضرة بتلويحة فأردُّ عليها بابتسامة حريصة، كما لو أنها أكثر بقليل من شخص أعرفه أو أنّ أموري على ما يرام؛ فأنا محاط ـ دائماً ـ بمسافتي الخاصة. يجب ألا أحطم فرصي عبر ضغط الإلحاح على حالتي؛ يجب أن أكون صبوراً إذا كان عليّ أن آخذها إلى الوطن ثانية. وإذا قالت لا، فإنها لن تسمعني أشكو. هذا ما أقوله لنفسي.

سألني رجل الجمارك بعض الأسئلة الروتينية، ثم ذهبْتُ إليها.

قالت وهي تقبّلني على الخدّين: "أنت هنا"...أنا في غاية السعادة لمشاهدتك".

لا أقول أي شيء، محاولاً أن أقيس الشعور وراء هذا.

قالت: "لا أراك سعيداً؟"

إنكليزيتها جيدة، بغض النظر عن بعض خصوصيات أحرف الجر العنيدة والأزمنة، ولكنّ هذا موسيقى بالنسبة لي، وهفوات

إيقاعيّة ـ كيف أصف الأمر بطريقة أخرى: "أنا أحبك"، إعلانها الأول للمشاعر لي، مرّ عليه عامان الآن؟ إن لكنتها قوية: أنْتَ لستَ سعيداً.

قلت: "أنا سعيد".

"لا تبدو كذلك".

لا أبدو لأنني عاشق في الجانب الخاسر. أنا في حبس احتياطي، أنتظر حكمها. لا أستطيع أن أتظاهر بالسعادة، ولو أنني أعرف أن الكآبة متعبة.

أحشد ابتسامة. "بالطبع أنا سعيد ـ متعب قليلاً فحسب".

تقرصُ خدي وتضمّني، وأثناء عناقها لي يتألم قلبي. لا أعرف بعد ما الذي يعنيه عناقها، فهي تعبّر عن عواطفها بشكل طبيعي. أما أنا فلا أستطيع الوصول إلى الكلمات التي أريدها. أدفعها بلطف إلى الخلف لكي آخذها نحو الداخل. لقد فقدتْ وزناً في الكونغو، في الأسابيع التي كنا منفصلين فيها. جعلني غيابها أشعر بأنني بدين ومفرط في الطعام، على الرغم من أنني لا أظن في الحقيقة أنني كذلك. كتفاها نحيلان ومحدّبان على نحو ضئيل، ظهرها مستدير قليلاً. بشرتها حمراء ونقية.

أضع إبهامي في فرْق شعرها.

قالت، مدوّرةً عينيها: "أعرف، سأصبح صلعاء قريباً".

تقلق على شعرها. وأنا كذلك. منذ أن عرفْتُها كان يرقُّ ويفقد بريقه.

إنها مع شخص ما، مع رجل. تعرّفني على زبير سميل. قدّرتُ بأن عمره خمسون سنة، غير أنَّ سميل يمتلك فتوّة جعلتْني أشعر بأنني عجوز. فهو طويل وجذاب، شعره أسود وسابلٌ فيه مسحة فضية. بياض عينيه الخضراوين الضاربتين إلى البني في غاية الصفاء. أمّا

عيناي فمحترقتان ومتقرّحتان. إنهما نقطة ضعفي، ويبدو عليهما التعب. لا أستطيع منافسته. أحاول بصعوبة أن أنظر في وجهه فيما أصافحه وأقول له إنني في غاية السرور لرؤيته.

قالت إنيس: "أوصلني زبير إلى المطار".

ما الذي كانت تفعله من أجل الجنس؟ هل كانت تفعل مثلما كنتُ أفعل؟ يخصُّها سميل بابتسامة متعاطفة، تردُّها له. لديها هنا أصدقاء، إنها محبوبة. إنها لا تحاول حجب هذه المعرفة عني، ذلك أن هذه هي انتصاراتها الصغيرة.

سأل بظرافة: "أهي زيارتك الأولى إلى الكونغو، يا جيمس؟"

كان يمتلك السهولة والأسلوب المتوسطيين اللذين يُعجب بهما ويزدريهما الإيرلنديون والإنكليز من أمثالي، في آن واحد معاً.

أجبتُ بفرنسيتي الفقيرة: "إنها زيارتي الأولى لأفريقيا".

ساعدني في حمل حقائبي وسرنا إلى المخرج. في ضوء الشمس والحرارة تشبك إنيس ذراعها بذراعي بالطريقة التي اعتادت أن تقوم بها.

سألتْ: "وهكذا ما رأيك؟"

"بماذا؟"

"بهذا".

أقول: "غير جدّي".

تسرّها ملاحظتي. وهذا صحيح: ذلك أن البحبوحة والنظام وجدة الأشياء والمحافظة التامة عليها ليست حقيقية. فقد صُنع شيء ما في مكان لا مكان له فيه، حتى أنني أستطيع أن أرى هذا.

***

كان على سميل أن ينعطف ليقابل أحد الأشخاص. غادرنا الطريق المعبّد بعد بضع دقائق وانعطفنا نحو مسار من الأوساخ المضغوطة وهناك رأيتُ للمرة الأولى العالم المحلي. ففي أرض مقطوعة الشجر من الأكواخ الطينية المستديرة ذات الأبواب المنخفضة، تنقر الدجاجات في الأوساخ، وثمة عنزة تقف مجفلة على قمة من النمل الأبيض، وفتاة شابة تغسل الملابس في قناة من الزنك. امرأتان أكبر في السنّ تجلْسان كشقيقات في صمتٍ عارف. يبدو مألوفاً بشكل غريب حتى لشخص لم يطأ هنا من قبل. تجلس المرأتان بدون حراك، وتحدّقان بشكل لا يمكن تعديله نحو الخلف. إنها ليست طريقة الأوروبيين، ولكنها ليست جديدة بالنسبة لي. فقد شاهدتُ نشرات الأخبار.

في كوخ معزول من القصب، ومقابل رزمة رقيقة من الفرنكات يتلقى سميل قطعة قماش متسخة لُفَّ فيها شيء من رجل يدعونه هاري ويبدو كأنه هندي أو باكستاني.

سألتُ إنيس: "ما هذا؟"

قالت بنبرة تستخدمها النساء حين يصرّ الأولاد على كونهم أولاداً: "قليل من التهريب. إن زبير يمارس تجارة محدودة في الألماس".

"كيف تعرّفتِ عليه؟"

"إنه عضو في الحزب. رجال الأمن يراقبونه على الدوام. إنه شخص مميّز، أليس كذلك؟"

أخبرتْني أنه من المثير أن يكون المرء في الكونغو في هذا الوقت، وكيف تحدث الأمور، وأنها تريد أن تعرّفني على مزيد من الأشخاص المتألقين مثل سميل. كيف تعرف أنني أريد أن أكتب عن كلِّ هذا؟

أذكّرها بأنني يجب أن أنهي الكتاب الذي أعمل عليه فتقول إنني أقدر على إيقاف نفسي. تميل نحو الأمام وتقبّل خدّي. تبحث في عينيّ.

"لماذا لستَ سعيداً؟"

قلت: "أنا أصبح أكثر سعادة".

تُقبّلني قبلة طويلة. أصبح أكثر سعادة. هناك أمور يجب أن نناقشها، ولكن الطريقة التي تصرّفتْ بها معي جعلتْني أفكّر أن مشاكلنا يمكن أن تُحلّ. مشتاق أن أكون معها في الفراش، أن أملكها ثانية، أن أبدأ ثانية.

انضم إلينا سميل من جديد وانطلقنا راجعين من الطريق الذي جئنا منه. كان سميل واسع الصدر، كريماً ومتألقاً من جديد. سألتهُ عن أحواله فأجاب بالإنكليزية، مما أراحني. جاء إلى الكونغو من لبنان قبل الحرب. "تعلّم صنعة الألماس" في بروكسل وأنتويرب. إن مناجم الألماس الحقيقية هي في الجنوب، في كاتانغا.

"إن الربح جيد من الأحجار الكبيرة، أما من الأحجار الصغيرة التي كهذه" ـ يربت على لفة القماش في جيب قميصه ـ "فهو 5%. ليس سهلاً".

سمعنا هديراً وقرقعة. انحرفتْ السيارة قليلاً. أوقف سميل السيارة.

سألْته: "ما هذا؟"

هل اصطدمنا بشيء؟ بدا الطريق خالياً. خرج سميل من السيارة. التفتُّ إلى إنيس، التي كانت تحدق من النافذة الخلفية.

سألتها ثانية: "ما الذي حدث؟"

رأتْ شيئاً ما.

قالت بهزة رأس تهرُّبية: "ربما حجر خرج من الطريق".

خرجتْ من السيارة. فعلتُ الأمر نفسه.

"لم تخرج من الطريق بل رماها أحدهم"، قال سميل، فاحصاً الزجاج الأماميّ. كان الزجاج مشقوقاً وثمة تشعّب متعرّج من الخطوط المشقوقة؛ لم يكن الأذى كبيراً. لعبتْ ابتسامة في طرف عينيه. إنه رجل مرح. أحببْتُه على الرغم من ألفته مع إنيس.

سلكَ من جديد الطريق الذي جئنا منه، كان ثمة بحث غير منهجيّ عن المجرم. طنطن صوت المحرك والجو هادئ. هناك بعض الضجيج البعيد من الغابة. القردة؟ تخمين. ما الذي سأعرفه؟ أحدق في الأشجار والأوراق. الغابة كثيفة، ومتراصّة، ولكنها لا تبدو خبيثة أو انتقامية. هناك أزهار برية جميلة تحفُّ بجانب الطريق وعلى الحواف الناعمة لبرك المطر تمتص أزهار بنفسج صغيرة وفراشات صفراء الطين المعدني. لم تكن هذه نقطة أمامية. السماء في الأعلى صافية الآن، إلا أنّ الشمس شديدة الحرارة.

قلتُ: "لقد رأيتِ شيئاً ما".

أجابت: "كلا، لا شيء".

نظرتُ إليها نظرة توضيح، ولكنها قاومتْها. تغيّر سلوكها فجأة. إنها بعيدة عني، ومشغولة الذهن. حاولتُ إغراءها بحديث قصير وأخبار عن أصدقائنا في لندن، ولكنني لم أفلح.

* * *

الضواحي ظريفة وواسعة. بيوت القش بيضاء. غُطِّي الصدأ على السقوف الحديدية بأعوام من الدهان الأحمر الغامق والأخضر الزيتونيّ. يمتلك المعدن الرقيق الآن بُنْية وجوهراً، كمثل قماش مشغول بالألوان الزيتية. وعلى الجدران والأسيجة المسلّكة شجيرات مزهرة عملاقة تستلقي في أردية رائعة. حدائقيون في أفرولات العمل وأبواط ولنغتون يقومون بعملهم. تفوح رائحة الصيف من الجو، من العشب المقطوع وديزل حاصدات المروج.

جادة طويلة عريضة مخططة بالأشجار تقطع قلب المدينة، إنها جادة ألبرت الأول. عند معابر المشاة رجال شرطة بكفوف بيضاء وخوذ من الريش يتحكمون بالتدفق. السيارات جديدة ولامعة، موديلات أوروبية مترفة وسيارات أميركية مكشوفة غالية الثمن، مطلية بالكروم ومزيّنه بإسراف. هناك شاحنات مسطحة الظهر وأخرى لنقل بضائع وتاكسيات وباصات، وجدول فضي وأسود من الدراجات الهوائية التي يركبها الكونغوليون. وفي المقاهي الرصيفية يقرأ الأوروبيون ويتناولون القهوة والكرواسّان. ثمة بوتيكات ومحلات للجواهر ودكاكين لبيع المعلبات، والحلويات وردهات للبوظة وفنادق. كان البنك البلجيكي الأفريقي يفتح أبوابه.

أنزلنا سميل خارج بناء جديد من سبعة طوابق، واحد من مجموعة صغيرة في نهاية هذه الجادة المزدوجة. استعارت إنيس الشقة من شخص ذهب إلى أوغندا حيث سيقضي عاماً كاملاً. شكرتُ سميل على التوصيلة. اقترحَ تناول العشاء في مطعم زو قائلاً إنّ المالكين فرنسيون والطعام هو الأفضل في ليوبولدفيل.

أتثاءب وأتمدد بسعادة. كان الاستقبال جيداً.

* * *

الفصل الثاني

في أسفل ظهرها، فوق ردفيها، غمّازتان ناعمتان، انخفاضان. تستلقي بين ذراعيَّ فألمسهما برؤوس أصابعي. أدخل في النوم وأخرج منه.

تتحدث ـ كم أحبُّ لفْظها الغنائيَّ ـ عن أمور أستطيع أن أتابعها نصف متابعة فحسب. تتوقف بين فينة وأخرى كي تقبّل صدري وتضمّني بشدّة. في الرحلة الجوية الطويلة والكئيبة من لندن لم أستطع أن أجد إلا أسباباً للتشاؤم، ولكنني أغفلتُ أمراً واحداً: حاجتها إليّ. إنها تتمتّع بي، ومنجذبة إليّ جسديّاً، إلى هذا الجسد، وهذين الذراعين. حدّثتْني مرة عن عاشق اضطرّتْ أن تقصّ أظافره قبل أن يلمسها. إن يديَّ على الأقل ليستا هكذا. إنها تحبُّ هذه الأصابع، وكيف تتنقّل على جسدها، وما تفعله لها. أُغمض عينيَّ وأتبلّل بالكلمات المتدفّقة.

إنها قصة تتعلق بالحرب، حين كانت صغيرة، وكان الألمان في بولونا. تتذكر جندياً يمتطي حصاناً أبيض كل يوم في ساحة ماجيور. كان ضابطاً، ولكنه لم يكن عالي الرتبة. في صباح أحد الأيام خرج الألماني كالعادة ممتطياً حصانه. لم يُلمحْ مرة ثانية أبداً. سرتْ شائعات بأنه انشقّ وهرب مع عشيقته الإيطالية، وهي امرأة متزوجة؛ قال آخرون إنّ الأنصار أسروه وقتلوه. لم يعرف أحد الحقيقة. حين التحقتْ بوالدها، بعد أن جاءت مجموعته من الأنصار من الجبال في الأيام الأخيرة من احتلال المدينة، أرهقتْهُ بالأسئلة عما حصل للحصان، ذلك أنها كانت تحب الأحصنة في طفولتها. ولكنّه لم يسمع أي شيء

ولم يستطع العثور على أي شيء. لستُ متأكداً إن كان هناك معنى لقصتها أو حتى إن فهمتُ كل شيء: إنّ لكْنتها ونحْوها يمزقّان السرد. استلقينا هادئين ورأيتُ الفتاة الصغيرة، بعينين كبيرتين تتأمّل، وتنتظر في الأروقة المظلّلة من أجل اليوم الذي سيسير فيه حصان الجندي الألماني خبباً بدون راكب إلى الحي بحثاً عنها كي تأخذه إلى الوطن.

أشعر برقّة الرموش على كتفي وأغمض عينيَّ كي أنام.

* * *

أشمُّ رائحة البنّ. إنها تجلس في طرف السرير. أشعر بالغيظ، بأنني رُفضتُ، لأنها ارتدت ملابسها. تضع يداً في شعري وتلعب به. أفركُ عينيَّ.

ـ "كم الساعة الآن؟"

ـ "التاسعة تقريباً".

ـ ليلاً؟ صباحاً؟ لا أمتلك أية فكرة.

تُمرِّر إليَّ الكوب. "اشربْ هذا".

سألْتُها: "لماذا ارتديتِ ملابسك؟"

ـ "من أجل العشاء. ولكننا لسنا مضطرين للذهاب إن كنت لا ترغب بذلك".

سألتها: "ما الذي كان يحدث هناك، على الطريق؟ أعرف أنك رأيتِ شيئاً ما".

تهزّ كتفيها وتدير زاويتي فمها إلى الأسفل: "كان هناك ولد صغير، في الثانية أو الثالثة عشرة فحسب. كان يختبئ بين الأشجار".

ـ "هل شاهدتيه وهو يرمي الحجر؟"

- "نعم".

- "لماذا قلتِ إنك لم تشاهدي أي شيء؟"

تهزّ كتفيها. لن تُشدّ. ولكنني عرفتُ من قبل. لم تكن خائفة، بل عالقة في الجانب الخطأ: امرأة بيضاء في سيارة رجل أبيض، وكانت تشعر بالعار.

سألتها: "أهناك الكثير من رمي الحجارة؟"

"كلا. على العكس. هذا مكان مُسيطَر عليه. إن البلجيكيين رجال شرطة فعّالون جداً، وخاصة الفلمنكيين. حالما يظنون أن شخصاً ما يسبّب المشاكل يعتقلونه. كما فعلوا مع باتريس".

- "قرأتُ كثيراً عن باتريس؟"

- "هذا لأنني كنتُ أكتب كثيراً عنه".

- "أعرف، لكنه يُذكر في الصحافة البريطانية الآن أيضاً".

أصدرتْ صوتاً ازدرائياً خفيفاً. يمكن أن يقرّ آخرون الآن بأهمية لومومبا ولكنها أول من تعرّف عليه. جاءت إلى الكونغو من أجله، بسبب الآمال التي ألهمها وجَسّدها. ظهرتْ المقابلة الأولى في صحيفة الأونيتا بعد وصولها بأيام فقط. قرأتُها في لندن فهبط قلبي. كتبتْ لي بعد ذلك في حماسِ التزام وإخلاص. قالت الرسالة: يجب أن تفهم أن حياتي الآن لا يمكن أن تكون نفسها. ما الذي كانت تعنيه بذلك؟ ماذا عن حياتنا؟

قالت لي: "كان باتريس يعمل في مكتب البريد في ستانليفيل. في الوقت الذي كان يصنع لنفسه اسماً في حركة الاستقلال لفقّوا له تهمة تلقّي النقود. يستطيعون الآن أن يقولوا إن باتريس لومومبا ليس سوى لص مدان".

ـ "هل سرق مالاً؟"

سرق. اخترتُ سرق. تظاهرتْ بأنها لم تسمع التمييز.

كانت جازمة: "بالطبع كلا. ستقابله. إنه متألق".

متألق على غرار سميل. كانت لغتها غير شرطية ومطلقة دوماً. لا شيء ـ كل شيء، أبداً ـ دائماً؛ أسوأ ـ أفضل ـ متألق ـ كثير من المتألقين. كنتُ متألقاً مرة.

أتذكر أنها قالت مرة: "إن الأعوام منذ الحرب كانت فترة قبول".

"Omologare؟ ليس لديكم هذه الكلمة؟ إنها تعني قبول كل شيء دون تفكير. إنها كلمة شيوعية جداً"، قالت بهدوء شديد.

"صحّحتُ الكلمة بالإنكليزية قائلاً: "ولكنني لا أعتقد أنها مشحونة سياسياً".

ـ "بالطبع إنها كذلك".

ـ "أنا متأكد من أنه مصطلح قانوني".

أصدرت أحد تلك الأصوات الفاقدة للصبر الخاصة بها، شيئاً بين الصرير والنخر. بحثنا في المعاجم وبتردد قبلتْ homologate ككلمة قريبة، ولكنها ناقصة. عزتْ هذا الإهمال للغة إلى حالات نقص أكبر في وجهة النظر البريطانية.

"ليس من المفاجئ أن البريطانيين لا يستطيعون أن يكونوا يساريين، فهم لا يملكون الكلمات من أجل طريقة يسارية في التفكير" ـ نظرتْ إليّ مبتسمةً وأضافت ـ "أنا محظوظة لأنك إيرلندي".

قلتُ لها بضجر مبالغ به ولكنه عاطفي ـ فقد كانت هذه النقاشات متكررة وطورت طقوسها الخاصة ـ: "إنيس، حين تعثرين على طريقة يسارية في التفكير في إيرلندة ستحصلين على سبق صحفي".

ـ "عشتُ في لندن أيضاً".

قبّلتني على جبيني بقوة. كان عادياً في طريقتها في الجدل أن تنهي بتعميم مبالغ فيه، ونقد قاس وقبلة.

أستحمُّ وأحلق. أتوقّف عن محاولة تجفيف نفسي. الجوُّ رطب، النوافذ والجدران تتعرّق.

فيما أرتدي ثيابي تخبرني المزيد عن باتريس لومومبا المتألق. ذهبتْ إلى منزله في تشوبو، حي السكان الأصليين في ستانليفيل، وإلى بيته هنا في ليوبولدفيل في جادة ألبيرت الأول، مقابل ملعب الغولف. تعرف زوجته بولين، المتواضعة والخجولة. لديهم أربعة أولاد؛ أحدهم، رولاند، وهو طفل صغير وجميل جداً. قالت: "لقد تبنّوني عمليّاً. نحن وثيقو الصلة الآن".

ـ سنرى باتريس غداً لأن الحركة الوطنية الكونغولية ستنظم مظاهرة مؤيدة للاستقلال.

تمسك ذراعي ونحن نسير إلى مطعم زو. الشوارع مضاءة جيداً والبشر يسترخون كما لو أنّ هذا من حقّهم. لا يوجد سود. حفّزها التحدث عن لومومبا ومظاهرة الغد. ستكون المظاهرة كبيرة. إن الأمور تتحرك بسرعة في الكونغو الآن. أنا بين اليقظة والنوم، وأصدّق كلمتها حول كل شيء.

* * *

الفصل الثالث

رحّب بي سميل وأصدقاؤه بلطف في ليوبولدفيل. كانت معنوياتهم مرتفعة وهم يتحدثون بصخب مع بعضهم بعضاً. اقتيدتْ إنيس إلى أحد طرفي الطاولة كي تتحدث مع سميل، وأنا إلى الطرف الآخر. وجدتُ نفسي بين رجل صغير، شاحب في حوالى الستين وامرأة أنيقة كبيرة العظام في حوالى سنّي. لها عينان زرقاوان وشعر سابل وكثيف، مسطّح وكتّاني.

عرّف الرجل عن نفسه: إنه رومان دو شوت، المدير العام لمعمل صابون تابع لشركة يونيلفر في ليوبولدفيل. لوجهه الجافّ خطوط مدخّن، وعينان مائيتان لطيفتان.

قال مبتسماً: "أخبرنا سميل عن الكمين على طريق المطار".

دون أن أتأكد مما يتحدث عنه؛ قلت: "آه نعم"، كما تسقط قطعة النقد. لم يكن جاداً. انتبهتُ إلى أنّ المرأة ذات الشعر الكتاني كانت تصغي.

قلت لها: "لم يكن كميناً. لستُ متأكداً إن كان مُتعمّداً".

قالت المرأة: "بالطبع كان. أنت لا تعرف القردة".

ابتسم دو شوت من حدّتها.

قال: "إن لمادلين وجهات نظر قوية حيال هذه المسائل".

أسأل: "ماذا عنك؟"

"أنا أحد ليبراليي ليوبولدفيل الأكثر شهرة. وهذا يُنفّر مادلين منّي. أليس هذا صحيحاً، يا عزيزتي؟"

"يجب أن تُسجن"، تجيب مادلين، وهي تعني هذا ولا تعنيه.

كان حاجباها متنوفين بعناية، يمنحان وجهها بعظمي خديه المرتفعين وفكه القوي، نظرة جواهرجيّ. كانت الأزرار العليا لبلوزتها مفتوحة.

زكي دو شوت الفرّوج المطبوخ بالزبدة أو التيلابيلا أو المخفوق بالجبن. ثمة الكثير للاختيار منه. أضاف: "إن بلح البحر جيد أيضاً".

اخترت السمك.

قال دو شوت: "أخبرني زُبير أنك كاتب. ما الذي تكتبه؟"

قلت: "روايات".

"هل ستكتب رواية عن أفريقيا؟"

"أنا أحد أولئك الكتاب الذين يحبون البقاء مع ما يعرفونه".

"وما هو؟"

"لندن".

"أنت إيرلندي، أليس كذلك؟"

هذا يضجرني دوماً. إيرلندي، إنكليزي، ما الفرق؟ ما الذي يهم؟ كلّ ما قلتهُ هو أنني عشتُ في لندن وقتاً طويلاً.

"هل أنت صحفيّ أيضاً، مثل إنيس؟"

- "أحياناً أكتب للمجلات وصحف الأحد كي أجعل النهايات تلتقي".

- "ألا تكفي الروايات مالياً؟"

- "ليس رواياتي".

- "ألهذا جئت إلى الكونغو، كي تكتب للصحف؟"

ـ "كلا، أنا هنا في الحقيقة"ـ أتردد أن أقول هذا أمام غريب، ولكنّ هناك شيئاً ما في دو شوت اعتدتُ عليه مسبقاً ـ "لأن إنيس هنا".

قال، وهو يربتُ على ساعدي: "اتخذتَ القرار الصائب، إنها امرأة خاصة جداً، وهي مشهورة جداً هنا".

قلتُ: "إنها تُحبّ أن تُحَبّ".

ـ "كما نفعل جميعاً".

نظر إليّ بتعاطف، كما لو أنه يعرف ما يدور في رأسي، والمخاوف التي أواجهها، والشكوك. كان لدي دوماً ضعف أمام الشخصيات الأبوية.

وصل الطعام، دفعة بعد أخرى، وكذلك الشراب. حين أُزيلت صحون العشاء وضع الخدم أمامنا أجباناً منتقاة منها الكامومبير والبري، وقدّموا لنا، تنازلاً أمام الذوق الفلمنكيّ، الإيرف. أحضروا لنا الليكورات والكحول؛ ثم زجاجة من الشمبانيا، ثم المزيد.

واصلتْ عيناي الدوران إلى الخلف إلى إنيس ومجموعتها المرحة. ربما بدأت أستاء من إقصائي من شرائط ضحكها وعدم الاستمتاع برؤية عرضها الاجتماعي ثانية: وميض عينيها، والإيماءات، والسرعة الهزلية للتغيّر في النبرة والنظرة. قال شخص آخر شيئاً ما فاختلفتْ معه بحدّة؛ بعد ثوان كانت في انسجام كامل ومفرط مع الشخص نفسه. صادف أن نظرت نحوي ومنحتْني غمزة جريئة، ثم التفتت إلى أصدقائها. لديها أصدقاء دوماً، إنها دوماً مع آخرين. في العامين اللذين كنا فيهما حبيبين لا أذكر أنني رأيتها وحدها. أنا أبالغ. لحظات، نعم، اللحظات القليلة المنزلية الاضطرارية: حين أعود إلى الشقة كي أجدها تحضر الطعام أو تؤدي عملية روتينية أخرى. تقفز الصور إلى ذهني. إنها تستلقي على بطنها في السرير، مخدة تحت كتفيها وكتاب مسنود ومفتوح أمامها،

لا تلبس سوى سترة تحتية. أو في ذلك الأصيل الكريه حين لمحتها فجأة من الباص حين كانت عائدة من موعد مع طبيب. كم بدت ضعيفة وهي تمشي بتثاقل على طول كينتش تاون رود في طين كانون الثاني/ يناير البائس. التبسَ عليَّ شكلُها الصغير البطيء. لم تكن إنيس ـ الحيوية ـ المدمِّرة، الفاقدة للصبر والتي هي دوماً جزء من حيوات الآخرين.

ـ "تبدو أكبر من إنيس".

ـ إنها مادلين.

ـ "هذا صحيح".

ـ "بكم؟"

لا أريد أن أبدو دفاعيّاً، ولكنني غير معتاد على الأسئلة الشخصية المباشرة من أي نوع.

أقول بقدر ما أستطيع من الهدوء: "بثلاثة عشر عاماً".

تدرسني بحرص قبل أن تخرجَ سيجارة من علبتها.

قالت: "إنه فرق لا يُذكر. إن زوجي أكبر مني بسبعة وعشرين عاماً. إنه مزارع".

أشعلُ سيجارتها. تحمل زجاجة شمبانيا. أومأت إن كنت أريد. أهز رأسي فتصبّ.

ـ"هل أنت هنا مثل إنيس كي تكتب عن باتريس لومومبا العظيم؟"

تضع ساقاً فوق أخرى وتميل نحوي قليلاً.

ـ "هل هو عظيم؟"

ـ "ها!"

تشربُ من كأسها. حبة عرق تقطر عند أذنها؛ إن شعرها مربوط بإحكام إلى الخلف.

سألتْ: "هل أنت ذاهب إلى منزل برنارد هاوثهوفد غداً؟"

- "أين؟"

- "إن برناد هاوثهوفد يدعو الناس إلى منزله أيام السبت في برازافيل".

قلت: "لا أعرف إن وُجِّهت لنا دعوة".

- "ذهبت إنيس من قبل إلى هناك. يجب أن تأتي".

قالتْها كتحدٍّ. تلمع حنجرتها بالمزيد من حبّات العرق. تلتفت إلى الخلف نحو رفقتها.

قررت إنيس إنه حان وقت العودة إلى المنزل. غادر سميل ودو شوت معنا. إن مادلين، التي كانت مشغولة بشخص آخر، لم تنتبه إلى خروجي.

* * *

خلف مطعم زو، حيث الشوارع أشدّ ظلمةً والمنازل أكثر فقراً، شرطيان يقفان كي يحرسا نقطة تفتيش.

قالت: " هنا يعيش السود".

نسير في الاتجاه الآخر.

قال لي سميل: "يجب أن يكون الكونغوليون خارج الحيّ الأوربي قبل حلول الظلام إلا إذا كان لديهم أذن خاص من الشرطة".

أضاف بسخرية خفيفة: "يجعلنا هذا نحن المستوطنين نشعر بالأمان".

قال دو شوت بشكل ودي: "ليس جميع المستوطنين من الطينة نفسها. في الواقع هناك نوعان: الأول وُلد هنا أو عاش هنا وقتاً طويلاً. يفهم الذهن الأفريقي، يتحدث اللينغالا أو السواحلية أو الكيكونغو أو إحدى اللغات الأخرى، إن لم يكن عدة منها. يحبّ البلاد، ويعدّها وطنه. ويريد أن يموت ويُدفن فيها".

سألتُ: "والنوع الثاني؟"

"يرى نفسه كبلجيكي. يرتدي سترة وربطة عنق وينظر باستعلاء إلى البيض الذين أحذيتهم غير ملمّعة. يستورد الزبدة والجبنة، وسرطان البحر والفروج المجمّد بدلاً من أن يأكل طعاماً محليّاً، والذي هو أفضل وأرخص. وفي وسط حديقة الفواكه الأكثر غرابة في العالم، يستورد الخوخ والإجاص المعلّب بكلفة كبيرة. يشكو إلى الأبد من الحرارة، والماء والكونغوليين؛ وهو مهووس بالملاريا ومرض النوم والبلهارسيا، والمرض الجلدي الذي يُدعى العمى النهري الذي تنقله لسعة القرس (البعوض) وحمى المياه السوداء (الملاريا الشديدة)، والسيلان. يعرف شخصاً مصاباً بها كلّها. إنه هنا كي يجني النقود ويعود إلى وطنه".

من مكان غير بعيد جداً سمعنا أصواتاً مرتفعة. التفتنا ونظرنا إلى الوراء نحو حد المدينة الحديثة حيث كان يقف ثلاثة أو أربعة رجال بيض مع الشُرطييْن في موقف مراقبة وتيقّظ.

أسرع فريق من الشرطة إلى رأس الشارع. ثمة صوت تكسّر زجاج ومزيد من الصراخ.

صاح دو شوت بالدرك: "ما الذي يجري؟"

رد عليه أحدهم صائحاً: "إنهم القردة ".

قلت: "أواصل سماع هذه الكلمة: القردة ".

شرح سميل: "إنهم يدعونهم قروداً".

ترك الناس طاولاتهم وخرجوا من المطاعم والنوادي. حدقوا نحو ظلام المدينة الحديثة محتارين وثملين.

تبعْنا الدرك إلى حدّ المدينة الحديثة، حيث احتشدتْ مجموعة من المستوطنين. كانت تواجههم مجموعة من السود. لم أستطع أن أميز إن كانوا عشرات أو مئات. كانت الأوجه والأعضاء تتلقّى الضوء لثانية وتختفي مرة أخرى في الظلام. تحطّمتْ نافذة إلى جانبي.

تذمّر سميل في شكوى ساخرة: "لا تضربوا المزيد من الأحجار. هل يمكن أن يخبرهم أحد من فضلكم أننا أصدقاء لباتريس!"

توارينا من أجل الحماية. جميعنا ما عدا إنيس، التي تقف وسط الشارع والأحجار تتساقط حولها، عالقة، مرة أخرى، في الجانب الخطأ من الخطوط. جريتُ نحوها وقدتها إلى وراء سيارة مصفوفة.

بدا الدرك في حالة صدمة، لا يستطيعون تصديق أن هذا يحدث. لا يتحرك أحد.

إنيس بعيدة، بعيدة عني ثانية، تعمل عبر تناقضاتها.

يطلق السود هتافاً متذبذباً وجهورياً: استقلال، استقلال، استقلال!

سألتُ: "ماذا يقولون؟"

ثم رشقة أخرى من الأحجار. تحطّم المزيد من النوافذ. تقدم الحشد. ظلّ الدرك مشلولين، كانوا يتحركون فقط كي يتفادوا الأحجار.

استقلال، استقلال!

بدتْ إنيس متألقة فجأة. إن الهتاف يعني شيئاً ما لها. التفتت نحوي. عيناها مفتوحتان.

يلعنُ أحد رجال الدرك. حصل له ما يكفي. بدون تحذير، بدون تفكير، يندفع وحده، الهراوة مرفوعة، ويركض صارخاً مباشرة بالحشد. وكما لو أنهم ينفّذون أمراً غير منطوق قفز زملاؤه إلى الأمام وهجموا على شبه الظلّ. اختفى مثيرو الشغب في تبعثر محموم.

رددت إنيس في همس موقّر: استقلال.

"ما هذا؟"

قالت: "إنهم يصيحون من أجل الاستقلال".

تضمّني بشدة.

* * *

أستيقظ حين تنهض كي تذهب إلى الحمام. تتبول، ثم تسير نعسانةً بقدمين مسطحين نحو السرير. تتثاءبُ وتُصدر ضجة قليلة وهي تتمدّد. تتنفّسُ بعمق، مستقرّةً مرة ثانية تحت الغطاء. أستلقي مديراً ظهري لها ولا أتحرّك. أحاول أن أنام فأسمع حكّ الأصابع على شعر العانة؛ ثم، بعد صمت يدوم عدة لحظات، أشعر بشيء أنعم وأبطأ: خفْق اللحم الطريّ. حركة الغطاء خفيفة جداً. أسمع شيئاً ما في نَفَسِها، إغواءً، صرخةً صغيرة مكبوحة، وعلى الرغم من أننا غير ملامسين لبعضنا بعضاً في أيّ جزء فإنّني أشعرُ بعضلاتها تتوتّر ثمّ ترتخي. لستُ سببَ إثارتها، ليس الليلة، ولكنني لا أشعر أنني مُقصى أو قليل الأهمية أو غير آمن حيال هذا. أنا مليء بالرغبة.

أستدير نحوها وتبتسم كما لو أنّها مذنبة.

ـ "هل كنتَ مستيقظاً"؟

قلت: "نعم".

ـ "لماذا لم تفعل شيئاً ما؟"

كان مذاقها مالحاً ومعدنياً، إنها تصل إلى الذروة.

تقول فيما بعد: "أفترض أنك كنت مع نساء أخريات".

ـ "لم أكن".

ـ إنها كذبة.

ـ "أنت تعرف أنني غيو... جداً". لا تلفظ كلمة غيورة بشكل كامل.

لا أقول أي شيء.

قالت: "أحبك".

ـ "أما تزالين؟" أنا غير متأكد.

قالت: "أحبك" وأضافت بالطريقة التي كانت معتادة عليها: "لا تنس".

نتبادل فجأة القبل وبشكل عميق.

إنها فوقي الآن. أرتفعُ، أُمسك شعرها وأسحبُ رأسها إلى كتفي، لستُ لطيفاً. أرتعشُ تحتها وأقول لها أشياء. أعدُها، أُهدّدها بأشياء لم أفعلها لها أبداً. إن إنيس محفّزة من هجري. تصلُ إلى الذروة وأنا أهمس وعودي الحارة في أذنيها. تتخبّط فوقي وتسحبُ الهواء إلى رئتيها بصخب.

تقبلني وتقول: "أحبك حين تكون مُتحمّساً".

نسيتُ كلَّ شيء. إن كلّ ما يوجد من أجلي هو حالة العاشق: السرير والأغطية وذراعاها ونَفَسُها. إنهم في الريح، لا أستطيع الإمساك بهم. لم يكن الأمر هكذا دوماً. مرةً كنتُ مثلها أكثر، منفتحاً ومتودداً ومسلياً وآملاً. غير أنني تحولتُ على الطريق إلى شخص ما لا أُحبّهُ. في هذه الليلة على الأقل ليس هناك تناقض بين الحرارة والعقم.

* * *

الفصل الرابع

إنها من النوع الذي يستيقظ باكراً، ولكنَّ هذا الصباح مختلف. للجوِّ طَعْمُ شيءٍ قريب الحدوث، الغيوم تتفنّن بتشكيل نماذجها، وهي تستطيع أن ترى الأشياء. أجلس على السرير، صامتاً، قدماي على الأرض. إنها خلفي، لعوب وعارية على يديها وركبها. إثارتها تغلي والشعرات التي على قفا عنقي تنتصب من قُبَلِها. تذهب إلى الدّش وأصبح الموضوع الوحيد لتحديقتي. أجمّع الغطاء القطني الأبيض في حضني. لا أعرف ما الذي يفعله بي هذا.

إن صوت حديثها مرتفع وسريع فوق أزيز المياه. تتحدث عن قرون الاسترقاق حين اصطاد الأوروبيون والعرب الكونغولويين بالملايين. تتحدّث عن ليوبولد وستنالي والمزيد من الملايين الذين ضُحِّي بهم لاستعطاف محاسبي ودفاتر حسابات دولة الكونغو الحرة. تتحدث عن المزارع الاستعمارية القديمة، والمحكومين الذي قُيِّدوا إلى بعضهم بعضاً أثناء العمل، وعمليات الجَلْد، وبتر الأعضاء والاغتصاب. تتحدّثُ عن أراضي ومعامل ومناجم الشركة المتحدة البلجيكية للتعدين، بروفينا ويونيليفر ومصرف إمبا.

تخرج من الدش وتُسقط منشفتها على الأرض. كانت نهايات شعرها مبللة وملتفّة. تقف وظهرها مدار نحوي، ما تزال تتحدث، وتنحني كي تلتقط سراويل الأمس. حين ترتديها تلاحظ شيئاً في فخذها: عضّة حشرة، علامة حمراء ما. تباعد ما بين ساقيها، تنحني في نوع من نصف جلسة القرفصاء وتشدّ اللحم لكي تفحص في الجزء الداخليّ من فخذها التهيّج. ملابسها الداخلية مُنزلة حتى تحت الركبة

فقط. تخبرني الآن عن شركة الجمعية العامة البلجيكية، وهي شركة عملاقة خرافية ومؤذية لها مصالح في القطن والبن والسكر والبيرة وزيت النخيل والمستحضرات الدوائية والتأمين وسكك الحديد والخطوط الجوية والسيارات والمجوهرات والماشية والشحن. أخيراً ترفع سراويلها وتثبت العلاقات المرنة وتبحث عن فستانها.

ما الذي يمنحها الحقّ كي تكون هكذا، غير واعية لذاتها بشكل صارخ؟ في الواقع إنها لا ترى تحديقتي، أو نَفْسَها. إن شكلها فيه خشونة دون ثياب، زاويّ ونحيل. لا أعرف، حتى بعد سنتين، ما الذي تفكر به حول شكلها ومظهرها. لا تمضي أي وقت في محاولة تحسينهما؛ لم أسمع لا المتعة ولا اليأس أو التشجيع الخجول لإطراء... تأتي إليّ ذكرى فأبتسم. إنها من الأيام الأولى لعلاقتنا. حالاً بعد أن انتقلتْ كي تسكن معي في لندن ذهبنا لمشاهدة فيلم "حب في الأصيل". وفي طريق عودتنا إلى المنزل في تلك الليلة حكمت على الفيلم بأنه سخيف ولكن على الأقل تمثل فيه أودري هيبورن.

"إنها تبدو مثلي"، قالت كما لو أنّ الأمر حقيقة.

نظرتْ إليَّ لتشاهد كيف استقبلتُ كلامها.

قالت بتشديد أكبر قليلاً: "نعم. إنها تشبهني كثيراً".

هناك تقاليد حيال أمور كهذه، طرق تعكس تواضع المتحدث. كان بإمكانها القول إنّ صديقاً لها أخبرها مرة بأنها تشبه الممثلة على الرغم من أنها لم تستطع تبيّن الشبه وما رأيي بالأمر؟ ولكن كلا. بدت أودري هيبورن مثلها. صرّحتْ إنيس بهذا كحقيقة بسيطة وبطريقة توحي بأن الممثلة هي النسخة. لم أستطع أن أفكر بالأمر كغرور؛ كان بريئاً جداً بحيث لا يمكن أن يكون هكذا.

* * *

مررنا بحائط لُطِّخ بشعارات مدهونة حديثاً.

يسقط الوزراء المستعمرون

يسقط الحكّام العامّون

1959 آخر حكومة استعمارية!

الاستقلال أو الموت

تكتبُ الشعارات وهي تثني عليها وتقول بتحريض ودّي معيّن: "تعرف أن روجر كيسمنت كتب تقريراً مشهوراً عن مزارع المطاط. بسبب هذا التقرير كُشفت جرائم ليوبولد للعالم".

ـ "نعم، ولكن أظنّ أن هذا حدث منذ وقت طويل".

ـ "كان كيسمنت إيرلندياً".

ـ "كان قنصلاً بريطانياً حين كتب التقرير. حصل على لقب فارس مقابل خدماته".

ـ "هذا ليس مهماً. فقد شنقه البريطانيون".

تظنّ أنني إيرلندي فقير وعادي. أسافر بجواز سفر بريطانيّ ولكنني لا أكترث باللونين البرتقالي أو الأخضر على العلم الإيرلندي، بالمقاطعات الستّ أو المقاطعات الست والعشرين، والحدود التي تعتقد أنها مهمة جداً. فقد تعبتُ من محاولات شرح أن الحدود على الخريطة ربما كانت مهمة مرة ولكنها ليست هكذا الآن، ولن تكون أبداً ثانية.

قالت: "بوسعك أن تكتب تقريراً مثل تقرير كيسمنت عن الموقف اليوم".

إن إحساسها بالمنظور خاص جداً بها. أبتسم، متسلياً ومتأثّراً من رأيها المتكلّف بمكانتي ككاتب؛ إنها تحثّني دائماً على توظيف قلمي

في خدمة هذه القضية أو تلك. أية قضية ستفيد؟ وإذا ما فادت بالمصادفة، ماذا ستكون الكلفة؟ متى كان الانخراط في قضية ـ أية قضية ـ جيداً لكاتب؟

قالت بفكاهة: "لماذا لستَ غاضباً من هذا؟"

ـ "ما الخير الذي سيقدمه غضبي لأي شخص؟"

ـ "يمكن أن يقدم لك بعض الخير".

في مناسبة أخرى يمكن أن يكون انفصالي موضوع نقاش طويل، ولكن بعد أحداث أمس الخطيرة فإنه في هذا الصباح لا صلة له بالموضوع. ستتحرر الكونغو وسيكون لومومبا قائداً عظيماً، عظيماً كنكروما، وربما أعظم منه، لأن الغانيين أُجبروا على القيام بتسويات نظراً لأخطاء نكروما الأخيرة في الحكم. وفي بعض الأحيان يبدو هذا النوع من الحديث، بقاموس مفرداته من اليقين والعمل الزائد عن حده، وفرضيته بالالتزام الذي لا حدود له، حاداً أو ساذجاً أو مغيظاً؛ ويبدو دوماً لدى إنيس أكثر إظهاراً لتفاؤلها المرح. أضع ذراعاً حولها وأقبّل رأسها. إن شعرها الأسود الجافّ حارّ تحت الشمس. أريح خدّي عليه وأضمّها. تقول لي إنها سعيدة جداً.

لم يكن الأذى في ضوء النهار كبيراً: بعض هياكل السيارات المنبعجة وبضع نوافذ محطّمة، وكان الناس قد بدأوا بإصلاحها. ما يزال الناس يتناولون القهوة في المقاهي الرصيفية ويشترون خبزهم ولحمهم، ولكن حتى أنا ـ أحدث الوافدين ـ شعرتُ أنّ في المدينة حذراً وتيقّظاً. تمرّ جيب عسكرية وثمة دوريات من الجنود والدرك. تتحدث إنيس بإيجاز مع أصحاب الحوانيت والعابرين. ليس هذا طرفها، الجانب الذي تريد أن تجري مقابلة معه، ولكنها تعاملهم

باحترام واهتمام؛ لا تطارد خلسة أشخاصاً محتملين للمقابلة كما لو أنهم نوع من كوكب آخر. أشعر بأنني فخور بها، وبأنني حام لها: لا أريد أن تُثبّط عزيمتها بأية طريقة.

كان الجنود والدرك يغلقون الطرق إلى داخل المدينة وقد أبعدونا، من أجل سلامتنا، كما أصروا. تجادلتْ معهم ولكنهم كانوا عنيدين في البداية واستاؤوا فيما بعد. حاولتْ أن تعرف من الفتيان الخدم والعمال الذين يدلفون عبر الحواجز إذا ما كانت مسيرة الحركة الوطنية الكونغولية ما تزال مستمرة. لا أحد يعرف أي شيء على نحو مؤكد، أو من الممكن أن لا أحد يرغب بالإجابة. إن مكتب الحركة الوطنية الكونغولية في البلدة مغلق، ليس فيه أحد. تبدأ معنوياتها بالانزلاق. إنها قلقة ليس على قصتها فحسب بل على فقدان باتريس وحزبه للزخم.

أقنعتُها بتناول فطور متأخر. كانت تأكل بعض اللقيمات بلا نفس، ثم تذهب كي تجري بعض الاتصالات. لا تستطيع أن تعبر إلى لومومبا أو إلى أيّ من قادة الحركة الوطنية الكونغولية الآخرين. وتحت المظلة ذات الألوان المتألقة التي تظلل طاولتنا شربنا بيرة باردة.

تتسلّق الشمس إلى أعلى وذهني المستنزف من الحرارة تقوده أحلام اليقظة إلى الليلة الماضية، إلى الفراش، إلى إنيس وملمس ثدييها الصغيرين على صدري حين انهارت فوقي، بدون نَفَس وضاحكة.

يشقّ رجلان طريقهما إلى طاولة قريبة. تتعرّفُ إنيس على صحفيٍّ بريطانيٍّ يُدعى غرانت وتُظلِّل وجهها بقائمة الطعام بطريقة كوميدية. تحتقر الصحفيين شخصياً ومهنياً وتتجنّبهم حين يكون هذا ممكناً. ليس لهذا علاقة بالتنافس. إنها لا تستطيع أن تتحمّل احترام الذات، والولاءات المموّهة، والمزاعم الجوفاء بالحياد والنزاهة. إن غرانت،

الذي أقدّر عمره دون الثلاثين، طويل وضامر وبطيء الحركـة. لـشعره البني، الذي يلمسه بشكل متكرر، قَصّة غندور مسرفة في الأناقة؛ فيـه الكسل المفتعل لفتى متخرج من مدرسة عامة.

تمسح إنيس الشارع كمثل متشمّس يصبح شاطئه الصغير المحبـوب ملوّثاً بالحشود والضجة. تنهي بيرتها وتقـرر أننـا يجـب أن نـذهب في النهاية إلى منزل برناد هاوثهوفد لقضاء الأصيل. قالت إن معظم النـاس هناك سيكونون من النمط غير السارّ، ولكنها قد تتمكّن مـن الحـصول على بعض المعلومات المفيدة.

نسير إلى رصيف المرفأ العام، عـابرين فنـدق بـالاس علـى اليـسار ومقابلـه مـستودع جـي بي أوليفـان. الواجهـة المائيـة مـشغولة: قـاطرات وزوارق شحن ومشاحنات ومخابئ للجنود، وسائل نقـل نهريـة؛ وبقـدر ما تستطيع العين أن ترى هناك أرصفة ومـستودعات ورافعـات وصـهاريج نفط وأحواض جافة ومـسافن. سـفينة بأربعـة ظهـور وبعجلـة في الكوثـل خاصة بالمسافرين، مدهونة بـالأبيض والأزرق، زوارق بخاريـة مربوطـة إلى جانبيها، تشق طريقها عكس مجرى النهر، متجهة إلى ستانليفيل.

قالـت إنـيس: "إنّ برنـار هاوثهوفـد هـو أحـد أغـنى الرجـال في الكونغو، وأكثرهم نفوذاً. لا شيء يحدث بدونه".

ـ "هل يشمل هذا الاستقلال؟"

أجابت فوراً: "كلا. لا أحد حتى هاوثهوفد يستطيع أن يوقف الاستقلال".

مدفوعين من النساء الضاحكات في طريقهنّ إلى السوق، نـصعد إلى ظهر العبارة كي نذهب إلى برازافيل.

***

الفصل الخامس

عبرْنا النهر فصرنا في بلاد أخرى. كانت المستعمرة الفرنسية مختلفة؛ فهي فوضوية وبائسة. يختلط فيها البيض والسود؛ ويتقاسمون طاولات المطاعم والصفوف. أمضينا وقتاً قصيراً ونحن نسير ببطء عبر الشوارع القذرة متفرجين على السوق؛ شاقين طريقنا عبر النساء وكوماتهنّ من التبيوكة والمنيهوت وقصب السكر والموز والأفوكاتو واليوسفيّ وجوز الهند والفول السوداني. عثرنا على سيارة أجرة قرب محطة الباص: تكره إنيس هذا التبذير ولكنّ منزل هاوثهوفد يبعد عشرة كيلومترات خارج البلدة. كان الصوت المهدهد لشلالات ليفنغستون يزداد قوة فيما كنا نقترب.

* * *

فتح خادمٌ باب الفيلا المسوّرة. إلى يميننا ساحة تنس طينية. إن مادلين إحدى اللاعبات. ترتدي فستاناً أبيض قصيراً وأعضاؤها طويلة وقوية ومسفوعة.

وراء المنزل حديقة واسعة تنحدر على نحو جميل نحو النهر، حيث قاربان سريعان يجران الفتيات على زحافات المياه. بعيداً إلى يسارنا على الضفة البعيدة تمتد الصورة الجانبية الطويلة المنخفضة لليوبولدفيل. ومقابلنا بشكل مباشر، ربما على بعد ميل، عنقود من الأبنية الآجرية بسقوف من الصفيح: حيّ أسود ما أو آخر، لا أحد يبدو متأكداً من اسمه.

كان هناك حوالي ستين ضيفاً يقفون دائرياً في مجموعات صغيرة وهم يحملون كؤوس الشراب بأيديهم؛ وكانت هناك بركة سباحة وشرفة مراقبة.

اقترب منا رجل سمين، ناعم ذو غدة درقية متضخمة وبعينين منتفختين. قدّمتني إنيس إلى برنارد هاوثهوفد. أشار مضيفنا إلى خادم، واحد من دزينة من الفتيان يصطفون منتظرين من أجل الاستدعاءات. أحضر لنا شراباً من البار الخشبي الصغير في ظل شجرة مانغو.

سأل هاوثهوفد إنيس: "هل سمعْتِ باضطرابات أمس؟"

ـ "كنا هناك. رأيناها".

ـ "إن القوة العامة يجب أن تكون أكثر شدة المرة التالية".

أجابت إنيس: "يمكن أن يكونوا أشداء قدر ما يرغبون لكنّ هذا لن ينفع. هناك مائة ألف أوروبي لا يريدون الاستقلال و14 مليون أسود يريدونه. إن المحصلة حتمية".

ابتسم هاوثهوفد بتسامح.

ثم وجّه لها رداً: "هناك أعداد أخرى تهم".

سألته: "ما هي؟

قال وابتسامته تتسع: "النقود".

لم يكن هناك شيء ينطوي على مباهاة في لباس برنارد هاوثهوفد، غير أنه امتلك مظهر رجل غني جداً. كان هذا واضحاً في ثقته بنفسه وآداب سلوكه. كان متملّقاً ولكنه في الوقت نفسه ينذر بسوء. تحديقته المبتسمة مليئة بالتقييمات الباردة. إنه السيد في قلعته. تحدثنا بلباقة لعدة لحظات قبل أن يستأذن.

كان دو شوت يلعب الكروكيت مع رجل آخر وفتى وفتاة في بداية مراهقتهما. صحتهما جيدة، متألقان، وأنيقان ويناديان دو شوت: بابا. نظرنا أنا وإنيس إليهما دون أن نقول شيئاً. ضاق صدري للحظات. لا نستطيع التحدث عن هذا الموضوع. أتخيل نفسي مرة

ثانية في الباص مسافراً على طريقٍ كينتش بينما تسير إنيس بقدمين رطبتين عبر الثلج الرمادي بعد موعدها مع الطبيب. تجنّبتُ العودة إلى الشقة في ذلك الأصيل، وأن أكون هناك حين تعود إلى البيت، لأنني عرفتُ من تعابيرها، ومن طريقتها في السير، ومن شكلها، ما الذي قِيلَ لها. بكتْ، بالطبع، ولكن ليس طويلاً. تتحمّل إنيس المصائب بشجاعة وأكّدتُ لها أن هذا لا يُشكِّل فرقاً بالنسبة لي. صدّقتْ كلامي آنذاك لكنني لستُ متأكداً الآن. ما الذي سيعنيه عدم إنجاب الأطفال لنا؟ سنختلف في هذا: أسبابها تتعلق بالسياسة، وأسبابي بالشك، فقد رفضنا حتى الآن أنظمةَ وأحلامَ حياةٍ تقليدية معاً. لم نتحدّث أبداً بجدية عن الزواج، ولم نبحث عن منزل مثالي. ولكن كلانا يشعر بجاذبية الحياة المنزلية، ويعي ما تمنحه بقدر ما يعي ما تأخذه، وفي لحظات كهذه، فيما كنا ننظر إلى وَلَديْ دو شوت، لم تستطع أفكارنا سوى أن تلتفت إلى ما نعرف أننا لن نحصل عليه أبداً. ببغاوان أفريقيان يجثمان في قفصهما الصغير، ينظران نحو شيء غير محدد في الخارج.

وقفنا مع مجموعة من الضيوف عند شرفة المراقبة. بدوا لطيفين ولبقين وخجولين قليلاً. سألوا عن انطباعاتنا، وقدّموا نصيحة حول الاحتياطات الصحية، وزكوا لنا المطاعم التي يجب أن نأكل فيها والمشاهد التي يجب أن نراها. يجب أن نستقلّ السفينة البخارية إلى ستانليفيل، وأن نذهب إلى غوما، وهي مدينة جميلة بطقس لطيف. هناك نستطيع أن نزور حديقة فيرونغا الوطنية. ويجب أن نتسلق جبال روينزوري.

حين تتسع المحادثة أبدأ بالتقاط النصائح الملاحية التي يتطلبها الوافد الجديد في أي مكان لخريطته الاجتماعية والسياسية. كيف يميل الدبلوماسيون إلى النظر باستعلاء إلى الأشخاص التجاريين ونادراً ما يدعونهم إلى حفلات السفارة، وكيف يُوثق بالبريطانيين بعامة في مسائل التجارة، وكيف أن البلجيكيين غير جيدين في الاختلاط مع

الجنسيات الأخرى، وكيف أن الفلمنكيين أكثر سوءاً، وكيف أن هاوثهوفد هو استثناء. كيف أن الوالونويين (وهم جماعة إثنية تتحدث لهجة من الفرنسية وتسكن في جنوب وشرق بلجيكا والمناطق المجاورة في فرنسا) يميلون إلى أن يكونوا في الجانب التجاري، والفلمنكيون في الإدارة والأمن. كيف أن الذهن الأفريقي يختلف عن الأوروبي.

قلت: "الذهن الأفريقي؟ ما هذا؟"

حين يتعلق الأمر بالسود الشيء الأول الذي أسمعه هو أنهم مثل الأطفال.

أوضح تاجر برتغالي: "أطفال سيئو السلوك".

أضاف طبيب أسنان سويدي: "أطفال مؤذون".

قال شخص آخر: "تستطيع أن تُخرج الأسْوَد من الغابة ولكنّك لا تستطيع أن تُخرج الغابة منه. لا تُظهر الضعف أبداً أمام السود: إما أن تكون المُفْتَرِس أو الطريدة".

وقف الرجل الذي كان يلعب الكروكيت مع دو شوت على أطراف مجموعتنا. كان صامتاً طول الوقت. ليس طويلاً، وليس مهيباً، ولكن حضوره جعل نفسه يُشعر به. وعلى الرغم من أن هذا كان يومي الثاني في البلاد ـ يومي الثاني في أفريقيا ـ فإنني رأيت ما يكفي كي أفهم أن أُطر الرجال البيض تتخذ ملامح وأوضاعاً تتضمن تسوية من درجات متنوّعة مع بيئتهم الجديدة. إن هذه الطريقة التي يحمل بها هذا الرجل نفسه تعلنه طاهراً ومحصّناً. يرتدي قميصاً بكمّين قصيرين تُكْمله ربطة عنق. أفترض أنه من النوع الثاني من المستوطنين الذين تحدث عنهم دو شوت: فهو يبدو كأنه يحاكي المستعمر في كل شيء بشكل ساخر. يبدو كأنه يحاول أن يجذب عينيّ.

قال التاجر البرتغالي من أجل تثقيفي: "بعد ظهر أحد الأيام، منذ شهرين طلبتُ من سائقي أن يوصّل صديقاً إلى منزله. مزرعته هي في الطريق إلى كويكويت والطريق جيد. كان يجب أن تستغرق الرحلة ساعتين كأقصى حد. في تلك الليلة لم يكن هناك أثر لسائقي. في صباح اليوم التالي عثرتُ عليه على بعد أربعة أميال خارج المدينة نائماً في المقعد الخلفي بدون أية عناية في العالم. قلتُ له: ما الذي تظنّ أنك فاعله؟ لم يفهم أبداً ما الذي أتحدث عنه. ما المشكلة؟ يعرف أنني سآتي في النهاية وأحلّها".

سألته: "ماذا كانت المشكلة؟"

كبحتْ إنيس نفسها. أنا مندهش أنها حبستْ لسانها طويلاً هكذا.

ـ "نفد الوقود لديه".

حدثَ بعض الهزّ للرؤوس للإشارة إلى تجربة مشتركة.

ـ " إنّ تصرّف سائقك منطقي بالنسبة لي".

لم تكن أنيس بل الرجل الذي يرتدي القميص وربطة العنق. تحدث بلكنة أمريكية.

تابع: "عاملْ رجلاً ناضجاً كطفل وسيتصرف كطفل. إن فتاك فعل ما سيفعله أي فتى اعتنى بملكيتك بالإضافة إلى ذلك. لا أرى أي شيء تشكو منه".

بالنسبة لرجل بهذه القوة، ونظراً لتدخله المفاجئ بهذه الطريقة، بدا صوته لطيفاً على نحو مقلق.

"لا أظن أنه كان يشكو"، قال روجر، وهو طبيب بريطاني، بهدوء. شعره بني مائل إلى الصفرة في مثل سني. وجهه منمش بشكل

ضئيل وشاربه من النوع الذي جعله ضباط القوة الجوية الملكية مشهوراً أثناء الحرب؛ يميل إلى أن يتماشى مع غليون وروح باردة. يلكز بخجل كثيب نمال ببوز حذائه.

قال الأميركي: "ألم يكن؟ إذاً أنا مخطئ".

من أسفل الحديقة نادانا هاوثهوفد مستدعياً: ثمة شيء في الجانب الآخر من النهر يستحق انتباهنا. تتفرق المجموعة، شاكرة وتذهب.

يمدُّ الأميركي يده.

"مارك ستايب".

قلت: "كيف حالك؟ أنا جيمس جيليسباي. وهذه إنيس سابياني".

أنا واعٍ جداً أنني أنظر إلى ما ليس أنا. عيناه بنيّتان وصريحتان وتقومان قليلاً بتخفيف دمغة عدائية مقيدة قليلاً ينطوي عليها الرأس الضخم المستدير والشعر الأشقر والأشيب المحلوق بشكل قصير جداً. وجهه واسع، وجبينه العريض المرتفع منقسم في الوسط بشريان كثيف خفّاق: للحظة ينتابني دافع غريب أن أضغط بإبهامي على ذلك النبض العنيف، كما لو أن لمسه هناك بطريقة ما، حيث يجري دمه قريباً من السطح، سيمكنني من الحصول على قياس الرجل، كي أفهم، وحتى أشارك في، مصادر سلطته. صادفتُ رجالاً كهؤلاء في الجيش، وكتبتُ عنهم في ذلك الوقت، متظاهراً ـ كما يفعل الكاتب ـ بأنني أعرفهم أو أعرف أكثر مما يعرفون. لا أكون أبداً مرتاحاً في رفقتهم.

"متى سيرى هؤلاء القوم أنهم يواجهون مشكلة هنا وأن عليهم أن يقوموا بشيء ما حيالها؟"

لم أقل أي شيء، لأنني لم أرغب بالتواطؤ في شيء لا أعرف سوى القليل عنه.

قال ستايب ببطء، مقلّباً الاسم، متسائلاً بصوت مرتفع: "جيمس جيليسباي. من أين أعرف هذا الاسم؟ لست أنتَ الكاتب. هل أنت هو؟"

قلت له إنني الكاتب.

ـ "قرأتُ أحد كتبك. رواية؟ تجري أحداثها في لندن، أليس كذلك؟"

ـ "هذا ممكن".

ـ "أمتلك ذاكرة سيئة. ذكّرني بالعنوان".

قدمت له ثلاثة خيارات. اختار روايتي الثانية.

ـ "أنا أحب هذا الكتاب كثيراً".

شعرتُ بغبطة عميقة من إطرائه لي، أكثر مما تظاهرت به. ذلك أن كتبي غير مقروءة على نطاق واسع.

ـ "هل أنت كاتبة أيضاً يا إنيس؟"

أجابت: "كلا".

كان هناك صمت قصير وقح حاولتُ تغطيته شارحاً أن إنيس هي مراسلة صحيفة الأونيتا.

أوضحتْ: "صحيفة الحزب الشيوعي الإيطالي".

إذا ما أخذنا لطفه المصمّم بعين الاعتبار، كانت هذه الإضافة، غير مطلوبة، وعُبِّر عنها بعدوانية صريحة. نظرتُ إليها مندهشاً. اعتقدتُ أنه بعد تدخّل ستايب ربما عثرتْ على حليف. احمّرتْ حنجرتها. فقد وقفت ضدّه. فهمتُ الأمر فوراً. وهكذا فعل هو.

قال ستايب: "أنا أكثر ميلاً إلى جريدة وول ستريت جورنال".

ـ "لن أتوقع أي شيء مختلف".

ـ "وأنا لن أتوقع شيئاً مختلفاً منك، يا إنيس".

كان وجهها كلّه محمراً الآن؛ لم تكن تملك المزاج أو فهماً ساخراً كافياً للإنكليزية كي تتعامل مع لامبالاة سايب".

ـ "أنتَ لستَ صحفياً، إذاً؟" قلت كي نتخلّص من اللحظة الحرجة.

قال مبتسماً كي يظهر أنه غير مستاء: "أعملُ في القنصلية. عملتُ في السفارة في لندن لمدة عامين قبل أن أحصل على هذه الوظيفة. يجب أن نتبادل حديثاً طويلاً ونحن نتناول المشروبات الباردة في مساء أحد الأيام. يمتلك ليو ميزاته، ولكن الثقافة ليست إحداها".

نظرتْ إنيس إلى الطرف الأدنى من الحديقة حيث يجتمع ضيوف هاوثهوفد.

ـ "ثمة شيء يحدث في الطرف الآخر من النهر"، قالت وذهبت كي تنضم إليهم.

فيما كان يراقبها وهي تذهب قال ستايب بتعاطف مسلّ استأت منه قليلاً: "إنها امرأة تعرف ماذا تريد".

لم أستجب لهذا؛ إنه غريب. نحدق إلى الضفة البعيدة.

ـ "لديّ منظاران في السيارة"، قال ستايب واستأذن وسار باتجاه أعلى الحديقة.

ذهبتُ إلى الحشد ووجدتُ نفسي قرب مادلين. كان المتزلجون على المياه يشقون طريقهم ويدورون. حلّق طائر قاوند مبرقش على ارتفاع عشرين قدماً فوق المياه. كان هناك رجال في الزيّ العسكري على الضفة البعيدة.

ـ "ما الذي يجري؟"

ـ "كما ترى"، قالت مادلين وهي تشير عبر النهر إلى أبنية حيّ السكان الأصليين.

ثمة بعض الحركة غير المنظّمة، بشر يركضون في هذا الاتجاه وفي ذاك. إن الأصوات التي تأتينا من الضفة البعيدة مكتومة وراكدة.

قالت مادلين بتلذذ: "سيريهم هذا من هو الرئيس".

سمعتُ هاوثهوفد يعلن: "كان محتّماً. إذا لم نفعل أي شيء سيدخلون في رؤوسهم أنهم نجحوا في المسألة وفي المرة التالية ستكون الأمور أسوأ بكثير من بضع نوافذ محطّمة".

قال دو شوت: "إنك تثير المزيد من المشكلات لنفسك يا برنارد فحسب".

بدأ هاوثهوفد بنبرة متساهلة: "ما هو بديلك يا رومان؟"

أجاب دو شوت: "هناك دوماً بديل للقوة".

ـ "إنّ الحديث معهم، ومع قادتهم، جعلهم يشعرون بأنهم جزء من النظام".

قاطعتْ مادلين بعنف: "كيف تستطيع التحدث مع قوم كهؤلاء؟ بالكاد يتحدثون ما يكفي من الفرنسية كي يفهموا حين تطلب منهم تنظيف المنزل".

عاود ستايب الانضمام إلينا. مع منظاره الميداني.

قال وهو يناولني المنظار: "تبدو في غاية الجدية".

واجهني ضباب كثيف، الأوراق المكبّرة للدغل، المياه الموحلة للنهر أو السماء الرمادية في الأعلى، يمكن أن يكون أيّ من هذه. يمرّ شيء ما أمامي، يتسارع جداً. أحد الزوارق السريعة. أعدّل البؤرة وأتعقّبه. يبدأ القارب بالإبطاء، الفتاة التي على الزحافة تدور في النهر

كمثل طير مائي يحطّ، يدور الزورق ويلتقطها. أنقّل المنظار وأعثر على طائر القاوند، رأسه الذي يشبه المطرقة، المائل بسبب الحركة في الأسفل. يطوي جناحيه ويهبط نحو المياه.

صورة جديدة: سحابة صغيرة مفاجئة من الغبار ترتفع على حائط، ثم أخرى قربها. أشعر بالحيرة؛ ثم أسمع بداية سلسلة من الفرقعات الجافّة البعيدة.

إن صوت الرصاص مسموع بوضوح الآن. أدرك أنني كنتُ أنظر إلى إطلاق نار.

همس دو شوت: "يا إلهي!"

استرجع ستايب المنظار.

قال: "أستطيع أن أرى رجلاً ساقطاً، اثنين".

تواصل إطلاق النار بشكل متقطّع لأربع أو خمس دقائق. نظرتُ حوالِيَّ إلى وجوه الضيوف. من الغريب أنه لم تكن هناك ذرة تعاطف. ثمة بشر تُطلق عليهم النار وما من رد فعل مرئيّ. ولكن لماذا يجب أن يكون هناك ردّ فعل؟ هذه حفلة حديقة، في النهاية. ثمة مرج التنس والكروكيت والأطفال، والمتزلجون على المياه وطائر القاوند والبراءة واللعب اللذين ينطوي عليهما كلٌّ هذا. أُطلقت طلقات، ولكن الإصابة والموت في هذا الترتيب يبدوان لا معنى لهما. لا أحد ـ حتى أنا ـ يمكن أن يكون متأكداً من صلتنا بالأحداث الغامضة في الجانب الآخر من النهر العريض.

بدأ الناظرون المتمتمون يعودون إلى بركة السباحة وشرفة المراقبة. انضمت مادلين من جديد إلى شريكها في التنس. أتى فتى خادم وعرض أن يملأ كؤوسنا ثانية. بحثتُ في عيني الرجل عن شيء ما، أيِّ شيء، عن استجابة من نوع ما، استياء، غضب، كراهية. ولكن لا يوجد شيء. ملأ كأسي والتفت برقّة إلى ضيف آخر.

سلّمني ستايب المنظار مرة ثانية وهذا المرة أدار خطّ نظري.

"هل ترى تلك الجزيرة الكبيرة العائمة من الأخضر؟ تلك التي قرب حاجز الميناء؟"

أركّز على أعشاب متشابكة. بين الجذور المتواصلة والأوراق العريضة والسميكة ثمة أزهار زرقاء شاحبة منقّطة بالطين.

شرح ستايب: "زنبق الماء. إنه غرائبي. أحضره أحد المغفّلين من أميركا الجنوبية ظانّاً أنه سيبدو جميلاً في بركة الحديقة هذه. إن هذا الشيء اللعين ينتشر كالطاعون".

"إنه يبدو جميلاً".

قال دو شوت بغموض: "إنه متطفّل. يأكل الأوكسجين ويقتل النهر".

أرى شيئاً غير الأزهار. لست واعياً للقيام بأي رد فعل، ولكن سكايب التقط خيانة ما صغيرة في موقفي، أو في نَفَسي، في رائحتي.

قال ستايب: "ترى الآن؟"

أرى.

إنه جسم بشري، نصف مغمور، نصف مدعوم في شبكة فوضوية من أعشاب الجزيرة المندفعة. أحرك حقل رؤيتي نحو الأعلى إلى حاجز الميناء حيث مجموعة من الجنود السود، يقودهم ضابط أبيض، يقذفون رجلاً ميتاً ثانياً في المياه. أُحضر إليهم المزيد من الجثث - أربع، خمس، ست - للتخلص منها.

توقّفَ إطلاق النار. لا شيء يُسمع الآن إلا ضجيج لعبة تنس مادلين والزئير اللطيف للشلالات، على بعد أميال كثيرة.

قال دوشوت: "يجب أن آخذ ولديَّ إلى المنزل".

وضع يداً على كتفي.

قال: "اهدأ. اهدأ. وداعاً".

أمسك بيديْ ولديه وساروا باتجاه أعلى الحديقة.

ذهبتُ إلى إنيس. استطعتُ أن أرى غضبها. كانت مشبعة بالغضب والحزن. رأيت بعض الأشياء في الجيش، ولكنني لم أكن أبداً شاهداً على أي شيء كهذا الذي حدث هنا اليوم. تخلّيتُ منذ زمن طويل عن البحث عن الغضب في داخلي. فيما أنظر إليها، تتناثر أفكاري وفي فوضاها يلتفت ذهني إلى أمي. أنا أفكر بالحب ـ الحب الشديد ـ والإخلاص، وهدف هذه الأمور. أحبّت أمّي بهيام ودون أنانية. أحبّت الرجل الذي تخيّلتْهُ إلهاً، أحبّتْهُ حتى بعد أن هجرها هي وأطفالها. ستنكر إنيس هذا الحب، ولكنها لم تعد تحبّني، ليس بالطريقة التي فعلتْ بها هذا من قبل. أعرف ذلك. أستطيع أن أراه. على الرغم من الترحيب بي، على الرغم مما جرى أمس. فقد استُبْدِلْتُ الآن بأمور أخرى دراماتيكية، تخرط المرء فيها، تشغله وتهيمن عليه. ولكنني لن أتخلى عن الأمل. إن سياسة المثالية تتماشى مع التحرر من الوهم وحين يبدأ تأثير التحرر من الوهم سأظل هنا من أجلها.

في النهر انطلقَ الزورقان السريعان مرة أخرى. دار المتزحلقون على المياه نحو حاجز الميناء. وكمثل سائق لدى مشاهدة حادث خفّفوا من السرعة حين مرواّ قرب زنبق الماء ونفاياته النازفة. ثم انطلقوا مسرعين إلى مياه غير ملوّثة كي يواصلوا رياضتهم.

في المناطق الاستوائية على المرء أن يبقى هادئاً قبل أي شيء آخر. بالطبع. في الخلف، في ساحة التنس، صاح أحدهم:

ـ "لعب جيد يا مادلين".

ـ كن هادئاً. كن هادئاً. بالطبع. دوماً.

* * *

الفصل السادس

تُحْدثُ فيَّ انقساماً. كلماتُها تُجزّئني. ترفضُ عيناها أنظمة العين والتاريخ والعالم كما هي. يدورُ ذهنُها حول الرمز والأسطورة. تعيشُ في اندفاع جميع العواطف المعانقة، وأحياناً، حين أُصغي إلى أغنيتها، تنزلق عواطفي المُهَدْهَدة من أنشوطتها وتتبع المهنة العمياء لولائها؛ ولكن عندئذ كلمة، كلمة واحدة، ملاحظةٌ خاطئة على نحو واضح، تقاطعُ وأمتلئ بالاستياء منها ومن قاموسها المسرحيّ. قالت لي مرة ـ كان هذا أثناء زيارتي الأولى إلى بولونا، حين كانت تريني اللوحات التي تحيي ذكرى الأنصار الساقطين في المدينة: "أحياناً أعتقد أنني محظوظة جداً كوني أمرُّ في تجربة الحزب، أن تعرف أن هناك شيئاً ما يدعمك دائماً، أنك لست وحدك في العالم. لا أستطيع أن أتصور حياتي دون هذا". أمضينا يوماً ظريفاً: نهضنا متأخرين؛ تناولنا القهوة والكعك المحلّى والكانولو على الفطور، تناولنا النبيذ على العشاء وطفنا عبر الأروقة بعد الظهر. أضافتْ نكهة إلى وقتنا بحديث مثير، ولكنني نظرتُ إليها حين قالت هذا وانتابتني أفكار وحشية كالأحجار: من تظنّينني؟ ما الذي سبق أن قلتهُ أو كتبتهُ كي أقدم لك انطباعاً بأن لي علاقة بما تتحدثين عنه؟

كان يجب أن أقول لها آنذاك: "أعرف نفسي جيداً، يا إنيس. لن يعمل هذا". لكنني لم أفعل، لم أستطع؛ أحببتُ الروح الكامنة خلف المونولوجات الآملة الدائرة. ما زلتُ أحب هذه الروح.

* * *

غادرتْ الشقة كي ترسل مقالتها من المكتب الصغير قرب سوق السكان المحليين والذي تتقاسمه مع مراسل الإي بي سي. لماذا كان ردُّ فعلي قوياً، ووحشياً هكذا؟

جلستْ إلى الطاولة الصغيرة أمام النافذة التي تطلُّ على الشارع وبدأت تطعن مفاتيح الآلة الكاتبة. هبّتْ ريحٌ وأفسحَ ضوءُ أواخر الأصيل المجال لظلمة مضيئة وكئيبة. مطر رماديّ مفاجئ اجتاح الشوارع، كان هناك قصفُ رَعْدٍ مذهل وبدأ هطول المطر. ناولتْني الأوراق كما خرجت من البكرة، مترجمةً الكلمات التي لم أكن أعرفها.

قالتْ ورأسها منحن فوق الآلة الكاتبة: "حسناً. ما رأيك؟"

ـ "أعتقد أنك يجب أن تستريحي ساعة كي تهدأي".

ارتفعَ رأسها فجأة ولمعتْ عيناها بوحشية: "ماذا؟"

هززتُ كتفيَّ؛ لقد سمعتْ. وقفتْ على قدميها في لحظة.

ـ "ما الذي تقوله؟"

لم أكن أملك وقتاً لهذا. أمسكتْ ذراعي.

طلبت ثانية: "ماذا تقول؟"

أبعدتُها.

قلتُ بحرارة: "حسناً. اغضبي مما شاهدْتِ. ولكنك صحفيّة. على الأقل حافظي على إحساس بالمسافة، حاولي الحفاظ على بعض المسافة".

ـ "وكيف ستكتب عن هذا؟"

ـ "لا ينبغي عليك الصراخ كي تُسْمَعي".

ـ "قُتل بشرٌ".

صحّحْتُ لها: "أُطلقت النار على بشر ولم تكوني الوحيدة التي رأتْ هذا".

عاد فكها إلى مكانه، احمرَّ وجهُها.

- "أين؟"

كان الغضب في جميع الكلمات. جعلها الغضب في كتابتها الشاهد الحصري، وجَرَّدَ بقيّتنا من أهليتهم وأبعدنا. إن هذه المزايدة الأحادية تغضبني دوماً.

صرختْ من وراء ظهري المتصلب: "أن تكتب عن الظلم بدون غضب هو ظلم آخر".

أجبتُها بالهدوء المزدري الذي أعرف أنه يغضبها: "أنا واثق أنني قادر على طرح قضية قويّة من أجل الفرضية المعاكسة بالضبط". انتشلتْ أوراقها وغادرت.

لماذا كان ردّ فعلي مريراً وساخراً هكذا؟ ليس من الصعب العثور على الجواب. أُجبرتُ على الخروج من مدارها. قطعتُ ألف ميل كي أثبّتها وأحجزها، ولكنني أرى أنه لا توجد فرصة في أوقات الصيد المكتظّة هذه. أنا عنيف. لا مكان لي.

لكنّ الأمر يتعلّق أيضاً بالكلمات. فالمعاني الضمنية تتغلغل عميقاً: إنها تتعلّق بالطريقة التي نرى بها العالم. أعرف أن هناك أموراً باطنية، في الأسفل، عميقاً، في مكان التردد، وهذه تهم إلى درجة ما. ولكن ليس كثيراً، ليس بقدر ما تفكّر إنيس. يمكن ألا تحدث كلّها في الخارج ولكن هناك الكثير على السطح على الرغم من ذلك. ما هو حقيقيّ بالنسبة لي هو ما يمكن أن يُرى؛ أفهم قبل أي شيء آخر دليل الأعين. أما هي فتؤثر بها أشياء لا يمكن أن تُوصف، يمكن فقط أن

تنظر نظرة سريعة، وحين تكتب ـ هل هذا مسموح به لدى صحفي؟ ـ لا تكتب بشكل رئيسي كي تعلّم جمهورها، بل لكي تؤثر به. أعترضُ على هذا؛ أجده محرجاً، وغير مهنيّ، وأرفض المعنى الضمني بأن أولئك الذين منا، الذين لا يستطيعون أو لن ينتجوا في كتابتهم عرضاً متباهياً للغضب هم مخطئون بطريقة ما، أنهم في أسوأ الأحوال متعاونون مع العدوّ، وفي أفضلها بدون قلب، وأنانيون وتافهون. إن الكلمات، الكلمات الحقيقية ذات المعاني الحقيقية، تهمّني. لم أنظر بجدية أبداً إلى المعتقدات القويّة؛ فقد كان عملي الأول مؤرّخاً.

* * *

ذهبتْ. شعرتُ فجأة بأنني وحيد. أشرب من الويسكي ما أستطيع العثور عليه. أريد أن أهزّها وأسألها أن تسرع وتنمو وتتحرر من الوهم كبقيتنا؛ وأريدها ألا تتغيّر، أبداً، لأنني أريدها هكذا: حُفِّزتُ، عثرتُ على أشياء لن أعثر عليها بخلاف ذلك. أعيش في كثافة تبايناتنا. ولكن إلى أين تتجه، هذه العلاقة الغريبة؟

مرّتْ العاصفة. سكبتُ آخر ما تبقى من الويسكي، رشفته بجرعة واحدة وخرجت. كان عليّ أن أتخلّص من غضبي بالسّير. ابتعدتُ، غير مكترث بالاتجاه. كان الضوء يتلاشى بسرعة. تابعتُ السير حتى وجدتُ نفسي في إحدى الضواحي. كانت الشوارع مهجورة ومعظم المنازل مقفلة. مشيتُ، مبتعداً أكثر فأكثر عن المدينة. قلّتْ المنازل، انتهى الطريق الإسفلتي، وخيّم الليل. فحصتُ ردوداً مريرة على إنيس، لم أدقّق في مساري. بعد وهلة ضعتُ بشكل كامل.

أخيراً، لوّحتُ بيدي لسيارة وسألتُ عن الاتجاهات رجلاً كان في البداية محترساً، ثم حالما شرحتُ الموقف، اهتمّ بأمري. قال إنه بعد الذي حدث اليوم من يعلم ما الذي يمكن أن يفعله السود. سرتْ

شائعات عن مزيد من الاضطرابات وهناك بعض الأملاك التي تحترق في مكان ما. استطعتُ تذوق الدخان شيئاً حاداً أيضاً: الغاز المسيِّل للدموع على الأرجح. عرض عليّ توصيلة ولكنني شكرته رافضاً. تردد حيال تركي، ولكنني أكّدتُ له بأنني سأكون على ما يرام. كنتُ بحاجة إلى مزيد من الوقت مع نفسي.

اتّبعتُ توجيهاته ولكنني لم أصل إلى أي مكان. الليل دبقٌ، والقميص ملتصقٌ بظهري، شعري مسطّح من العرق. وفي الحال تمنّيتُ لو أنني قبلْتُ التوصيلة.

في المسافة رأيتُ أضواء وحين اقتربتُ سمعتُ الأصوات المرتفعة غير الخائفة لأشخاص في حفلة. ما يزال سمُّ الأشياء التي قلتُها لإنيس يسري في شراييني وأصوات الأصدقاء والعشاق الذين يمتّعون أنفسهم أجّج حقدي فحسب. حين اقتربتُ من الكوخ توقّفتُ وأغمضتُ عينيَّ. لا أريد في الواقع أن أواجه أحداً الآن، أو حتى أن أسأل عن التوجيهات. ما الذي أفعله هنا؟ ما الذي أفعله في هذه البلاد؟ لماذا أتيتُ إلى هنا؟ جففّتْني الحرارة، وجعلني الشراب أشعر بأنني مثير للشفقة. يجب أن أدقّق في الأمور، يا إنيس. يجب أن أفكّر وأن أكون صادقاً. يجب أن أكون صادقاً مرة واحدة في حياتي.

فتحتُ عينيَّ فرأيتُ امرأتين شابتين تخرجان إلى شرفة الكوخ المضاءة بقوة. ترتديان ملابس مسائية بدون أحزمة كتفيّة وتتحدثان بحيويّة حميمة وعارفة وبريئة. لم ترياني في الظلام. إن رائحة الدخان قويّة الآن وثمة جمرات في الجوّ. تهبّ الريح وتنسل الشرارات المتوهجة كمثل اليراع المتناثر دون تنظيم. إن المرأتين، بالبشرة المكشوفة، تصرخان في ذعر لعوب. تشجّعتْ الأصغر سناً بينهما، وهي فتاة طويلة بشعر أسود قصير، ونفختْ على الشرارات الغازية، كما لو على فقاعات، على وقع تصفيف رفيقتها المرحة. أثار الهياج

أصدقاءهنَّ، فخرج الرجال، أنيقين وضاحكين، لكي يؤدّوا بطولات ساخرة. راقبتُ هذه الحرب الصغيرة المرحة، مسحوراً بالمعنويات العالية التي لا أستطيع أن أكون جزءاً منها. نظرتُ. نظرتُ طويلاً. ما يتشكّل أمام عينيّ هو الاحتقار والحسد في وجهي: المركّب الذي هو الملكية الأكثر افتقاراً للجاذبية للمشاهد المعتاد. كم مرة قبضتُ على نفسي وأنا أنظر إلى إنيس هكذا، متسائلاً حول أسرار تفاؤلها وصداقاتها السهلة، ثم أشكك مستاءً بأصالتها وأهنئ نفسي على اكتفائي الذاتي الخاص البعيد.

يجب أن أكون صادقاً. إن للاكتفاء الذاتي حدوده. فقد أمضيتُ الكثير من الوقت في عزلة أناي المفتقر للبهجة. كان هذا أكثر مما أستطيع تحمّله أثناء غياب إنيس في الأسابيع القليلة الأخيرة.

* * *

هناك امرأة في لندن اسمها مارغريت. لستُ فخوراً بهذا الأمر. اتّصلتُ بها قبل بضعة أيام من سفري إلى ليوبولدفيل. لم أرها لعدة أسابيع ولم أنمْ معها منذ أن بدأتْ علاقتي بإنيس. التقينا في ذلك المساء في البار قرب شقّتي في كامدن. بدأتُ اللقاء، كما أميل، بانتباه، وحتى بخجل، دون أن أتحدث كثيراً وكنتُ أتجنّب تحديقتها. وبعد بضع محاولات فاشلة لجذبي إليها، سألتْني إذا كنتُ في تلك اللحظة حيث أردتُ أن أكون. أصدرتُ صوتَ تأكيد غامض. سألتني عن إنيس وكيف تجري أمورها في الكونغو. قلتُ إنها بحالة جيدة وتركتُ الأمور عند هذا الحد. تأمّلتْني للحظة، وازنة حالات صمتي، متأملة المسار المحتمل لليلة إذا قرّرتْ أن تُمضيها معي.

قالت ببساطة: "أينما التقينا يا جيمس يبدو الأمر وكأن عليك أن تمضي الساعة الأولى لتقرر إن كنت تحبّني أم لا".

لو نهضتُ وخرجتُ لربما كان الأمر أكثر إيلاماً لها. ولكن لم يكن بقائي لهذا السبب. كنتُ بحاجة ماسّة إلى الرفقة وأردت أن أنسى إنيس، أن أنسى سيطرتها عليّ، أن أعلن استقلالي لنفسي. كان هذا كلّه تافهاً، وكنتُ واعياً له في ذلك الوقت، ولكن هذا لم يُوقفني.

وهكذا قلتُ لها إنني سعيد جداً لرؤيتها ثانية. لم تقتنع. كنت واعياً بذكاء لافتقاري للمصداقية. اعتمدتُ على عامل الوقت والشراب كي أؤسس قضيتي. بدأتُ أسترخي كأساً بعد آخر. شجّعتُها على الحديث، الأمر الذي تفعله مارغريت جيداً. تركتُ كلامها المرح والذكي يقنّع حالات تجنّبي. بدأتُ أتذكّر لماذا أحببْتُها، لماذا استمتعتُ بحضورها الصادق. كانت تجعلني أضحك دائماً. روتْ لي قصصاً عن خلفية فيلمها الجديد، وكيف حين ذهبتْ إلى التأمين الطبي سألها الطبيب كم طولها. أجابت: 58، لكي يُردّ عليها إنه 55.

سألت بحدّة شاعرة بالإهانة: "هل أنت متأكد؟ هل آلة القياس صحيحة؟"

انفجرتْ من الضحك.

" كذبتُ في غالب الأحيان حيال هذا الأمر يا جيمس، لم أستطع تذكر كم كان طولي في الواقع".

كانت مارغريت مستمتعة بشكل متواصل بالحياة، وبالآخرين، وبي، وبجسديّتها الناضجة. كان شعرها الرائع يسقط متحرراً على كتفيها. وظّفتْ خدع الإغواء الصغيرة بحماس: رفرفة بين فينة وأخرى للجفنين، الانحناء إلى الأمام لكي تُظهر الشق بين ثدييها، التعديل العرضيّ للتنورة الذي لا يمكن إلا أن يلفت النظر إلى ساقيها. كانت تستمتع بشكل كامل بإبراز حسيّتها.

في موعد الإغلاق سألتني إن كنتُ متأكداً. في ذلك الوقت كان الكحول قد فعل فعله بي. ولحسن الحظ، في رفقة النساء، أكون سكّيراً سعيداً ومغازلاً. اعتادت مارغريت أن تقول دوماً إنني يجب أشرب في كثير من الأحيان.

هل شعرتُ بالذنب، فيما بعد؟ تخيّلتُ جدالاً مع إنيس دافعتُ فيه عن نفسي من إدانتها الغيورة لعدم إخلاصي قائلاً لقد تركْتِني، ذَهبْتِ بعيداً وتركْتِني! ما الذي كنت تتوقّعينه؟ ثم فكرّتُ بشيء أسوأ، أنّ مشاعرها تغيّرتْ إلى درجة أنها يمكن ألا تكترث مطلقاً الآن.

* * *

مشيتُ. صرتُ أكثر وحدة مع كلّ خطوة. كانت الحركة النابضة للضفادع والزيزان هي طمأنينتي الوحيدة وحين أتوقف أكون ثابتاً، وحذراً ومحترساً كحيوان غابة خائف. لم أستطع أن أرى كي أضع قدماً أمامِ الأخرى. تعثّرتُ وسقطتُ في المسار. حشرة لم أقدر على رؤيتها زحفتْ على يدي فأبعدتها بسرعة.

اقتربتْ سيارة، اجتاحني شعاع ضوئها الأمامي. نهضتُ على قدميّ ولوّحتُ. افترضتُ أنني سأبدو مذعوراً وفوجئت حين توقّفتْ. اقترب السائق وفتح الباب إلى جانبه. تسلقتُ مطلقاً بلعثمة شكراً بالفرنسية.

قال السائق بمزيج من الصرامة والاهتمام: "إن المشي خطير".

أجبته بندم: "أعرف. لقد تهت".

ـ "لقد جنّ السود الليله".

* * *

الفصل السابع

عثرتُ على بـار مفتـوح في فـانجيلي، يُـدعى الكـوليبري. كنـتُ أعرف من قبل أن ليوبولدفيل البيضاء بلدة صغيرة. كان البيض يـذهبون إلى حفـلات ومنـازل بعـضهم بعـضاً، ويرتـادون المطـاعم والنـوادي نفسها. ولهذا لم أتفاجأ على نحو خاص حين عثرتُ بين نصف الدزينة أو ما يقاربها على ستايب. كان يقف وحده أمام البار، يشرب آخـر مـا تبقى من كأس. رآني لحظة دخولي. حـين رأيتـه لأول مـرة في حديقـة هاوثهوفد اعتقدت أنّ له نظرة رجـل يُستدعى باسـتمرار إلى واجبـات صارمة وغامضة، ولكن تعابيره اليوم عاطفية، ودافئة.

بدا كأنه يستعدّ للخروج حين وصلت، غير أنّه قـادني إلى طاولـة قرب النافذة. كان الداخل صغيراً ومدهوناً بأحمر غامق. خشب الأثاث داكن، وثمـة سـناد نحاسـي علـى البـار، خلفـه، في تجويـف ضـيق تنتصب زجاجات الكحول على رفوف زجاجيـة. جهـاز تـسجيل يبـث موسيقا تشالرز ترينيت.

قال: "تبدو كشخص يحتاج إلى أن يتحدث".

هنا شخص يفهم. انتابني إحـساس بأننـا حـين نـسير خـارج هـذا المكان سنصبح أصدقاء. طلب الكونياك من مالكـة المحـل الوالونيّـة، التي دعاها آنا. طريقته معها غزليّة وحيوية واثقة. تذوّق شرابه.

قال: "أينما عُيِّنت أحاول أن أعثر على بار كهـذا، مكـان أسـتطيع أن أدعوه موطني، حيث يعرفني النـاس ويفعلـون أمـوراً صـغيرة لي، أموراً لبقة، كمثل البـدء بمـزج كـوكتيلي المفـضّل حالمـا أدخـل مـن

الباب، أو إذا كان هناك ازدحام يخدمونني أولاً. بهذه الطريقة ستعرف دائماً أنه لديك مكان ودّي تذهب إليه إذا كان يومك سيئاً. أعرف أن هذا ليس كثيراً ولكن يمكن أن يكون المرء وحيداً في الحياة وفي مثل سني تتعلم أن تقدّر أعمال المعروف الصغيرة التي يقدّمها الناس لك".

توقّف ونظر إليّ. إن عينيه البنيّتين متوضعتان قريباً من بعضهما بعضاً، وهناك إشارة ضئيلة إلى حَوَل. حين يميل إلى الأمام واضعاً ذراعيه على الطاولة، وقدماً فوق أخرى تحت كرسيّه، ويحيطك بدائرة اهتمامه فإن هذا يمنح تعابيره صراحة خاصة لا تُقاوَم.

قال بابتسامة متعاطفة: "كيف كان يومك؟"

هذا لا يشبهني. إن أقرب أصدقائي لا يعرفون أيّاً من هذه التفاصيل. ربما لأنه غريب والإحراج أقلّ ولا توجد نسخة من تاريخي الخاص، وتاريخي مع إنيس، وعليّ أن أواصل من أجل الثبات، من أجل الكبرياء؛ ربما كان الأمر مجرد نوع من الإعياء من ناحيتي، كما لو أنني لم أعد أمتلك القدرة على وضع كلماتي الصادقة تحت السيطرة. أخبرْتُهُ كلَّ شيء. أخبرْتُهُ شيئاً واحداً بخاصة، أنه بعد ستة أشهر من المحاولة لم تحبل إنيس.

لم يهمّني الأطباء طالما كنت قادراً على تدبّر الأمر، وسأكون سعيداً بتأجيل هذه المسألة لستة أشهر أخرى، لعام أو أكثر. إلى الأبد. ثمة قيمة في الجهل، لا تَسمحْ لأحد بأن يُقنعك بخلاف هذا: إن الجهل يخدمُ وظيفة. ولكنَّ موقفها كان مختلفاً. أرادت أن تجري الاختبارات، أرادت أن تعرف. ربما شككت بالحقيقة سابقاً كما اعتقدتُ فيما بعد. ذهبْنا لإجراء الاختبارات. اكتشفوا أن المشكلة ليست في منيّي، وإنما في قَناتَيْها. كانت محض صدفة رؤيتي لها في يوم الموعد مع الطبيب. كانت الساعة الثالثة بعد الظهر. وكان الصباح

كئيباً ومظلماً. كان الناس في الشارع يشقون طريقهم دون حيويّة، مفكرين بالبقاء في المنزل فحسب. نظرتُ من نافذة الباص وحدثَ أن رأيت، من الخلف، فتاة مدرسة تسير بالانشغال الذي لا هدف له والحالم لفتيات ذلك السن. بدتْ وحيدة بين السائرين متناسية للطين والبرد والدفع الشديد للريح. نظرتْ حواليها، لم تر شيئاً، لم تر أحداً. ذكرتني بالفتيات من سينت دومينيكس وفورتويليم، بسيقانهنّ النحيلة العارية في الشتاء واستغراقهنّ الذاتيّ المؤثر. هذه لم تمتلئ بعد كامرأة، ولكن بعد ستة أشهر، أو عام، ستتحوّل.

حين اقتربَ الباص منها لم أعرفْ ذلك الوجه الشاحب والبارد. كان مهجوراً، ووحيداً، وعلى شفا الهزيمة. مصدوماً تعرّفتُ على إنيس وأحنيتُ رأسي في فهم فوريّ. كانت فكرتي الأولى هي أن أنزل وأذهب إليها؛ تمسكتُ بالمسند المعدني البارد أمامي ثم أفلتّه. عرفتُ أنني لا أقدر على مواجهة شقائها. ليس نبيلاً جداً بل سهل جداً. أسرعَ الباص. تجاوز المواقف، بما فيه الموقف الخاص بي. لم أتحرك.

لا أذكر أين نزلتُ، ولكنني أتذكر أنني تجولتُ في تشارنغ كروس رود وبحثتُ في مكتبات بيع الكتب. اشتريتُ نسخة مستعملة من كتاب نقدي عن هنري جيمس. اجتزتُ مشياً جسر واترلو. لم أكن مثل إنيس، شعرتُ بالبرد. دخل الطين في حذائي، وتبلّلت جواربي. عرفتُ أنها ستكون في الشقة، منتظرةً مع أخبارها. وهكذا تابعت السير وقدماي كالجليد.

أخيراً عبرتُ النهر من جديد وشققتُ طريقي نحو المنزل، ببطء وعلى قدميّ. وصلتُ حوالى الحادية عشرة. كانت في السرير، صامتة.

قلتُ لها وأنا أخلع ثيابي: "تناولتُ كأساً مع آلن. آسف. كان يجب أن أتصل".

تمتمتْ قائلة لا بأس. لو رأتْ وجهي لأدركت على الفور أنني كنت أعرف، ولكنها كانت مستلقية على جانبها، تدير لي ظهرها.

تمدّدتُ قربها وقبّلتُ قفا عنقها. كنا في تلك الأيام نمارس الحب كلّ يوم. لم تستجبْ ولم أكن من النوع الذي يلحّ. ولكنني في تلك الليلة ألححتُ. كان يجب أن أعرف بشكل أفضل. اعتقدتُ أن الأمر سيكون تأكيداً للحبّ، وتحدياً للطبيعة وللفشل وللقدر؛ ولكنّه بدلاً من ذلك كان كئيباً. أخبرتني في الصباح. بكت، قليلاً فقط. قلتُ لها إنّ هذا لا يهم، ولم نذكر الأمر أبداً بعد ذلك.

إن حبّ إنيس هو كالهواء المُسخَّن. لا يتحمّل أن يُحْجَز. يجب أن يتمدّد. احتاجَ في تلك النقطة من حياتها إلى طفل، وحين لم يعثر عليه استدار إلى مكان آخر.

* * *

يُصْغي ستايب مثل كاهن جيّد. وبالمقابل يمنح قطعاً من نفسه. لا يمنح الكثير، ولا يقدّم لك تفاصيل جوهريّة. ولكنه يمنح ما يكفي. عرفتُ أنه لم يعرف والده جيداً مثلي. وراقب أمّاً تُصارع، وأحبّ شخصاً أكثر مما أحبّه. يكفي. لا حاجة كي أعرف أن هناك أموراً مشتركة بيننا.

نظر إلى ساعته. البار فارغ. تثاءبت آنا، كي تشجّعنا على الرحيل. حدق بي. استطعْتُ أن أرى بعض الحسابات خلف عينيه.

سأل: "إلى أين أنت ذاهب الآن؟"

- "إلى المنزل، أفترض".

قال بعد صمت: "لماذا لا تأتي معي. ربما كان لدي شيء يمتعك".

* * *

في جادة ألبرت الأول هناك سيارات عسكرية فحسب. المستوطنون في منازلهم.

عبرْنا المقبرة، وملعب الغولف، وفي الجانب الآخر من الجادة ينتصب في حديقة مسوّرة منزل من الآجر الأحمر الصلب مؤلف من طابقين ذكرني قليلاً بمنازل الطبقة المتوسّطة في كراونش إند أو مسويل هيل. كان الجنود ورجال الشرطة يدورون حول البوابة الحديدية المغلقة وقد أمعنوا فينا النظر ونحن نمرّ.

قال ستايب: "إنه منزل لومومبا. كان واحداً من أوائل السود الذين سُمح لهم بأن يعيشوا في حيّ أوربيّ. ما يزال هناك عدد قليل جداً. سيعتقله البلجيكيون في اللحظة التي يظهر فيها. أوصلت له كلمة بأن يذهب إلى منزل سائقي. سيكون آمناً هناك لبعض الوقت".

سألته: "كم قُتل اليوم؟"

"من المحتمل عشرة، وربما مئات. يتّصف الموت الأفريقي بعادة تحدّي التحديد الكمّي الصحيح".

"ما الذي حدث بالضبط؟"

"إن الحركة الوطنية الكونغولية نظّمت مسيرتها. كان خطاب باتريس قويّاً، كما بوسعك أن تتصور، وملهِماً" - ابتسم لي - "ألهم الرؤوس الحامية الشابة من أجل قذف بعض الأحجار وتحطيم الحوانيت. وبعد العرض الصغير ليلة أمس، لم يكن البلجيكيون راغبين في منحهم يداً حرة، وهكذا أرسلوا مفرزة من الجنود البلجيكيين النظاميين والقوة العامة. وتعرف ما تبقى".

"ما هي القوة العامة؟"

"ليست في الحقيقة جيشاً، على الرغم من أنّها وحدات خدمت مع الحلفاء أثناء الحرب الأخيرة: كانوا منخرطين في الحملة الحبشية وأعتقد أنني سمعتُ أنهم أرسلوا وحدة مشفى ميدانيّ إلى جبهة الهند ـ بورما ـ ولكن في الحقيقة إنها جهاز أمن داخلي. أربعة وعشرون ألف رجل ـ مزيج من الجنود والدرك ـ مع أكثر من ألف ضابط بلجيكي".

من مكان ما في المسافة يُسمع صوت انفجار.

قلت: "ليس هذا ما ظننته".

أصغينا. أتي الصوت الذي ننتظره بعد ثلاثين أو أربعين ثانية. انفجار ثان. مثل الأول، الصوت مكتوم بدلاً من حاد ومتردد الصدى.

قلت: "هذا هاون، أليس كذلك؟"

قال هازّاً رأسه: "يا له من خطأ. يا له من خطأ كريه!"

غادرنا الجادة واقتربنا من حاجز تفتيش عند حدود المدينة الحديثة. لوّح لنا رقيب أسود كي نقف. مدَّ ستايب يده إلى سترته وأخرج أوراقه، ثم وثيقة ثانية لفتَ انتباه الجندي إليها. ذهب الجندي كي يستشير ضابطاً أبيض، جاء بعد أن فحص الوثائق. حدث نقاش آخر. انسحب الضابط.

نظر ستايب إلى الجنود وقال: "إن الكونغوليين ذوي الرتب الأعلى في القوة العامة هم ضباط الصف. كما بوسعك أن تتصور، ليسوا سعداء بشكل كامل حيال هذا الترتيب. لا يعني أن هذا يزعج القائد، الجنرال جانسينز. إنه ضابط من المدرسة القديمة. أحمق، وليس بالضبط ما ستدعوه متبصّراً حيال مسألة العرق".

رفع ذراعيه عبر النافذة المفتوحة ونقرَ على المعدن بأصابعه.

قال: "يمكن أن يستغرق هذا بعض الوقت. منحني الأمن العام أذناً بالحركة ولكنّ الجنود يريدون أن يقوموا بتفتيشهم".

قدّم لي سيجارة. حدث انفجار ثالث تبعه بعد دقيقة رابع. ما الذي يقصفونه؟ حاولتُ أن أتخيّل الجنود ومدافعهم الهاون والقذائف التي تُطْلق دون تمييز في أحياء الصفيح الواسعة في المدينة. ما الذي يطلقون النار عليه؟ ما الذي كانوا يتوقعون حدوثه؟

سأل ستايب بإهمال: "كم يستطيع البلجيكيون الصمود هنا حسب رأيك؟"

"يبدو أن أمورهم جيدة".

قال بيرود: "لا أتفق معك. إن إطلاق النار هذا الأصيل واستخدام الهاون هو نَفَسهم الأخير. إن البلجيكيين على وشك الاستسلام".

سألتُ: "يستسلمون لماذا؟"

ـ"للاستقلال".

ـ "نعم، بعد عشر أو عشرين سنة".

ـ "حوالي ستة أشهر".

دخّن سيجارته ببطء. عرف أنه كان يشد انتباهي.

ذكّرْته: "ليس هذا هو الموقف الرسمي".

كانت إنيس تلعن الموقف الرسمي في جميع مقالاتها الغاضبة، وقد عُبِّر عنه في التصريح الحكومي في بروكسل في أوائل هذا العام. قرر البلجيكيون أنه يجب أن يُقاد الشعب الكونغولي إلى الاستقلال بالتدريج وعلى مراحل بما أن المستعمرة لن تكون جاهزة للحكم الذاتي حتى وقت طويل.

"إن التصريح الحكومي لا يستحق الورق الذي كُتب عليه. إنهم يستعدون للانسحاب بينما نحن نتحدث".

سألته: "هل البلاد جاهزة للاستقلال؟"

ـ "ما رأيك؟"

ـ "وصلتُ أمس".

ـ "حتى ولو حدث الأمر، هل سبق ورأيت شيئاً يشبه طبقة مهنية من السود حتى الآن؟"

أطلقتُ ضحكة قصيرة مقراً بهذه النقطة. يكفي خمس دقائق في ليوبولدفيل لرؤية كيف ومن قِبَلِ مَنْ تُدار الشؤون اليومية للمستعمرة.

قال ستايب: "ليس هناك جندي أسود واحد فوق رتبة رقيب. ما من موظّف واحد فوق درجة موظف مبتدئ، لا يوجد طبيب أسود واحد، أو مهندس، أو مصرفيّ. سرتْ شائعة بأن هناك محامياً واحداً، إن الصحفيين يقومون بمراهنات حول من سيجده أولاً. إن النقطة هي: من الذي سيدير البلاد حين يرحل البلجيكيون؟"

أتي الضابط إلى السيارة وأعاد الأوراق إلى ستايب.

أعلن الضابط بجدية: "هناك عصابات من قطّاع الطرق في كل مكان. أستطيع أن أرسل معك مرافقة إذا أردت".

أجاب ستايب بمرح: "شكراً لك. لن يكون هذا ضرورياً". ثم أدار المحرك.

ـ "هل أنت مسلح".

ـ "بالطبع".

لم أفكّر باحتمال أن ستايب يحمل مسدّساً. ففي محيطنا الحالي المعرفة مطمئنة، ولكنها تثير أيضاً أسئلة حول الرجل، من هو وما الذي يفعله.

لوّح الضابط للجنود على الحاجز وودّع ستايب بتصلّب. بدا أن ستايب قبل ذلك على أنه حقّه. نظرتُ إليه، إلى الشريان السميك في جبينه والرموش الطويلة المحنية فوق عينيه البنيتين الناعمتين. في المسافة سمعتُ الانفجار المكتوم لقذيفة هاون أخرى. وحين عبرنا نقطة التفتيش، حين رفع الضابط يده محيّياً، حين أسرع الجنود كي يدفعوا الحاجز جانباً ويفتحوا لنا الطريق إلى المدينة، رأيتُ ثانية ما رأيته في حديقة هاوثهوفد اليوم في وقت أبكر: السلطة والثقة والإيمان بالنفس. حتى حين ذكّرتُ نفسي أن هذه ليست أكثر من زاوية مظلمة من مدينة استعمارية لم يسمع بها معظم البشر، لم أستطع مقاومة الطريقة التي جرت فيها أفكاري. لم أستطع أن أقاوم التفكير بالسلطة، بالأصالة، وعدم جدوى كون المرء كاتباً.

* * *

الفصل الثامن

تجري مياه المجارير في القنوات المفتوحة لشوارع المدينة الضيقة وغير المعبّدة. إن الأبنية المنخفضة، والبسيطة والمكعّبة مرتبة في كتل صغيرة، ومكتظة بكثافة وكثيرة الأزقة. ثمة إضاءة قليلة في هذه المتاهة القذرة. لا يوجد سيارات أخرى، لا أحد مرئي.

ذكّرتُ ستايب: "لم تقلْ لي ما هو موقفك من الاستقلال؟"

ـ "كانت لحكومتي دوماً مصلحة في إنهاء الاستعمار في أفريقيا. إن الولايات المتحدة هي إحدى البلدان الغربية القليلة التي لا تملك مصالح استراتيجية أو اقتصادية أنانية في الكونغو".

قلت: "ثمة شركات أميركية هنا على الرغم من ذلك، أليس كذلك؟"

بدا مخادعاً قليلاً، حتى معي.

ـ "أكيد. ولكنّ مصالحنا الاقتصادية هي نسبياً ثانوية. إن موبيل أويل هي إحدى أكبر الشركات الأميركية التي تعمل هنا. تستثمر 12 مليون دولار في محطات خدمة، ولكن حين تقارن هذا بالاستثمار الأميركي الكلي من أربعة إلى خمسة بلايين، لا تستطيع القول إن موبيل هي أحد اللاعبين الكبار في الكونغو".

ـ "ماذا عنك شخصياً، كيف تشعر حيال استقلال الكونغو؟"

قال: "ربما أقوم بافتراضات كبيرة هنا، يا جيمس، ولكنني لم أعد مؤمناً أكثر منك. إذا آمنت بأي شيء فهو الحكومة كإدارة، كإدارة جيدة. إن فلسفتي هي: الميزانية المتوازنة والاستقامة المالية، والضرائب

المنخفضة، والاستعداد الدفاعي الملائم. سأكون سعيداً بكونغو مستقلة طالما هي مستقرة ومدارة جيداً. سأكون سعيدة باستمرارية الترتيب الحالي، طالما تستطيع أن تبرهن لي أنها ستكون مستقلة ومدارة جيداً. ولكن ما أفكر به لا علاقة له بالموضوع. إن الحقيقة هي أن البلجيكيين سيرحلون بعد ستة أشهر وهذا هو الموقف الذي يجب أن نتعامل معه".

انعطفَ إلى الزقاق. كان الضوء الوحيد يأتي من الأضواء الأمامية للسيارة. أحصى الأكواخ فيما كنّا نمرّ في الزقاق. إنها غير محصية. توقف، وأطفأ المحرك والأضواء.

قال ونحن نخرج من السيارة: "هل تستطيع تخيّل ما الذي سيحدث حين يكتشف المستوطنون هذا؟ إن معظمهم يدفنون رأسهم في الرمال الآن. لن يقرّوا حتى لأنفسهم بما يجري. إن الرجال هم في ملاعب الغولف يتباهون بسياراتهم ومعاشاتهم فيما تجلس النساء في منازل بعضهن بعضاً ويتحدثن عن الستائر والمطابخ. يعتقدون أنّ مستعمرتهم ستستمرّ إلى الأبد، وأنهم سيعيشون كلوردات وسيدات لبقية حياتهم. لكنّهم سيضطرّون حالاً إلى القيام بتعديلات مادية وذهنية كبيرة جداً. سيكون الأمر صعباً عليهم".

فكّرتُ بمادلين. اعتقدتُ أنّ التعديلات المطلوبة يمكن ألا تكون سهلة عليها.

قادني ستايب إلى باب غير مرئيٍّ لكوخ مظلم. لم يكن عليه أن يقرع الباب، فقد انتُبه إلى وصولنا. ظهر رجل أسود متوسط الطول كي يستقبلنا. كان يرتدي بنطلوناً كستنائياً ضيّقاً جداً وقميصاً عليه تصميمات فاقعة صفراء وخضراء وله لمعان الحرير الصناعيّ. كانت المشابك الكبيرة تتوهج بشكلٍ سخيف على حذائه الجلدي في نصف الضوء. وكان يرتدي عقداً ثقيلاً من الذهب المزيّف وعدة خواتم رُكِّب عليها زجاج أحمر وكهرماني.

وضع ستايب ذراعه حول كتفي الرجل.

قال بالفرنسية: "جيمس، هذا سائقي أوغوست".

أوغوست أنيق، جبهته عالية، له عظام وَجْنيّة جيدة وفك قويّ. كان سيبدو مثيراً للخوف، أو على الأقل جدياً، لو لم يبتسم حين دخلنا. أفسدت الابتسامة الوجه؛ كانت نظرته آنذاك غير شجاعة بشكل كوميدي.

قال ستايب وهو ينظر إلى أوغوست كأب ينظر إلى ابن ويهزّه بتعاطف فظّ: "هذا ولد عظيم. ألم تعلق في إطلاق النار؟"

أجاب أوغوست: "كنتُ هناك ولكنني على ما يرام".

صوت ستايب مليء باللوم: "كان يجب ألا تذهب إلى هناك. قلت لك إنه ستحدث مشاكل".

أغلق أوغوست الباب خلفنا. كانت الغرفة الصغيرة التي بلا نوافذ عارية إلا من إطار سرير حديدي - بدون فرشة - ولوح طويل من الخشب الرمادي المتشقق، مرفوع بآجرّات طينية على ارتفاع قدم كي يخدم كمقعد. كان هناك أيضاً مصباح إعصاري قديم يمنح الضوء القليل الموجود فيه. بأمر فظ من أوغوست، انتقل رجلان من المقعد إلى عدم الراحة النسبية لإطار السرير. كان في الدهان الأسود للإطار الحديدي تقبّبات وتقشّر. الجو خانق من رائحة التراب الرطب والتعرّق. قطة قذرة تلعب على حصير من ليف نخل الرافية مفروشة على الأرض المتسخة. جلس أوغوست ورفيقاه مقابلنا كأطفال ضجرين، يراقبون بطريقة لاهية نوعاً ما ولكنهم لا يقولون شيئاً.

سأل ستايب عن مزيد من التفاصيل عن أحداث بعد الظهر. إن فرنسية أوغوست بطيئة ولكن اللكنة والإيقاعات والصياغة مألوفة جداً لي مما مكّنني من المتابعة بسهولة. سمعت على أي حال كلمة "باتريس".

سأل ستايب بفرنسية فيها لكنة ثقيلة ولكنها فصيحة: "هل باتريس على ما يرام؟"

أومأ أوغوست برأسه نحو الحائط البعيد، إلى غطاء سرير قديم معلّق فوق ما يبدو كمدخل إلى غرفة مجاورة، حيث استطعْتُ أن أسمع عدة أصوات. جلسنا منتظرين.

سأل ستايب بعد وهلة: "لماذا سيرغب البلجيكيون بالتخلي عن مستعمرتهم؟".

"حين تسأل البلجيكيين لماذا هم في الكونغو يقولون لك: هَيمنْ كي تخدم، كي تخدم وتُحضِّر. يقولون إنّ هذا هو العذر الوحيد للاستعمار، وتبريره الكامل. هذا هراء بالطبع. إن العذر هو الربح. حالما تذهب الأرباح، تذهب الأعذار كذلك".

ـ "هل ذهبت الأرباح؟"

ـ "ذهبت دون رجعة. فقد دُمِّر اقتصاد المستعمرة".

ـ "لا يبدو الأمر كذلك".

قال بشكل قاطع: "إنها منطقة كوارث" ـ ثم أضاف ـ "إذا أردت أن تكتب مقالة عن هذا، أستطيع مساعدتك".

فاجأني الاقتراح.

ـ "لماذا؟"

ـ "كلما عرف المستوطنون ماذا يجري بشكل أسرع طال تعوّدهم على الفكرة ".

ـ "كلا، قصدْتُ لماذا أنا؟"

ـ "ماذا أستطيع أن أقول؟ تمتلك شعوراً حيال شخص ما".

هزّ كتفيه ومدّ يديه في إيماءة مفتوحة كي يقرّ بالحقيقة الواضحة لحبّنا الغريزي لبعضنا بعضاً.

تابع: "لديّ الوثائق، كل الحقائق وكل الأرقام".

دفع أحدهم غطاء السرير المعلق جانباً.

رأيتُ شاباً طويلاً ونحيلاً يرتدي نظارة برأس يبدو صغيراً جداً بالنسبة لكتفيه العريضين. كان يرتدي بنطلوناً رمادياً خفيفاً وقميصاً أبيض مفتوح العنق وقصير الكمين. له لحية تيس صغيرة، وذراعاه طويلان. عرفتُ أنه باتريس لومومبا من صور الصحيفة. نظر إلى ستايب ثم إليّ. حدّق بي قليلاً، دون تعبير على وجهه. انضمّ إليه رجلان آخران.

- "مارك، صديقي".

تقدم ستايب وصافح لومومبا بمودة.

- "كيف حالك يا باتريس؟"

- "لم يكن يوماً جيداً. مات كثيرون".

قال ستايب: "كان علينا أن نخرجك، أن نوصلك إلى مكان آمن. برازافيل أولاً ثم آكرا على الأرجح".

فكّر لومومبا للحظة ثم قال: "هل من الصواب أن يهرب القائد ويترك أتباعه لمصيرهم؟"

- "هل من الصواب أن يسمح القائد لأعدائه بأن يسجنوه؟ إن الحركة ستتداعى بدونك".

لم يقل لومومبا أي شيء. واصل النظر إليّ.

قال ستايبت: "باتريس، هذا جيمس جيليسباي. أعتقد أنك تعرف صديقته إنيس سابياني".

قال لومومبا، وقد أصبح صوته محفّزاً فجأة: "بالطبع نعرف إنيس" ـ صافحني بيديه الاثنتين ـ "إن إنيس صديقة جيدة لشعبنا ولقضية الكونغو. أهي امرأتك؟".

سمعتُ نفسي أقول نعم بسرعة وبتشديد، ورأيتُ ستايب ينظر إليَّ. لستُ معتاداً على وصف إنيس بهذه الطريقة: امرأتي. تفعل الكلمات شيئاً ما كي تمنحني الأمل، كما لو أنّ قوّتها وحدها تجعل المقولة صحيحة. خفض ستايب بصره للحظة. عرف ما الذي يجري في رأسي وانتبه.

عرّفني ستايب على الرجلين اللذين مع لومومبا: نداكا ومونغول. إنهما مسؤولان رئيسيان في الحركة الوطنية الكونغولية. يرتدي الأول ثياباً أكثر أناقة من ثياب أوغوست، لامعة ومخيّطة جيداً. ابتسامته عريضة، ومصافحته مداهنة جداً بحيث لا تمكن الثقة بها. مونغول متفكّر، جدي وعلى الرغم من أنه لبق انتابني شعور بأنه لا يرحّب بوجود هؤلاء الرجال البيض الغريبين.

قال لي ستايب: "لديّ بعض الأمور التي يجب أن أناقشها مع باتريس. لن أتأخر طويلاً".

اختفي الرجال الأربعة في الغرفة الأخرى.

جلستُ على المقعد وفحصتُ ساعتي. إنها بعد الواحدة. أغمضتُ عينيّ. أصبحتُ واعياً لوجود شخص يقف قرب كتفي. ابتسم أوغوست لي.

ـ "إن هذا الرجل أخي"، قال أوغوست بالإنكليزية مشيراً إلى أحد الشابين اللذين يجلسان على إطار السرير.

سألته: "ماذا عن الشخص الآخر؟"

ـ"إنه أخي أيضاً".

أبتسم للأخ الآخر. تجهّم أوغوست بتذلل.

قلت: "تتحدث الإنكليزية بشكل جيد جداً".

قال باللاتينية: "لقد حُفِّزتُ على تكريس انتباهي كلّه إلى الأعمال التي ألّفها اليونانيون".

ـ "واللاتينية".

قال كما لو أنه يكشف حقيقة مخبأة: "إن المعرفة ضرورية. تعلّمتُ الإنكليزية للسبب نفسه الذي دفع إرازموس إلى تعلّم اليونانية".

هززتُ رأسي محاولاً بذل ما في وسعي كي أضاهي جدّيته.

أضاف بشكل مشوّش: "إن الإنكليزية هي لغة الرومان الجدد".

ـ "الرومان الجدد؟"

ـ "الأميركيون".

ـ "نعم، بالطبع".

قال: "سأذهب إلى أميركا كي أدرس".

ـ "ما الذي ستدرسه؟"

ـ "علم النفس، والطب النفسي، وعلم التربية، والفيزياء..."

ـ "هذه موضوعات كثيرة للدراسة، وكلها تبدأ بحرف باء".

قال بجدية: "نعم. ألديك أصدقاء في أميركا؟"

ـ "البعض".

ـ "هل تستطيع إعطائي عناوينهم؟"

صمتُّ ثم قلت: "لا أحمل دفتر عناويني معي الآن. سأبحث عن بعض الأسماء وأعطيها لستايب فيما بعد".

قال بجدية: "شكراً يا عمّ. أعتقد أن أميركا مكان جيد".

ـ "أعتقد هذا".

ـ "في أميركا يحترمونك من أجل ما تنجزه. إن لون البشرة غير مهم".

شعرتُ بأنني مشوّش؛ فالتواطؤ في هذا كاذب ومتباه، ولكن في الوقت نفسه لا رغبة لدي بالتدخّل في فانتازيا يمكن أن تكون محورية لجعل حياة لا تُحتمل قابلة للاحتمال.

سألته بدلاً من ذلك ما الذي ينوي فعله حالما ينهي دراساته في علم النفس والطب النفسي وعلم التربية والفيزياء.

قال مبتسماً: "سأصبح محامياً".

أجبته وأنا أهزّ رأسي بشكل غير متيقّن: "لماذا تريد أن تصبح محامياً؟"

ـ "كي أدافع عن الفقراء ضد الظلم" ـ ابتسم، بتألق مؤذ هذه المرة، وأضاف ـ: "وكي يكون لي مكتب في بارك أفينيو بست سكرتيرات جميلات".

بدأ بالضحك. وكذلك فعل أخواه، على الرغم من أنني لستُ متأكداً أنهما فهما. بعد وهلة تكوّن لدي انطباع بأنهما ربما كانا يضحكان عليّ.

* * *

الفصل التاسع

سيأتي الوقت الذي سأتحرر فيه من استحواذها على تفكيري. ربما سيأتي ذلك الوقت حالاً، لكنه لم يأت بعد.

إنها نائمة على جنبها تواجه الجدار وركبتاها متوازيتان، القدمان متحرران من تشوش الغطاء. الغرفة حارة بلا هواء. أخلع ثيابي وأدخل إلى جانبها، ملامساً الخطوط الكفافية لظهرها الضيق وردفيها. في حركة آلية، ترفع ذراعها المطوي كالجناح كي تسمح لي أن أضع يداً على نهديها. هذه طريقتنا في النوم معاً. ثمة أصابع معزّية بين ساقيها.

ـ "هل أرسلتِ مقالتكِ؟"

أُزيحُ جانباً ضفيرةَ شعر وأُقبّل قفا عنقها.

ـ "إن الأمن العام يمنع الصحفيين من استخدام التيليكس، ولكنني أمّنتُ مراكبيّاً كي يأخذني إلى برازافيل".

صوتها بعيد ومبحوح، رواسب الجدل ما تزال تكمن بيننا.

ـ "أين كنت؟"

ـ "مع ستايب".

تصدر صوت ازدراء خفيف. لا تتأثر.

قلت: "ليس كما تظنّين".

ـ "إن الأميركيين والبلجيكيين في الجانب نفسه. إنهم أعداء لحركة الاستقلال".

قلت: "ربما كان الأمر أعقد من ذلك".

ـ "هذا في غاية السذاجة".

يتوتّر الجوّ، لكنني أريد أن أهدّئ. أميل إلى الأمام وأقبّل أذنها. لا تتحرك، لا تستجيب لي. عيناها مغمضتان.

قلت بهدوء: "إنيس، جئتُ من أجلك إلى هنا".

ـ "لنؤجّل الحديث عن هذا الآن".

ـ "متى سنتحدث عن الأمر؟"

تُصدر صوتَ نَعَس قصير. أضغط على ثدييها بلطف وأضغط على ردفيها. في لندن ـ أثناء عامنا الأول على الأقل ـ كانت ستستدير إليّ، جائعة ومستعدة. الليلة تستخدم النوم.

همستُ: "إنيس".

أصغيتُ إلى نَفَسها وهي تستقر في هدوئها العميق، ملاذها حيث لا أستطيع الذهاب. أُغمض عينيَّ وأمسكها بشدة. إنيس... إنيس..كنتِ سريعة فيما كنتُ بطيئاً. اعتدتِ أن تقولي قبل أن نعيش معاً: متى أستطيع رؤيتك، متى نستطيع اللقاء؟ اعتدتِ أن تقولي: لا تستطيع حتى أن تتخيّل كم أحبّكَ، لا تنس. وأجبتُ: أبداً. قلتُ: أبداً، أبداً كما علّمتني. حين صرنا حبيبين لأول مرة لم تكن لدي نية للوقوع في الحب. أحببتُكِ، كنتُ مسحوراً بكِ وأردتك، ولكنني لم أرد أن أحبّك ـ أسباب مختلفة، أمور مختلفة. معقّدة جداً، مقلقة جداً. أنا بطيء. الأمر يستغرق وقتاً معي. وأنت ـ كان إعلانك سريعاً، أخذني على حين غرّة. أنا أحبّكَ. كان تصريحي، بطريقتي، أكثر بطئاً. استغرق وقتاً ـ في بلفاست وفي دونغال، في روما وبولونا، وأخيراً في لندن.

تـامين بجـانبي. في هـذا الوقـت مـن الليـل، بعـد اليـوم الـذي أمضيناه، أشعر بالأسى وبالشفقة على الـذات، ولكـنّ حقيقـة مـوقفي تافهة؛ تحدثُ كلَّ يوم، مـع الآخـرين. الآن تحـدث لي. إنهـا مؤلمـة وحزينة. قلتُ: أبداً. قلتها بهدوء، عنيتُهـا. الآن أنـتِ ـ الـتي طلبـتِ ـ نسيتِ سؤالك، ولا تنتظرين جواباً، لا تريدين واحداً.

* * *

التقينا في حفلة في منزل ناشر كتبي في لنـدن. كانـت في طريقهـا إلى إيرلندة في مهمة لجريدة الأونيتا بعد أن فشلتْ في إقنـاع الجريـدة بإرسالها إلى الجزائر. ذكر أحدهم اسمي فطلبتْ منه أن يعرّفهـا علـيَّ. كان قد صـدر لي كتـاب في إيطاليـا لكنـها لم تقـرأه بـل قـرأت عنـه. أحضرها ناشري، آلن. أمسكتُ يـدها الـصغيرة بيـدي وذُهلـتُ علـى الفور. ليس من نظراتها بقدر مما هو من حيويتها وانفتاحهـا، وأيـضاً ـ يجب أن أكون صادقاً ـ من اهتمامها الجلـيّ بي. ربمـا لم يـصل الأمـر إلى أكثر من كوني رجلاً قد أُطري لأنّ فتاة شابة جميلة أبـدتْ اهتمامـاً به. أستطيع أن أمـنح الأمـر هـذا البنـاء الـدفاعي: أسـخر مـن نفـسي بكلماتي كي أمنع السخرية، ولكنني عرفتُ في قلبي أن الأمـر ينطـوي على ما هو أكثر من ذلك.

في اليوم التالي التقينا لتناول الغداء في سوهو وأمضينا بعد الظهـر والمساء سوية. لم أضغط عليها، وأعتقـد أن هـذا أزعجهـا قلـيلاً. في الصباح التالي اتصلتْ. كانـت ستـسافر إلى دبلـن في منتـصف النـهار. تحدثنا كثيراً ولم يكن هذا معتاداً بالنسبة لي. شعرتُ بأنني أعرفها منـذ زمن بعيد وأنني أرغبُ بمعرفتها أكثر. ربما بعـد سـاعة أدرك كلانـا أن نبرتنا تغيّرتْ، وأننا وصلنا إلى نوع من العتبة. صار صوتُها أكثر نعومة. زحفت حالات صمت صـغيرة بيننـا. جمّعـتْ شـجاعتها وسـألتني إن كنت أريد الذهاب معها إلى إيرلندة.

وكما افترضتُ، تمخّض الأسبوع عمّا توقّعتهُ بطرق عدة. ولكنّ هذا لم يكن كلّ شيء.

انتهزت الفرصة كي أزور أمي في بلفاست، التي لم أرها منذ عامين. كانت حياتها مليئة بالألم والصبر؛ ولا أعرف إن كان حضوري يقدّم لها الكثير من الراحة ولكنني يجب أن أزورها بالطبع.

التقيت بإنيس قبالة القطار في محطة السكك الحديدية الشمالية الكبيرة. كانت قادمة من دبلن. كنتُ، كالعادة متحفّظاً جداً، وحذراً جداً (ماذا لو غيّرتْ رأيها؟) كي أحييها بالطريقة التي أحبّها. حملتُ حقيبتها وحجزتُ غرفة في روبنسون في شارع دونغول.

استقلّينا باص غرينكاسل حتى المحطة الأخيرة، ثم سرنا إلى وايتهاوس وعلى طول شاطئ البحيرة حيث اعتدتُ أنا وأختي أن ننزّه كلبنا حين كنا طفلين. تحدثتْ كثيراً. ضحكتْ وقالت إن التحدث أحد عيوبها. ولكنها لم تستطع أن تهدأ؛ ولم أردها أن تهدأ.

أخبرتني أنها أحبّت إيرلندة كثيراً. حكتْ لي عن عطلة قضتْها هنا حين كانت طفلة مع والدها. رَوَتْ لي بإثارة المقابلات التي أجْرتْها مع الجيش الجمهوري الإيرلندي في دبلن. ذهبتْ إلى كاريكمور، حيث كان الناس رائعين، وإلى إيدنتبر، حيث انفجرتْ القنبلة المريعة قبل شهر. حبستُ لساني. إنّ الحماس الخاص للمؤمن السياسي لا يؤثّر بي؛ ويثير الغضب السياسي من كل الأشياء فيَّ المرح أو الاحتقار بحسب الظروف. سيكون هناك وقت كاف للتصحيحات، لتصحيح أفكارها عن إيرلندة، وفي غضون ذلك منحتْني إعلاناتها المثالية الفرصة كي أكون أكبر، وساخراً ومستمتعاً.

ضبطتّها وهي تنظر إليّ مرة أو مرتين حين كنا نتحدث. كانت نظرة عرفتها من عشيقات أخريات: لم تعرف إن كانت ستُدلّل أو تُدفع

بعيداً. لم تكن تتعلق بالرغبة أو الافتقار إليها، وإنما بحجتي الداخلية. ما الذي كنتُ أدخل إليه؟ وفي الوقت نفسه أريده... أريده بقوّة... لم أكن أشعر بأنني قوي إلى هذا الحد.

كانت السماء غائمة ومكفهرّة. بدأ المطر بالسقوط فلجأنا إلى جسر سكة الحديد في وايتهاوس بارك. هناك تبادلنا القبل للمرة الأولى. قبّلتني بفمها المفتوح، بلعقات وحركات سريعة من لسانها. ليس هذا أسلوبي في التقبيل ولكنني أُثرتُ على نحو مريع. خفَّ المطر وصار رذاذاً وتحركنا بحثاً عن مكان أكثر خصوصية. وقفنا خلف جدار تحت بعض الأشجار حيث تبادلنا القبل مرة ثانية ورفعتْ كنزتها وقبّلتُ ثدييها وبطنها. قالت إنه بوسعنا ممارسة الحب. فكّت بنطلوني وأمسكتني بأصابعها الصغيرة. ولكنني أوقفت الأمور هنا، مما شوشّها أكثر كما ظننت. أمسكتها فقالت: "ماذا لو وقعتُ في الحب؟" قلتُ لها: "لن تقعي". عقصتْ خدي: "أنا أحبك. أحبك".

شعرتْ بي وأنا أنزلق بعيداً. لم أضطرّ إلى قول أي شيء، فقد شعرتْ بالأمر. كان هناك الدليل. لم أستطع أن أقاوم نفسي؛ كان هذا أسوأ من الإحراج، كان قاسياً. صمتْنا بينما وصلها أن هناك حدوداً لهذا. كان قلبي ضعيفاً، شعرتُ بأنني فارغ وضعيف.

سرنا ببطء عائدَيْن إلى المحطة النهائية. تبادلْنا بضع كلمات. كان الجوُّ بارداً ورطباً في الباص فوضعتُ ذراعي حولها. لا يمكن لمعنويّاتها أن تظلّ خامدة طويلاً. أشارت إلى عبارة: ممنوع البصاق، وقالت إنها لم ترَ هذا أبداً من قبل في باص. اعتقدتُ أنها مضحكة جداً واستمتعتْ بإحراجي. قالت إنني يجب أن أكون فخوراً بوطني. ولكن ما الذي يُوجد هناك كي يفتخر المرء به في هذا المكان المرير القاسي؟ سألْتُها عن إيطاليا، التي لم أزرها أبداً ولكنني قرأتُ عنها الكثير. سألتها عن فلورنسة وقصر فيكيو، وعن البندقية وساحة

القديس مارك. أخبرتْني عن تأسيس الحزب الشيوعي الإيطالي، وعن غرامشي وتوغالياتي، عن الأنصار ونقطة التحول في ساليرنو. تحدّثتْ كما لو أنني أعرف الأشخاص والأحداث. حين عدتُ إلى لندن ذهبتُ إلى مكتبة سينت بانكراس.

في الصباح التالي غادرتُ منزل أمي في سينت جيمس وذهبتُ كي ألتقي بها في الأبيركورن في كاسل لين. لم تكن هناك حين وصلتُ. انتظرتُ، وشعرتُ بالاستياء. بعد أربعين دقيقة دفعتُ الفاتورة وكنتُ في طريق خروجي كي أذهب إلى الفندق حين دخلتْ. شعّت ابتسامة عريضة على وجهها، عانقتْني وتنهّدت.

سألتها بهدوء: "إلى أين تريدين الذهاب؟"

- "لا يهمّني".

طالما هي معي لا يهمّها. كنت مليئاً بالسعادة والثقة. استطعتُ أن أرى التألق في الجوّ الرمادي المغسول للنهار.

استأجرنا سيارة وانطلقنا نحو الغرب. كان المطر يسّاقط رذاذاً والجوء ممتلئاً بالقذارة والبرد. خرجنا من الضباب في غلينشين باس كي نرى السماء زرقاء ورمادية غامقة، تنحني على نحو درامي فوق بحيرة فويل. توقّفنا في ديري. لديّ أقرباء في المدينة، ولكن لأسباب تتعلق بالأسرة لم أذهب لرؤيتهم. بدلاً من ذلك ذهبنا إلى بار في شارع شيبكوي، حيث جلسنا بين الزبائن إلى طاولة خشبية خشنة وتناولنا زبدية من اليخنة، مع أرغفة خبز، وكأساً من الجعّة. كان الجوّ بيننا دافئاً وحميمياً ومرحاً. وفوجئت أنني مسترخ وكثير الكلام.

عبرنا الحدود ووصلنا إلى كاريغارت، دون أي تخطيط مُسبق؛ كنا نذهب حيث يأخذنا الخيال. كنا نصفُّ السيارة قربَ الشطِّ ونتبادل القبل. كان هناك تغيير عنيفٌ لاتجاه ريح كانون الأول/ديسمبر، وقد

شعر رأسي غير المغطّى بضغط هبوبها. كان أنفها الطويل أحمر ورطباً وبارداً. قالت لي إنها تحب التخييم، إنها لو أحضرت خيمتها لكان بوسعنا أن ننصبها هنا. قلت إني كبير جداً على هذا. كانت في السادسة والعشرين.

عثرنا على فندق. قبل أن ندخل أخرجت من جيبها ـ لم تحمل أبداً حقيبة ـ خاتماً ذهبياً رقيقاً. ابتسمتْ وهي تدخله في إصبعها. ولّد استعدادها شكوكاً مفاجئة لديَّ. من هي؟ كم تفعل هذا غالباً؟ شابكتْ ذراعي بمرح ومشينا إلى المكتب. نسيتُ الاسم الذي استخدمناه.

في الغرفة تعرّينا في الحال. جسدها صغير وضئيل؛ لم يكن نحيلاً هكذا آنذاك. جاءت نحوي وطلبتْ مني أن أظل ثابتاً وأمسكتْني بشدة من الخصر أو الردفين وحكّت جسدها عليَّ. بلغت الذروة بسرعة، كما بدا، بسهولة. تأوّهتْ قليلاً. تأسس النموذج بسرعة. بعد التوحّش والتراجع تطلب منّي بهمسة أن أظل ثابتاً. استمر الجنس فيما بعد، على الرغم من أنها حين همست لي في المرة الأولى أنها تبلغ الذروة بلغْتُها معها. ولكن حالما اعتدتُ عليها تركتها تصل إلى الذروة بطريقتها وكنت أبقيه منتصباً في داخلها بعد ذلك.

تناولنا السندويش ثم ذهبنا إلى البار حيث سمعتُ المزيد عمّا تحبه ولا تحبه وتصريحاتها الحيوية: ثمة مصارف كثيرة في ميلانو، ويتحدث الناس بلكنات تعكس غروراً؛ بنايات تورين كبيرة جداً وفاشية، غير أنها ليست سيئة كالجامعة في روما ـ هذه وحشية حقيقية لـ"الفاشية" ـ ونابولي، حيث كان ضوء إشارة المرور الأحمر رأياً فحسب، رائعة، وسكان الجنوب مثل الإيرلنديين: محبّون ومضيافون دوماً.

عدنا إلى الفندق في منتصف الليل. استلقيتُ على ظهري بينما قبّلتني. استدارت وقدّمت نفسها لي. عملتُ بفمي، وهي فوقي. فيما

بعد مارسنا الحب ثانية. تحدثتْ ونمتُ وأنا أفكّر: هل عيناها لا تغمضان أبداً؟ بدوتُ دوماً بأنني الأكثر نعاساً. كلما نظرتُ إليها أثناء الليل، أرى عينيها الكبيرتين والمتألقتين مفتوحتين، وتحدقان بعينيّ.

سألتها: "لماذا لا تنامين؟"

ـ "لأنني أحبك أكثر مما تحبّني".

كان بوسعي أن أقول شيئاً ما، ربما حتى بشكل مقنع. أرحتُ يدي على بطنها المشدودة المسطّحة ودفعتُ أصابعي في ربيع ولفة شعرها. كنت مشوّشاً، وأصارع؛ جاءت الكلمات في الحال، لم أكن متأكداً إن كنتُ صدّقتُها. لكنني لم أستطع أن أنكر ذلك لنفسي: أحببتُ ما سمعته. جاءت حاجة من مكان ما عميق ومجهول، مندفعة كما لو إلى وعْد الضوء. أغمضتُ عينيّ كي أبقى في الظلمة وابتعدتُ عنها.

أمضينا أربعة أيام أخرى معاً.

أخذتُها بالسيارة إلى مطار دبلن. بالكاد تحدثت. جلسنا في الردهة حيث تناولنا القهوة وقرأنا الصحف، إنيس غير مهتمة بأي شيء، ما تزال هادئة. حين افترقنا كانت تبكي. لا أستطيع القول إنّ مشاعري كانت قويّة كمشاعرها. انتهت مغامرتنا، انتهى وقتنا معاً. قبلتُ المسار المحتّم لهذه العلاقة وأبقيتُ جزءاً من نفسي محميّاً كاحتياط للتعامل مع أية اندفاعات مفاجئة للعاطفة. قبّلتُها مودّعاً. مزحتُ مزحة سخيفة حول الدموع في عينيها.

تتأخر ردود الفعل العاطفية لديّ، وفي الوقت الذي عدتُ فيه إلى لندن صرتُ واعياً بأنني جُرِّدتُ من شيء ما كنتُ أمتلكه. شعرتُ بأنني سئم وبليد؛ كان مزاجي روحيّاً. حين اتصلتْ مارغريت اختلقتُ بعض الأعذار.

كتبتْ لي إنيس من روما.

قالت في رسالتها: "أشعر بالضياع. في الإيطالية الكلمة هي Perso ولكنني أعتقد أن لها معاني مختلفة. لا أعرف كيف أقولها بطريقة أخرى. عيناي ضائعتان وصوتي ضائع. أنا ضائعة".

بعد شهر ذهبتْ إلى روما، وبعد هذا بوقت قليل نجحتْ في أن تقنع الصحيفة بإرسالها إلى لندن.

وقعتُ في حبّ إنيس في السرير. وقعتُ في حبّها في الشارع، وفي البارات، وفي رفقة الآخرين، مراقباً التعبيرات على وجهها وهي تتحدث وتجادل، مصغية إلى الأصوات الخفيفة والتنهدات والشهيق والزفير. الأهم من هذا كلّه، على ما أعتقد، هو أنني وقعتُ في الحب لأنها كانت تعدني بطريق خارج نفسي.

أنظر إليها الآن نائمة قربي، جنينيّةً ومحروسةً. أنا غاضبٌ، متوتّر وشكوك، ولكنني لم أتحرّر بعد من حاجتي إليها. خلافاتنا جوهرية، وذهنانا منفصلان، غير أنني أعيش في اختلافاتنا: بلادتي تعتمد على حيويّتها. إنها تُوجدني.

نبدأ بهذه الأشياء السريعة والبطيئة من المكان نفسه. نمرُّ في المراحل نفسها: الإثارة والافتتان والجدل والغضب والمصالحة والحب. ونهاية الحب. نمرُّ في هذه المراحل، بخطو متفاوت، إلى أن يُستنفد كلّ شيء أخيراً، ونصل إلى مكان محدّد: لم أعد أكترث أبداً.

كم أكره هذا. وصلتْ إلى هناك قبلي.

ولكن حالاً سأكون قادراً على رؤية الجانب المسلّي. فهذه الأمور تحدث، تحدث كلّ يوم. وعادة تحدث للآخرين، والآن لي. أنا أضحك.

* * *

الفصل التاسع

أتي فريق صغير لتناول فطور متأخّر إلى طاولة في الجانب الآخر من المسبح. بدا من مظهر أعضائه أنهم طاقم من شركة سابينا، يستمتعون ببعض وقت الفراغ قبل إقلاعهم التالي. غاص رجل وامرأة وسبحا مسافة تحت الماء. خرجا في الطرف البعيد، والماء ينقط منهما ويضحكان.

أحتسي قهوتي وأقلب صفحات ملفّ ستايب: قصاصات من مجلة الإيكونومست وصحيفة اللوموند والوول ستريت جورنال؛ مقتطفات من تقرير الاستخبارات البحرية البريطانية، كُتب عليها: "للاستخدام الرسمي فحسب"؛ تقارير مالية ومصرفية؛ وتقديرات سرية من قبل محلّلين في وزارة الخارجية ودبلوماسيين أميركيين، معظمها تحمل توقيع ستايب. هناك تقديرات للموقف السياسي الحالي وملفات شخصية لأبرز القادة السود: لومومبا وكاسافوبا وغيزنغا، بين آخرين.

وُصف لومومبا بأنه "من المرجح أكثر أن يتولّى القيادة بعد الاستقلال. جدي ويتمتع بالطاقة وانفعاليّ وكاريزمي وفظ، ويمكن أن يكون بلا رحمة. وهو جمهوري ومصلح. بطله هو كوامي نيكروما في غانا. وكمثل نيكروما يؤمن بأن دولة فتية يجب أن تملك قوى مرئية فعّالة. يؤمن بحكومة قوية وحديثة ومحورية للكونغو المستقلة، يرفض خطط الفَدْرلة، ويعارض سلطة زعماء القبائل. يصفّ إلى جانب نيريري في تانغانيكا وسيكو تاوري في غينيا. ولكن كونه رُبّي لأب وأم كاثوليكيين ورعين وله وجهة نظر كاثوليكية فقد كان دائماً داعماً للغرب على الرغم من بعض الميول الاشتراكية بين فينة وأخرى".

وُصِفَ كاسافوبو، قائد حزب أباكو وزعيم قبيلة الباكونغو، بأنه "بليد وباطني ومثير للشبهة، وغير صريح أو جدي. إن المستشار الأقرب هو إي. جي. جي. فان بيلسن، وهو ليبرالي بلجيكي وكاثوليكي قويّ. يحترمه البلجيكيون كثيراً ويعدّونه واحداً من "الموثوقين" لديهم. وهو محافظ ومن الطبقة الوسطى، ولكنه أيضاً عنيد ومتعجرف. يدعم إنشاء مملكة باكونغو القديمة، الأرض التي تغطيها الآن أنغولا الشمالية، باس كونغو وبرازافيل، أكثر مما يدعم استقلال كونغو موحّدة. إنه فدرالي".

إن غيزنغا، قائد حزب التضامن الأفريقي، الذي يسيطر على إقليمي كوانغو وكويلو في ليوبولدفيل، هو "متطرّف جداً". بعد زيارته لأوربا الشرقية في بداية هذا العام عاد شيوعياً مُلقّناً. وهو معاد للغرب، ومؤيد لموسكو. ويُعتقد أن يعتنق وجهات نظر عنصريّة. حزب التضامن الأفريقي صغير ولكنّ لغيزنغا نفوذ خطير ومتنامي على لومومبا".

إن متن الملف على أي حال معنيّ بعلم الاقتصاد. ثمة أرقام حول حجم وقيمة الشحن إلى متادي ومنها، الأرباح الصافية والقائمة من زيت النخيل والنحاس والألماس والماشية، مبالغ الميزانية المستلمة، وإيداعات الخزنة والدين العام.

طلبتُ فنجان قهوة آخر وأشعلتُ سيجارة. نظرتُ إلى الساعة. تأخر ستايب. فتحتُ على قسم بعنوان كاتانغا\شركة يونيون للتعدين. يقدم الإقليم الجنوبي ثلاثة أرباع إنتاج المستعمرة من المعادن وتقريباً معظم أرباحها الخارجية. وصلت الأرباح الضخمة لشركة يونيون للتعدين إلى 4.5 مليون فرنك العام الماضي، بشكل رئيسي من النحاس وكذلك من القصدير والفضة والزنك والمنغنيز والكوبالب والبلوتونيوم والراديوم والتنتالوم والجرمانيوم ومعادن أخرى لم أسمع

بها. سمح لها هذا بأن تعمل تقريباً كدولة داخل الدولة. بنت الشركة علاقة وثيقة مع قائد محلي أسود، هو مويس تشومبي، وحزبه القبلي، كوناكات. وذُكر برنارد هاوثهوفد عدة مرات كشخص يمتلك ثروة كبيرة ونفوذ سياسي وراء الستار.

نظرتُ حولي فرأيتُ امرأة شقراء بساقين طويلتين ونظارة سوداء ورداء منشفة طويل. اقتربت من الطاولة التي إلى جانبي. وضعتْ مفتاح غرفتها وحقيبتها ومنشفتها.

قلت: "مرحباً".

ـ "مرحباً".

ـ "هل تمكثين في الفندق".

ـ "أنا ذاهبة إلى المزرعة غداً. شعرتُ أنني يجب أن أدلل نفسي قليلاً قبل أن أغادر ليو".

ـ "هل ترغبين بالانضمام إليّ؟"

سحبتُ كرسياً لمادلين. حملتْ أشياءها وأتت.

طلبتْ عصير برتقال وقهوة وتوستاً وبيضاً مقلياً. قدّمتُ لها سيجارة وأشْعلتها لها. اتكأت إلى الخلف على كرسيها ووضعتْ ساقيها السمراوين فوق بعضهما بعضاً. كانت ترتدي ثوب سباحة من قطعة واحدة تحت ردائها. دخنت سيجارتها واستنشقتُ خيط دخان. استطعتُ أن أرى عينيها خلف النظارة.

سألتُها: "هل تأتين كثيراً إلى ليوبولدفيل؟"

ـ "كلما استطعت".

ـ "ألا تحبين مزرعتك؟"

ـ "أحب مزرعتي".

نقرتْ بمفتاح الغرفة شاردة الذهن على الطاولة وهي تنظر إلى المسبح وتفحص طاقم سابينا.

سألتُها: "ماذا عن زوجك؟"

ـ "هل أحبُّ زوجي؟"

ـ "أعني ألا يهمه مجيئك إلى هنا، وتركه في المزرعة؟"

ـ "لا أسأله أبداً".

ـ "هل لديك أطفال؟"

ـ "ابنة. ماذا عنك؟"

ـ "لا أولاد".

ـ "ولكنك تريد أولاداً"، قالت في نصف سؤال، نصف تخمين.

كان يجب أن أعرف حين سألتها أنها يمكن أن تحوّل السؤال إليّ. شعرت بعدم ارتياحي وكونها نوع المرأة التي هي، فإنها شدّدتْ على فائدتها.

ـ "ألم ترد الأولاد؟"

قلتُ باقتضاب: "إنها ليست مسألة مهمة".

ـ "بالنسبة لشخص في سنك يجب أن تكون مهمة. ماذا عن إنيس؟"

كرهتُ هذه المرأة الجريئة والعبثية والسخيفة والجوفاء كثيراً. نظرتُ إلى ساعتي وتمنّيتُ أن يسرع ستايب. أحضر النادل الطلب.

قالت: "كلهم مهتمون بالأمر".

ـ "آسف؟"

نظرت إلى طاقم سابينا.

ـ "الطيارون والمضيفات ـ كلهم يضاجعون بعضهم بعضاً. هذا جزء من العمل كما أفترض".

أطفأت سيجارتها. لا أقول شيئاً.

تابعت: "لستُ متزمّتة حيال هذه الأمور. إن الأمر واضح فحسب. أفضّل قليلاً من الحذر".

ـ "أفترض هذا".

ـ "هل أنت متزمّت حيال هذه الأمور؟"

رفعتْ فنجان القهوة إلى شفتيها.

ـ "كلا".

أصدرتْ صوت تقدير خفيف. يمكن أن تكون القهوة ولكنني متأكد من أنه أمر آخر، وأنا متأكد من أنها تريدني أن أفهمه كشيء آخر.

قالت: "لا أظن هذا. لديك تلك النظرة فيك".

ـ "أية نظرة؟".

هزّت كتفيها. "تعرفها حين تراها".

ارتعش فنجانها في صحنه حين وضعته.

قالت وانتظرت: "يقول الناس إنني أملكها أيضاً".

رفعتْ سكينها وشوكتها حين لم أجب. ارتجفتْ يدها بشكل ضئيل، لم تكن هادئة تماماً حيال هذا كما رغبتْ، ومما أدهشني أنني وجدتُ عصبيتها مؤثرة.

قلتُ كي أغير الموضوع: "كنتُ أتحدث إلى شخص ما قال لي إن الكونغو ستصبح مستقلة في غضون ستة أشهر".

أطلقتْ صوتَ مرحٍ قسريّ.

ـ "ألا تظنين هذا ممكناً؟"

ـ "هذا عبثي. حتى السكان الأصليون لا يعتقدون أنهم سيحصلون على الاستقلال بعد ستة أشهر. إن معظمهم لا يريدون ذلك. إنهم يعيشون حياة جيدة تحت سيطرتنا، أفضل من أي مكان آخر في القارة. هل سمعتَ عن السكك الحديدية؟"

ـ "كلا".

ـ "إن سائقينا ورجالنا ووقّادينا محليون ولكن حين يصل القطار الرئيسي إلى حدود روديسيا الشمالية يجب أن يُستبدل السائق الأسود بأبيض. وينطبق هذا على الوقادين والخدم في عربات المطعم. يستطيع السود عندنا أن يذهبوا إلى المسرح والسينما إذا أرادوا، ويستطيعون الجلوس في مقاه ومطاعم أوربية".

ـ "يستطيعون الدخول إلى الحي الأوربي بعد حلول الظلام".

ـ "وهناك قوانين ضد الأوربيين الذين يكونون في المدينة بعد حلول الليل أيضاً" ـ أجابت بحدّة ـ "فالأمر يعمل بطريقتين".

ـ "ولكن إن كان صحيحاً أنه في ستة أشهر...".

ـ "ليس صحيحاً"، قالت بحدّة، ورمتْ شوكتها وسكينها في الصحن.

علقتْ قطعة صغيرة من البيض المقلي تماماً تحت شفتها السفلى السمينة. كان عليّ أن أوقف نفسي من أن أنحني عبر الطاولة كي ألعقها.

قالت: "إن السود أطفال. ما فائدة الانتخابات للأطفال؟ لا يريدون الديمقراطية. لا يفهمونها. يريدون أباً، زعيماً".

ـ "زعيماً أبيض؟"

ـ "كيف يحصل على الحكمة من يمسك بالمحراث، وذلك الذي يتباهى بالمنخس؛ ذلك الذي يقود الثيران؛ والمنشغل في أعمالها؛ والذي حديثه عن الثيران؟"

ـ "درستُ في مدارس كاثوليكية. لم نقرأ الكتاب المقدس كثيراً".

قالت: "أنا ابنة قسّ لوثريّ. إن الزمن لا يهم هؤلاء الناس. في لنغالا، تعني كلمة لوبي أمس وغداً. كيف يمكن أن تدير حكومة بدون مفهوم للزمن؟ كيف تستطيع أن تخطط للمستقبل؟"

ـ "هل من المحتمل أنك تبالغين؟"

دفعتْ صحنها بعيداً ـ بالكاد لُمستْ وجبتها ـ ووقفتْ أمامي. افترضتُ أنها ستسير بعيداً كي تتأمل وحدها آراءها المسبقة المستقرة. بدلاً من ذلك نزعتْ نظارتها السوداء ووضعتْها على الطاولة. ثم نزعتْ رداءها. ثمة كدمات صغيرة على ذراعيها وفخذيها. جعلتْني هذه الندوب أفكر بالجنس.

إنها امرأة قوية البنيان وناضجة، ظهرها عريض وثدياها ممتلئان. ثمة قليل من الوزن الزائد حول بطنها. لديها ذلك النتوء الصغير الذي تحصل عليه النساء، ولم تعد بشرة صدرها وحنجرتها وذراعيها العلويين مشدودة. قلة من النساء اللواتي عرفتهنّ سيملكن الثقة كي يقفن أمام غريب افتراضي كهذا، حتى اللواتي أجسادهنّ أفتى، وأكثر مرونة. تلتقط نظرتي. لا أستطيع أن أقرر إن كانت مثل مغنية رئيسية في الأوبرا مجنونة تعتقد أنها ما تزال شابة ولا تُقاوم، أو إن كانت تقول هكذا تبدو النساء اللواتي في سني أو أبدو أفضل من معظمهنّ، اقبلْ هذا أو ارفضْهُ".

ـ "امسكْ هذا".

أسقطتْ الرداء بين يديّ، أخذت منشفتها، سارتْ إلى حافة المسبح وغاصتْ. زحفت مسافة، متنفسة بشكل صحيح، سبحت بحركات متقنة دون جهد في الماء. وصلت إلى النهاية، غاصت بنعومة تحت السطح واتخذت وضعية الفراشة. راقبتُها معجباً بالإيقاع الثابت والواثق لدفعها والقوة في ظهرها وكتفيها.

عدتُ إلى الملف وفكرتُ بما قرأته. تظهر الأرقام درجة نجاح البلجيكيين ولكن على الرغم من أن الشركات الميسّرة تحصّل بلايين الفرنكات من الأرباح كل عام، فإن المستعمرة على شفا الإفلاس. فحصتُ الأرقام ثانية: فبحسب محلل من وزارة الخارجية لم يُذكر اسمه يبلغ العجز الحالي للكونغو 40 مليون دولار تقريباً. لا أمتلك فكرة عما يمثله رقم من هذا النمط بمصطلحات نسبية، ولكنه يبدو جوهرياً بأي مقياس.

ـ "مسيو جيليسباي؟"

أحني رجل أسود رأسه وناولني ورقة مطوية، ثم خطا باحترام إلى الخلف.

الورقة من ستايب: "منزل لومومبا، مقابل ملعب الغولف. أسرعْ قدر الإمكان".

نظرتُ ثانية إلى الأسود.حك يديه بتواضع ومنحني ابتسامة حائرة.

قال بالإنكليزية: "إن السيد ستايب طلب مني أن أقلّك".

عرفته. إنه مضيفنا الذي اقتبس إرازموس ليلة أمس.

ـ "أوغوست؟"

ـ "نعم، يا سيدي".

كان يرتدي البنطلون الكستنائي نفسه ولكنه غيّر قميصه. لونه درجة من الأرجواني لا يمكن أن يُسامح عليها.

ـ "ما الأمر؟"

ـ "يطلب منك السيد ستايب المجيء، يا سيدي. إلى منزل السيد لومومبا".

أخذتُ علبة سجائري والملف ونهضتُ على قدميَّ. كانت مادلين تتسلق خارجةً من المسبح. نفضتْ الماء عن ذراعيها وساقيها وأتت، لافّة شعرها بالمنشفة.

ـ "يجب أن أذهب"، قلت لها وأنا أقدم لها الرداء.

منحتني هزة جافة وركّزتْ نظرها على أوغوست. استجاب لتحديقتها الحادة بانحناء ذليل وانسحاب متثاقل عدة خطوات إلى الوراء.

"سأحضر السيارة، يا عمّ"، قال أوغوست، وقد مشى مسبقاً عبر الفناء نحو اللوبي والمخرج.

أسأل مادلين: "ما الذي دعاني به؟ عم؟"

ـ "بالنسبة لهؤلاء القوم العم هو الواهب" ـ تقول مرتدية رداءها ـ "إن الكونغو معجزة. كانت غابة. كانت مستنقعاً وأدغالاً قبل أن نأتي. الآن يوجد بلدات ومزارع ويمتلك السود وظائف جيدة ومنازلاً، ولديهم رعاية صحية وتعليم. نحن الذين قدمنا لهم هذا وهم يعرفون ذلك. تسمعهم يقولون طول الوقت: البلجيكيون أعمامنا. في المرة التالية التي ترى فيها صديقك الذي نسج لك هذا الخيال عن الاستقلال أخبره أنه لا يعرف عما يتحدث".

ـ "سوف أفعل هذا".

جلستْ في مقعدها.

- "إذا حصل القردة على استقلالهم المحبوب فإن هذا سيكون كارثة".

قلت: "آسف أننا لم نستطع أن نتحدث أكثر عن هذا".

- "يبدو أنّ اللامنتمين لا يملكون الوقت للإصغاء إلى القصة من وجهة نظرنا".

كان خيالها مولعاً بالقتال بشكل لا يُعَالج. لم نحب بعضنا بعضاً، لا شيء مشتركاً بيننا سوى الفرق بين الرجل والمرأة. نحن نغازل بعضنا بعضاً.

قلتُ: "ربما في وقت آخر".

أجابتْ في تحد ضجر: "إذا استطعتَ العثور على الوقت".

* * *

الفصل الحادي عشر

خرجتُ من الريجينا إلى الشمس الباهرة وظلّلتُ عينيّ. تدفّق العرق على ظهري. علا صوت بوق فنظرتُ عبر الشارع حيث كان أوغوست يلوّح بيده متضايقاً من داخل سيارة ستايب الشيفروليت. خلفه، كان هناك سائق سيارة غاضب أطلق بوقه مرة ثانية. ناور أوغست مرتبكاً كي يفسح مجالاً كافياً لعبور السيارة التي خلفه. غير أن السائق بدلاً من أن يستغل الفرصة نزل من السيارة وخطا إلى أوغوست وبدأ يصيح.

قلت: "هل أستطيع أن أساعدك؟"

كان شاباً، بالكاد في العشرين من عمره؛ الوجه الفلمنكي واضح وصبيانيّ وبارد.

سألني: "هل هذا سائقك؟"

"نعم".

عينا أوغوست نادمتان ومسبلتان.

- "إذاً علِّم قردك القذر ألا يسدّ طريق الناس".

استدار الشاب بسرعة وعاد إلى سيارته. زأر حين صعدتُ إلى جانب أغوست، ضاغطاً على بوقه، وصاح شيئاً غير مفهوم قبل أن يصدر صريراً وهو ينعطف. رفع أوغوست عينيه ونظر إليّ بحرص قبل أن يصدر ضحكة خفيفة مترددة. أعرف ما يكفي كي أفهم أنه يوجد اختبار قليل للحدود هنا: هل يستطيع أن يجد مهرباً بالضحك من غضب الأوروبي أمام أوروبي آخر؟

قال بصوت عذب: "أنا آسف يا سيدي".

ـ "آسف على ماذا؟"

ـ "من جعل العم الشاب غاضباً".

إنه يدفع الاختبار. أحدق مباشرة أمامي.

ـ "لا تدعوني سيداً، لا تدعوني عماً. اسمي هو جيمس".

ـ "أنا آسف، يا جيمس".

إن روحه غير محترمة للآخرين كما يوحي العرض الذي قدّمه. إنه كمثل خادم يتظاهر بالإذلال أمام سيده بينما يشرب البراندي الخاص به وينام مع بناته. قاد السيارة منطلقاً وابتعد.

في جادة ألبرت الأول كانت معظم الحوانيت والمطاعم مغلقة، والشوارع خالية. لم تعد الأمور إلى وضعها الطبيعي بعد. وعند نقطة تفتيش عسكرية عند حدود المدينة الحديثة هناك الحطام المتشابك لسيارات محروقة.

سألته: "أين تعلّمت أن تتحدث الإنكليزية؟"

أجاب: "في البداية تعلّمت الإنكليزية تجريبيّاً".

ـ "تجريبياً؟"

ـ "من مقابلة رجال أعمال إنكليز هنا في ليو. ثم ذهبت إلى بريستول".

ـ "ذهبتَ إلى إنكلترا؟"

"نعم. أُرسلت كي أدرس في لوفان، في بلجيكا. بعد أربع سنوات سافرتُ كي أزور أخي الذي يعيش في بريستول. إنه بحّار".

تم إيصال هذه المعلومات بنبرة عَرَضيّة، ولكن عندئذ تغيّر صوته؛ جاء إليه شيء بطيء ومحترم.

"قال السيد ستايب إنك كاتب".

ـ "نعم".

بدا متأثراً بشكل كبير ونظر إليّ بحرص.

قال بجدية: "أحب الكتاب كثيراً. أفلاطون، سقراط، توم بين وجون ستيوارت ميل".

ـ "أنا أؤلِّفُ أنواعاً مختلفة من الكتب".

ـ "نعم؟"

نظر إليّ كأنه يتوقع شيئاً، كما لو أنه ينتظر مني أن أوضح الفرق بين عمل أفلاطون وعملي.

سألتهُ، متحمّساً لتغيير الموضوع: "هل تعملُ مع لومومبا؟ هل أنتَ عضوٌ في حزبه؟"

ـ "كلا، يا جيمس. لستُ عضواً في الحركة الوطنية الكونغولية".

ـ "ولكن من الواضح أنك تعرف لومومبا".

ـ "حين جاء باتريس إلى ليوبولدفيل اشتغل في براكونغو، مصنع الجعة الذي كنت أعمل فيه. إن السيد دو شوت وأصدقاؤه في الدائرة الليبرالية عثروا له على هذه الوظيفة. يصنع براكونغو بيرة بولار. هل رأيت الإعلانات؟"

ـ "لا أعتقد".

قال مطلقاً ضحكة تشي بالسخرية: "إن بولار بيرة جيدة، ولكن بريموس أفضل. إنهما تتنافسان، ولكن حتى حين كنتُ أعمل لبولار اعتدت أن أشرب بريموس. كان باتريس مدير مبيعات لبيرة بولار. كان رجل مبيعات جيداً جداً لأنه يحب الحديث مع الناس، على الرغم

من أنه لم يكن يتحدث لغة اللينغالا حين جاء في البداية من ستانليفيل. إنّ باتريس من قبيلة باتيتيلا من مقاطعة سانكورو في كاساي. هنا، في ليوبولدفيل، الناس هم باكونغو".

ـ "هل أنت باكونغو؟"

ـ "هذا صحيح يا جيمس، ولكنني تطورت".

ـ "تطورت؟ ماذا تعني بهذا؟"

قال بجدية: "تحررت من القبليّة. أنا أفريقي، ولكنني متعلم وتفكيري غربي. أريد أن أدرس في أميركا وأحب أفلاطون وسقراط كثيراً. أنا أيضاً عضو في جمعية الطبقات الوسطى الأفريقية".

مد يدّه في جيبه وأخرج بطاقة مرّرها إليَّ، شاعراً بالكبرياء.

ـ "ما هذه؟"

ـ "بطاقة تسجيلي".

تحتوي البطاقة البرتقالية اللون على صورة جواز سفر لأوغوست في سترة سوداء، بقميص وربطة عنق. ومن أجل المناسبة أجبر تلميذ أفلاطون ملامحه على أن تعبّر عن ذهنية رفيعة تؤمن بالمُثُل.

قال: "بهذه البطاقة أستطيع أن أجلس في مطاعم أوروبية مثل الريجينا، وإذا كان بوسعي الدفع، أستطيع أن أرسل أولادي إلى مدرسة أوربية".

ـ "كم ولداً لديك؟"

أجاب بتلميح من التجنب: "لم أتزوّج بعد يا جيمس".

ـ "لا يعني هذا أنك لم تنجب أولاداً".

ضحك ضحكة خجولة.

ـ "كم؟"

ضحك ثانية. تظاهرتُ بأنني سأعيد له بطاقته ولكنه حين حاول استعادتها سحبتُها بعيداً وحملتها خارج النافذة في تهديد لعوب".

ـ "قل لي كم".

اجتاح الذعر وجهه. حاول أن يركّز على القيادة ولكن عينيه التصقتا بالبطاقة. انحرفتْ السيارة.

ـ "إليك بها".

أعدتُ له البطاقة. أخذها بسرعة.

ـ "كنتُ أمزح معك فحسب يا أوغوست".

ـ "نعم، جيمس، أنا آسف".

تابعنا طريقنا.

أعلن بعد وهلة كي ينهي الصمت: "إن معظم الناس في باكونغو لا يدعمون باتريس. حين جاء في البداية إلى ليوبولدفيل قالوا إنه كان مجرد أفريقي متعلّم، أقل تطوراً منهم. يدعم شعب الباكونغو الملك كاسا، زعيم قبيلة الباكونغو".

أقول محاولاً تذكر الأسماء التي كنت أقرأها في الملف: "الملك كاسا؟ هل هذا هو كاسافوبو؟ قائد الأكابو؟"

ـ "صحيح يا جيمس. السيد كاسافوبو. أكابو حزب قبليّ ويريد أن يفصل دولة الكونغو السفلى، الأمر نفسه الذي يريده تشومبي في كاتانغا".

"مويس تشومبي؟"

ـ "نعم، يا جيمس. تشومبي هو دمية شركة التعدين يونيون في كاتانغا، أغنى منطقة في الكونغو، يريد أن يحكمها بنفسه. إن حزبه هو كوناكات وقبيلته هي قبيلة البالوندا، أصدقاء شعب البالوبا".

ـ "أنا مشوّش. يبدو أن هناك الكثير من القبائل".

أضاف بخبث: "صحيح. الكثير من القبائل، كلها تبدأ بحرف باء".

ـ "نعم"، قلت.

"قال باتريس يمكن أن يكون لديك قبائل بدون قبليّة. إن الكونغو بلد واحد والشعب شعب واحد".

ـ "هل تعتقد أن باتريس سيكون قائداً جيداً لكونغو مستقلة؟"

ـ "نعم أعتقد أنه سيكون قائداً جيداً بمساعدة الأصدقاء الأميركيين".

ـ أصدقاؤنا الأميركيون؟ إن تأثير ستايب يجري عميقاً.

أمامنا، في دائرة مرور، رجل درك يرتدي قفازاً أبيض يحرف السيارات عن الجادة. وراءه، عدة شاحنات عسكرية تسد الطريق. اجتمع حشد. لفّ أوغوست حول الدائرة إلى جادة كريسبل.

سألته حين اختار مكاناً كي يصف السيارة: "كيف تعرف ستايب؟"

ـ "أنا سائق السيد ستايب. كنتُ معه منذ أن تركت عملي في براكونغو".

ـ "أي نوع من العمل يقوم به ستايب في القنصلية؟"سألتُ ببراءة.

ـ كنت أفكر كثيراً بطبيعة عمل ستايب.

ـ "إنه في المكتب السياسي".

ـ "المكتب السياسي؟"

ـ "نعم"، أجاب وهو يصفّ السيارة.

لم يبدو راغباً بمواصلة الحديث. لا أستطيع القول إن كان هذا هو الحد الكامل لمعرفة أوغوست أو إن كان مخلصاً أو كتوماً.

ـ "هل تعرف ما يقوم به بالضبط في المكتب السياسي؟"

ـ "إن السيد ستايب يتحدث مع الناس. إنه يحب التحدث".

ـ "مثل باتريس".

قال أوغوست: "نعم. إن السيد ستايب وباتريس صديقان حميمان. صديقان ممتازان".

سألت: "هل ستايب جيد للعمل معه؟"

قال: "نعم. إنه رجل جيد جداً. السيد ستايب يفهم".

ـ "ماذا يفهم؟"

ـ "كل شيء. يفهم السيد ستايب كلّ شيء ويفهم الجميع".

إن إخلاصه له واضح.

حين أقفل السيارة قال: "أنا آسف، يا جيمس".

أمسك بطاقته السخيفة شارحاً.

ـ "نحن 14 مليوناً في الكونغو. يمتلك بطاقة التسجيل مائة وعشرون".

قلتُ له: "لم تكن لدي أية فكرة".

ابتسم العضو الفخري لجمعية الطبقات الوسطى الأفريقية ابتسامة عريضة لي.

قال: "أرغب يوماً ما بأن أصبح كاتباً مثلك يا جيمس".

ـ "ظننتُ أنك ستصبح محامياً".

ـ "كلا، الآن أريد أن أصبح كاتباً".

ـ "لماذا؟ إنّ هذه المهنة لا تدرُّ نقوداً".

كان هذا أحد الردود المفاجئة التي تقوم بها دون تفكير مع شخص لا يهمك في أحسن الأحوال وفي أسوأها تحميه. منحني نظرة مجروحة.

قال: "المال غير مهم. إن السيد ستايب يدفع لي جيداً".

سألته بتهذيب وشاعراً بالإهانة: "لماذا تريد أن تصبح كاتباً؟"

- "كي أستطيع أن أنظر إلى الأمور بهدوء وأبيّن أنني حكيم".

قلت: "نعم، نعم. هذا مهم جداً بالطبع".

- "ألديك مكتب يا جيمس؟"

- "نعم".

- "وست سكرتيرات؟"

- "لا يوجد سكرتيرات".

يبدو للحظة محبطاً.

قال وهو يبتسم بتألق: "ليس مهماً. سأحضر لك ثلاث سكرتيرات من مكتبي القانوني".

- "لماذا أشعر أنك لست جدياً؟"

أجاب وهو ما يزال يبتسم: "أنا جدي دائماً".

- "ليس معي".

- "أنا جدي معك يا جيمس مثلما أنت جديٌّ معي".

ظلّتْ الابتسامة ثابتة على وجهه. قلتُ إنني سأظلّ مستاء من كلامه إلى أن أتبين حقيقة ما يقوله. سرنا.

في أعلى الجادة كان هناك شيء يلفت الانتباه.

* * *

الفصل الثاني عشر

كان هناك تجمّعان. كان البيض، أقل عدداً، ولكنهم أكثر ثقة. تجمّعوا في عقد صغيرة على حافة العشب في الجانب الشمالي من الطريق. بدوا في مزاج رائق، كمثل مرتادي المسرح الذين على وشك معاودة الجلوس من أجل الفصل الثاني من المسرحية التي تمتّعوا بها حتى الآن. بالمقابل، كان هناك حيادية منذرة بسوء في السود. كانوا محتشدين أمام ملعب الغولف في جهة المدينة الحديثة من الجادة مقابل منزل لومومبا، الذي كان يفصلهم عنه صفٌّ من الجنود الذين يحملون بنادقَ ملقّمة بحراب مثبتة إليها. لاعبا غولف يطوفان بلامبالاة في أعلى الممر السالك، يجران علبتيْ عدّتهما السوداوين.

كانت قامة إنيس المنشغلة تُكيّف نفسها بين الحشود. رأيتُ سميل أيضاً، وغرانت، الصحفي البريطاني، وعدداً من الصحفيين. لم تكن إنيس تحمل دفتر الملاحظات مثلهم. فهي لا تفعل هذا أبداً. إن رفضها لحمله ـ تصرُّ على أنه يضع حواجز بينها وبين شخصيات القصة ـ هو من بين المكوّنات العديدة التي أظن أنّه عائق في مهنتها. هناك أيضاً افتقارها المزمن لدقة المواعيد، وإحساسها المتقلقل بالاتجاهات، ونسيانها، هذا إذا لم نذكر تحزّبها غير المرتبك. غير أنني أعرف جيّداً أن إنيس صحفيّة غير عاديّة. فهي تكره القصور الحكومية والمكاتب الوزارية والفنادق والبارات والمطاعم التي يؤمها الصحفيون ومصادرهم. ولا تهتمُّ أبداً بمقابلة الناس الكبار: السفراء والوزراء والجنرالات، ونادراً ما تزعج نفسها بالذهاب إلى المؤتمرات الصحفية ("إن كل ما يقولونه دائماً هو أكاذيب"). ما تشتهيه ليس صلات مع أصحاب المناصب الرفيعة واحترام زملائها

("الذين يهتمون بوظائفهم أكثر مما يهتمون بما يجري حولهم")، وإنما صداقة الناس العاديين؛ سوف تسير حول كشك بائع في السوق لساعات، مصغية إلى حديث الأشياء اليومية؛ ستأكل وتشرب البيرة في منازل العمال اليوميين وكانسي الشوارع؛ ستنام على الأرض حين تتأخر كثيراً في العودة إلى المنزل. تسكب حبها على أولئك الناس وقضاياهم، النهر الذي لن يُسدّ مجراه.

وصلتُ إليها.

قلتُ: "مرحباً".

ـ "آه، مرحباً"، قالت بسرعة وبدون إشارة توحي بأنها مسرورة لرؤيتي.

ـ "كنتِ قد ذهبتِ حين استيقظتُ".

ـ "كنتَ بحاجة إلى النوم".

كان عدم إيقاظي عداء محسوباً، وضايقتْني محاولتها الضعيفة كي تمرره وكأنه لمصلحتي.

ـ "كنتُ أُفضِّل أن أتحدثَ معكِ".

ـ "عن ماذا؟"

قلت: "حول ما سنفعلهُ".

استدارت بعيداً. لم أستطع أن أتبيّن إن كانت غاضبة أو منزعجة أو ـ بشكل يجرح أكثر ـ ضجرة فحسب. شعرتُ بطعنة الكبرياء المريرة في صدري. هل هذه هي في الحقيقة؟ هل نحن نتجه إلى نهاية؟

أطلقتُ تنهيدة ثقيلة: "إنيس سيكون علينا أن نحل هذه المسألة".

قالت: "لا أظنّ أن هذا هو الوقت أو المكان المناسبين لهذا. في حالة أنك لم تلاحظ أن هناك شيئاً مهماً يحدث. إنهم يعتقلون باتريس".

- "متى نستطيع أن نتحدث إذا؟"

هزّت كتفيها.

نظرتُ إليها بكل خداع قصّتنا وراء عينيّ، ولكنها لم تستسلم، أو تلين. لماذا هي هكذا؟ كانت تحبّني.

قالت: "عليّ أن أتحدث مع الناس".

قلتُ لها شاداً سائق ستايب إلى الأمام، والذي سيلبّي معيارها عن مُحَاور أصيل: "لماذا لا تجرين مقابلة مع أوغوست؟ إنه من أبناء الشعب، وصديق للومومبا فضلاً عن ذلك. أليس كذلك، يا أوغوست؟"

- "صحيح، يا جيمس".

خفض عينيه كي يتبنى السلوك المحترم المفرط الذي لاحظتُ أنه يحب أن يُظهره في اللقاءات الأولى مع البيض.

شرحتُ: "إنيس صحفية. إنها متعاطفة مع لومومبا".

قالت ببعض القسوة: "إنه أكثر من تعاطف بقليل".

- "بالطبع".

سألتْ أوغوست: "هل كنت في المظاهرة أمس؟"

بدا خجولاً أمامها. إنه محترم، كلماته متواضعة بسخاء. روى لها عن إطلاق النار.

شاهدني ستايب وأومأ لي أن أراه عند نطاق الجند. تركتُ إنيس مع أوغوست وشققتُ طريقي عابراً جندياً يحرس شاحنة. خرج ستايب كي يحيّيني.

قال: "آسف لأنني لم أستطع الذهاب إلى الريجينا يا جيمس ولكن كما بوسعك أن ترى إن الأمور خرجت عن السيطرة قليلاً. بدأ البلجيكيون باعتقال كلّ من له علاقة بحركة الاستقلال يستطيعون العثور عليه. اعتقلوا حتى كاسافوبو هذا الصباح. قبل بضعة أيام كانوا يحبون تلميعه كأفريقي جيد. إنه أفريقي سيء الآن. كلهم كذلك. لم أعتقد أن باتريس سيجازف ويعود إلى منزله".

- "كان يعرف أنهم يبحثون عنه، أليس كذلك؟"

- "أكيد، ولكنّ باتريس رجل عائلة. لا يستطيع أن يكون بدون زوجته وأطفاله".

- "ما الذي سيحدث الآن؟"

- "إن كاسافوبو في مركز الشرطة في جادة ليبرز، وهكذا أخمّن أنهم سيأخذونه إلى هناك ثم إلى السجن المركزي".

- "لماذا يستغرق الأمر طويلا؟"

- "إن البلجيكيين قلقون من الحشد".

- لا بد أن هناك أربعمائة أو خمسمائة أسود، والمزيد يتدفقون من المدينة كل لحظة. كان عدداً كبيراً لا تستطيع قوة أقلّ من سريّة من الجنود أن تحتويه.

قال ستايب: "إن الحكومة تريد أن تبقي درجات الحرارة منخفضة اليوم. قال لومومبا إنه سيجعلهم يتفرقون بهدوء إذا سمحوا له بإلقاء كلمة. لم ترق الفكرة للبلجيكيين، ولكنني اقترحتُ عليهم أن يجربوها".

سألته بخبث: "لماذا يصغون إليك؟"

من المحتمل أنه يعمل في المكتب السياسي، ولكن من الواضح أن ستايب جاسوس، متآمر من نوع ما. لكن ما هي طبيعة سلطته؟

أجاب ستايب مبتسماً: "لا يحبون الإصغاء، ولكن موقفهم لا يسمح لهم بالاعتراض. ألم تقرأ الملف؟ كما قلنا، إن البلجيكيين في نيويورك يبحثون عن ديون كي يحاولوا منع الانهيار. إذا كانوا يريدون الدولارات اليانكية فعليهم أن يصغوا إلى النصيحة اليانكية".

ـ "ما لا أستطيع فهمه هو كيف تعاني هذه المستعمرة من مشكلات كهذه فيما تملك هذه الموارد كلها".

قال ستايب: "إن ماركسيّة مثل إنيس ستفهم الطريقة التي طوّر بها البلجيكيون الكونغو. إنها السياسة الاقتصادية الجديدة السوفييتية مرة ثانية: التصنيع السريع للاقتصاد الريفي البدائي. حققوا بعض النجاح، لا تستطيع أن تنكر عليهم هذا. ولكن الضرائب مرتفعة، ومتوسط مستوى الدخل القومي منخفض، والتوسّع يتلكأ خلف النمو السكاني، ولا يملك البلجيكيون رأس المال للمزيد من الاستثمار، والموقف يزداد سوءاً فيما البنوك والمستثمرون ينقلون أموالهم إلى الخارج بسبب غياب اليقين السياسي".

ـ "كم هو سيء هذا في مكان صغير جداً".

ـ "في مكان صغير سيء جداً، سيء في الحقيقة. إن بنك الكونغو المركزي لا يستطيع أن يلبي التزاماته وهكذا وافق البلجيكيون على ضمان عملياته ولكن شرط أن يذهب احتياطي المستعمرة من الذهب والدولارات إلى خزائن البنك الوطني في بروكسل. ولكن هذه القروض... هذا جنون. أنت لا تواجه حالات العجز الحالية والسابقة بجباية قروض طويلة الأمد: إن الأمر مثل رهن منزلك من أجل دفع فواتير البقالية الخاصة بالشهر الماضي".

أقول: "ليس جنونياً إلى هذا الحد. حين يسلمون الدولة من المفترض أن يسلموا الديون أيضاً".

ـ "هذا صحيح تماماً. إن باتريس لا يعرف هذا حتى الآن ولكنه في اليوم الذي يدخل فيه إلى مكتب رئيس الوزراء كي يلقي نظرة على السجلات سيرى أن الدولة ليست مفلسة فحسب، بل أنها مدينة لبروكسل ببليوني فرنك أيضا. هذه فاتورة عالية جداً للدفع، أليس كذلك؟ من الذي يقول إن البلجيكيين لا يملكون حسّ الفكاهة؟"

ـ "لا أفترض أنه سيحصل على الأرباح".

أطلق ستايب ضحكة ساخرة قصيرة.

بدأ: "افترض أنك برنارد هاوثهوفد، أو أي صاحب أسهم كبير في شركة يونيون للتعدين أو سوسايتي جنرال ولك حصة في استثمار الاثني عشر بليون فرنك في كاتانغا فقط. إن صناعة النحاس لديك هي الثانية الأكبر في أفريقيا. في العام الماضي أنتجت مناجمك ثلاثمائة ألف طن من النحاس بسعر 100 دولار للطن الواحد الذي تبيعه في السوق العالمي بسعر 250 دولاراً. هل ستسمح لسياسي محلي صعدتْ أهميته فجأة بأن يجردك من تجارتك؟ هل أنت غبي؟"

صدرتْ عن الحشد الأسود صيحات مفاجئة: باتريس، باتريس! نظرتهم مثبتة على الشرفة حيث كان يقف لومومبا وإلى جانبه ضابط بلجيكي، يداه تستندان إلى الدرابزين الاسمنتي.

سألتُ ستايب: "من الضابط؟"

ـ "إنه الفريق إيميل جانسينز. أخبرتك عنه. إنه قائد القوة العامة".

كان جانسينز يمتلك صدراً كالبرميل وعدوانياً مثل جندي في منتصف العمر يفتخر بصلابته المستمرة وينظر باحتقار إلى الدوائر المتسعة لأنداده المدنيين المدللين؛ بدا من نوع الرجال الذين يستحمون بالماء البارد ويرمون الكرات الثقيلة على الشاطئ.

قال ستايب: "إن جانسينز فظّ، إنه نظاميّ حقيقي".

صدرتْ عن البيض بضع صيحات سخرية وصفرات معزولة.

سألته: "ما رأيك بلومومبا كسياسي؟"

أجاب ستايب دون تردد: "إنه في الحقيقة متميّز كسياسي وكرجل. كان رجلاً حصل على القليل من التعليم الرسمي، ولم يكن أكثر من قرد قذر، وكان كل شيء مكدّساً ضده. ولكنّه بإرادة قوية صرفة، ورافضاً للهزيمة، حوّل نفسه إلى شخصية تتمتع بسلطة أصيلة. يمتلك كاريزما، وموهبة خطابية، وسلطة أخلاقية حقيقية. إن عيبه الوحيد هو أنه يمكن أن يكون متهوراً أحياناً، ولكنه ما يزال في الخامسة والثلاثين من عمره. وبمساعدة صحيحة، ومشورة صحيحة، يمكن أن يُصاغ باتريس كي يكون أحد قادة أفريقيا العظام".

ـ "هذا ما تقوله إنيس".

ـ "إذاً نتفق أنا وهي على شيء ما" ـ قال بتألق، ثم بشكل أكثر جدية ـ "كيف هي الأمور معكما أنتما الاثنان هذا الصباح؟ أفضل؟"

ـ "كلا".

ـ قال واضعاً يداً بصداقة على كتفي: "أنا آسف. هل تريد نصيحة يانكية؟"

ـ "هل هناك لصقة سعر؟"

قال مبتسماً: "هذه مجانية". أسنانه صغيرة، مستوية وبيضاء. تراجعت الشفتان بعيداً خلف اللثة. "هل إنيس هي فعلاً المرأة التي تريدها؟ أعني أهذه هي التي تريدها؟"

ـ "نعم".

ـ "إذاً لا تستسلمْ. لا تشعرْ بالإحباط. افعلْ ما يجب أن تفعله، حتى ولو كان هناك رجل آخر".

ـ "افعلْ ما يجب أن تفعله، حتى لو كان هناك رجل آخر؟ ما الذي يعنيه هذا؟"

ضحك: "اقتلْهُ بالطبع. هل هناك رجل آخر؟"

استفزتْني الفكرة. "لا أظن هذا"، قلت بشكل غير متيقّن. فكّر ستايب للحظة.

"كل ما أقوله هو أن تتشبَّثْ بها يا جيمس، مهما طال الأمر. لا أعرف امرأة لا تحبّ سرياً الحصار. هذه وصيتي. اتّبعْها ـ أنا أعرف ما أتحدث عنه".

قلت: "لا أعرف. يبدو وكأن هذا سيكون مذلاً".

قام بإيماءة كأنه يريد أن يقول إنه فعل ما بوسعه.

ـ "دائماً أُصدم حين لا يصغي الناس إلى الأمور التي من أجل صالحهم".

ـ "هل نصيحتك هي دائماً من أجل صالحهم؟"

ـ "بدون استثناء".

ـ "ألا تخطئ النصيحة اليانكية أبداً؟"

ـ "لا أذكر وقتاً أخطأت فيه، كلا".

سمعنا صوتاً رقيقاً متكرراً وطويلاً يتحدث بالفرنسية فاستدرنا لننظر إلى الشرفة. لم يصل الصوت واضحاً وفقدتُ الكلمات القليلة الأولى. سمعتُ: "أزمة" ـ سمعتُ، كما ظننت ـ "إن أخطائي قد ارتُكبت".

ثمة رجل أبيض إلى جانبي يكوّر يديه كالكوب ويصيح بصوت أجشّ نحو الشرفة. لعبَ أصدقاؤه دور الكورس. توقف لومومبا عن

الحديث ونظر إلينا. بقيَ صامتاً في تلك الوضعية لبضع لحظات في محاولة كي يصمم لنفسه نوعاً من الكرامة المنحوتة. بدت لي مشغولة بجهد كبير ومُستنبطة، ولكنّ الصفرات بدأت تهدأ.

ـ واصل لومومبا: "إن اليوم ليس اليوم، وهذه الشوارع ليست المكان لمعالجة الأخطاء التي عانينا منها".

تحدث ببطء، مثل أوغوست، مثل جميع الأفارقة الذين سمعتهم حتى الآن.

واصل: "وُعدنا بإجراء التحقيقات. يجب أن نثق بأن الذين يتولون مسؤولية اكتشاف الحقيقة سيجرون تحقيقاتهم دونما اعتبار للون بشرة المرء، وسيحترمون حقوق جميع الأشخاص الذين يشملهم قانون البلاد والقانون الطبيعي. يجب أن نثق بأن الذين تولوا المسؤولية لاكتشاف الحقيقة سيقولون الحقيقة حين يكتشفونها. إذا كانت روايتهم مختلفة عما يعرف االناس أنه الحقيقة، إذا كانت مختلفة عما رأوه بأعينهم وسمعوه بآذانهم، فإن الناس سيلعنون التحقيق وسيلحق الخزي والعار بسمعة كل المسؤولين الذين وضعوا أسماءهم عليه إلى الأبد".

بدأ البيض بمقاطعة الخطيب ثانية. تصاعدتْ الصفرات وصيحات السخرية. هذه المرة واصل لومومبا خطابه، محفّزاً وكلماته تصل بسرعة.

ـ "عانينا كالوحوش ألف عام. نُثر رمادنا في الريح التي تهبُّ في الصحراء. كان لديهم الحق باستخدام السوط وكان لدينا الحق بالموت، ولكن المشعل القويّ للشمس سيضيء لنا ثانية".

تجهم ستايب: "أوه. لم يكن هذا في النص. لن يحب جانسينز هذا".

كان هناك غضب حقيقي في وضعية لومومبا الآن. توتر جانسينز كما لو أنه يستعد لجره جسدياً من الشرفة. فحص لومومبا جمهوره.

ثم بدا كأن تحديقته تتدفق نحو ستايب وتتوقف هناك. ناظراً إلى ستايب، أرى عينيه مثبتتين على لومومبا. قام رأسه بحركة بالكاد قابلة للتمييز. أهي إشارة للومومبا كي يكبح جماح نفسه؟

خيّم صمت طويلٌ متوتّر، وانتظر الجميع الكلمات التالية من الشرفة.

ملتفتاً إلى الحشد الأسود، قال لومومبا أخيراً بصوت منخفض: "اذهبوا إلى بيوتكم. اذهبوا بهدوء. لا تقدموا للجنود عذراً كي يؤذوكم. اذهبوا إلى المنزل وتذكروا أنني أعدكم بهذا: إن الزمن الشرير والقاسي سيولّي، لن يعود أبداً مرة أخرى".

لم يصدر ابتهاج عن السود، لا شيء مطلقاً. ربما جاءت النهاية بشكل مفاجئ جداً، ربما الابتهاج والتصفيق ليسا طريقتهما. ربما لأنهم يشعرون فحسب بأن هذا يشكل هزيمتهم الأحدث.

اختفي لومومبا داخل المنزل، يرافقه جانسينز. بدا كل هذا مخيّباً للآمال بشكل مريع. استرخى البيض واستأنفوا ثرثرتهم الفارغة بينما تساءلتُ ثانية عن مدى نفوذ ستايب: مع أوغوست، مع جانسين، مع جهاز الأمن العام، مع لومومبا. يبدو أنه يذهب بعيداً، في الاتجاهات كلّها.

وقفنا في الجادة، في منتصف الطريق بين الحشدين. مسح ستايب المشهد. انتظر السود حيث هم؛ لم أستطع أن أميّز إن كان خطاب لومومبا هدّأهم أو أجّج مشاعرهم. بدأ البيض بالاندفاع بعيداً، انتهت المسرحية، على الرغم من أنه كان لدي شعور بأنهم كانوا خائبي الأمل من حل العقدة في النهاية.

سأل ستايب: "ما رأيك؟ هل أنت مهتم بكتابة شيء ما؟"

ـ "هل أنت متأكد من أن البلجيكيين سيذعنون للاستقلال؟"

ـ "في غضون ستة أشهر".

ـ إنها قصة جيدة. أفكّر بآلن، ناشري في لندن. يحب أن يرى اسمي على المقالة في الصحيفة. أفكر أيضاً بالشعور وإمكانية المزيد من العمل، وأفكّر بإنيس. ستنتبه. في أقل تقدير ستمنحنا شيئاً ما كي نتحدث عنه.

قلت: "سأكتب شيئاً ما".

ـ "أتحتاج إلى أي مساعدة في نشره؟"

ـ "كلا".

ـ "إذا أردتَ أي شيء آخر، حقائق أو أرقاماً، اتّصل بي. أعرف أنك ستكون حريصاً على كيفية تأمين المصادر".

صدر هتاف مدوّ فجأة عن السود. ظهر لومومبا عند بوابات المنزل مع جانسينز وفريق من الجنود. يداه مقيدتان خلف ظهره. بدأ الحشد بالهتاف: استقلال، استقلال! قاد جانسينز السجين إلى شاحنة عسكرية. رفعه الجنود ودفعوه إلى مقعد بين حارسين مسلّحين.

أصدر السود هتافاً مُصمّاً، هتاف نصر تقريباً. تغير الهتاف إلى: باتريس، باتريس!

قال ستايب ملوحا بيده للحشد: "هذا قابل للتنبؤ، ولكن لا أحد يتعلم. إن نصف هؤلاء لم يكونوا حتى من داعمي الحركة الوطنية الكونغولية هذا الصباح. كلما ازداد عدد المتظاهرين الذين تُطلق عليهم النار وكلما سُجنَ المزيد من القادة، تدفق الناس إلى القضية. ولكن لا حاجة كي أقول لك هذا".

منذهلاً، نظرتُ إليه طالباً شرحاً.

ـ "أليس هذا ما حدث في إيرلندة بعد انتفاضة عيد الفصح لديكم؟"

ـ "لم تكن انتفاضتي" ـ قلت بحدّة آملاً أن ستايب لن يتكشف عن كونه أحد أولئك الأميركيين الحسّاسين جداً الذي اكتشف أن له أسلافاً إيرلنديين وصلوا إلى العالم الجديد على متن السفن الهاربة من المجاعة ـ "وعلى أي حال، لا أرى الموقفين قابلين للمقارنة".

استجاب لدفاعي بضحكة مكتومة ومنح ظهري ترتيبة وداع: "هذا ما تقوله كلّ قوة استعمارية دائماً: أنت لا تفهم، الأمور مختلفة هنا، والموقف أكثر تعقيداً".

وفيما كنت أنظر إلى إنيس رأيتُ سميل. صافحني تاجر الألماس الأنيق بمودة.

ـ "أفترض أنك تريد أن تكتب شيئاً ما عن هذا؟"

قلت مقاطعاً: "عن ماذا؟"

فوجئ قليلاً من قسوتي.

ـ "اعتقال باتريس، ما حدث عند النهر أمس".

قلتُ، ثانية بنبرة متصلّبة: "لا أظن". ثم مشاهداً نظرة الاندهاش لديه، أضفت: "ستكتب إنيس عن هذا، وهي تقوم بأمور كهذه بشكل أفضل مني".

تمنى لي الخير وقال إنه يأمل أن نتناول كأساً معاً.

لمحتُ إنيس في الجانب الآخر من الجادة، الجانب الأسود. بدأتُ بعبور الطريق. ثم رأيتُ أنها تبكي. إلى جانبها أوغوست. كانت تنظر إليه وتنوح أمامه. وضع باهماً على زاوية عينه وبحرص أبعد دمعة من دموعه.

إن حضوري سيكون تطفّلاً. تركتهما لدموعهما المؤلمة وأساهما واندفعتُ بعيداً مع آخر البيض.

* * *

الفصل الثالث عشر

بعد أن غادرتْ إنيس صرتُ أعمل على الرواية في الصباح، ولمدة ساعتين في بداية المساء، ولكنني في فترة بعد الظهر التي كنا نستخدم فيها الكهرباء نظراً للفصل الممطر أحببتُ الجلوس في الكوليبري، حيث صرتُ صديقاً لآنا، المالكة. إنها عجوز فظّة تتظاهر بأنها أكثر ارتياباً بالرجال مما هي في الواقع. لا أعرف لماذا تحبّني. قالت إنني مختلف عن زبائنها المعتادين وعنت بذلك طياري سابينا وموظفي أوتراكو، والمحامين والمسؤولين. وقد دافعتْ عني حين هاجمتْ كوريير دي أفريك ولو أفينير مقالتي. لم تكن افتتاحيتاهما وديّتين وعلّقتا بسخرية مدمّرة بأنني جديد على موضوعي وعلى المستعمرة. لم أتوقع هذا العداء الذي واجهتُهُ، سواء في الصحف أو شخصياً.

لو توقّعتُ ما حصل لما ورّطتُ نفسي وأشك إن كنت سأوافق على كتابة المقالة. وفي إحدى الليالي فيما كنتُ أتناول المحار في مطعم سابينا، مع ستايب ودو شوت، بصقتْ امرأة فلمنكيّة في وجهي وضربتْ صدري بقبضات سمينة وغير فعالة. اتّهمتني بأنني أريد أن أرى الكونغو مدمّرة، وبأنني أدافع عن استلام الشيوعيين للسلطة. أجبتُ ببرود أنني لم أدافع عن أي شيء، وأنني حيادي، وعبّرتُ عن الصورة كما رأيتها فحسب. اعترض دوشوت الهادئ، اللطيف والمتواضع عليها بطريقته الأبوية وقادها مصارعاً وصائحاً إلى زوجها.

قال لي ستايب وهو يزيد كأس النبيذ الخاص بي: "عالجْتَ الأمر برباطة جأش مثيرة للإعجاب".

أجبتُ بابتسامة: "أردتُ أن أذكّرك بأنني منفصل تماماً عن هذا، وهكذا أستطيع أن أنظر إليه بهدوء".

لا أستخدم في العادة مُقْتطفات كهذه لكنني شربتُ قليلاً واتّخذتُ إجراءات مفرطة كي أخفي ما يجب عليّ الإقرار بأنه كان صدمتي. إن الحقيقة هي أنّه على الرغم من أن الكتّاب يحبون أن يفكّروا بأن لكلماتهم معنى وأهميّة في العالم يتجاوزان الصفحة المطبوعة فنحن غير معتادين على أن نُحاسب هكذا بشكل مباشر وجازم. فأنا لم أجرّب أي شيء كهذا من قبل. لكنني عندئذ سألتُ نفسي إذا كان تعبير المرأة عن غضبها كان في الحقيقة غير قابل للصفح. إذا كان القلم أقوى من السيف، كما نقول لأنفسنا كلّ يوم، هل يستطيع شاهر القلم أن يشكو حين يردّ شخص قام بانتقاده بقبضته، وهو سلاح أكثر تدنيّاً بحسب رأينا؟

قال ستايب، محدّداً الاقتباس: "جوزف كي. جيد جداً".

كنا حتى الآن قد أمضينا مساءات كثيرة نتناول الكثير من المشروبات ونتحدث عن الكتب والمؤلفين. ناقشنا فلوبير وساند، وتمثيليات جونسون والمفارقة في رواية مانسفيلد بارك؛ ولكنه لم يذكر كافكا ككاتب مفضّل لديه؛ ولم يُثِرْ ثانية موضوع روايتي التي قرأها مما سبب خيبة أمل لي حاولتُ بذل ما في وسعي كي أخفيها. ولكن إذا كان لم يقرأها، كيف عرف عنها؟ ولماذا ذكرها؟

واصلتْ المرأة إطلاق رشقات من طاولتها، جاعلة الرؤوس تلتفت في أنحاء المطعم.

صاحت: "إن الليبراليين والاشتراكيين لا فائدة تُرتجى لنا منهم في بروكسل. نحن عائق. ولكن إذا حاولوا أي شيء سنقاتلهم. لدينا البنادق. سنريهم رأينا بالاستقلال!"

ابتسم ستايب: "إن بعض الأشخاص ينظرون إلى الأمور بجدية كبيرة".

قلتُ رافعاً كأسي: "ليس نحن".

دقّ ستايب كأسه مع كأسي.

قال ستايب: "حين يبدأ أشخاص مثل هذه السيدة الجيدة بالحديث عن رفع البندقية اعرفْ أن الثورة تعاني من مشكلة. هل قرأت رواية التربية العاطفية؟ وقصيدة بودلير التي يقول فيها: لقد عرّيتُ قلبي؟

ـ "كانت الثورة ساحرة بسبب إفراطها في السخف".

ـ "تمتلك الطبقة الوسطى مواهب كثيرة ولكنّ التمرّد ليس إحداها".

حين انضمَّ إلينا دو شوت من جديد كان محرجاً واعتذر كثيراً من سلوك ابنة بلده. كان هو وستايب، ولدهشتي، برنادر هاوثهوفد، المدافعين الأساسيين عني في الجدل الذي أثارته المقالة. ساعدتْ تأثيراتهم المتنوّعة في منع المشاعر السيئة من أن تتحوّل إلى شيء أكثر قذارة. وبعد أسبوع أو ما يقارب ذلك تلاشتْ الإثارة. يجب ألا أبالغ. كانت القصة مؤثرة وفي الحال تركتني أنا ومقالتي خلفها. دشّن البلجيكيون مؤتمر طاولة مستديرة في بروكسل دُعي إليه جميع قادة الاستقلال باستثناء باتريس لومومبا، الذي كان في السجن بسبب دوره في الاضطرابات. وعلى صفحات الأونيتا سألت إنيس بسخرية أي نوع من الحل ممكن حين تكون الشخصية الأبرز في حركة الاستقلال ممنوعة من حضور المحادثات؟

كتبتُ مقالةً ثانية لـ "الأويزيرفر" بعد أن تلقّيتُ نسخة مسرّبة من تقرير الإدارة الاستعمارية حول عمليات إطلاق النار عند النهر أُحضرتْ بشكل سري إلى شقّتي. افترضتُ أن ستايب فعل هذا، وعلى الرغم من

أنّه لم يؤكد اشتباهي، فإنه لم يفعل الكثير كي ينكره. برّأ التقرير القوة العامة، على الرغم من أنه قال إن أفعال جندي أو جنديين "تاخمت العمل الطائش". نُسبتْ المسؤولية عن عمليات القتل بشكل مباشر إلى لومومبا ومنظمي المسيرة غير القانونية وإلى المتظاهرين أنفسهم. وقد عُثر في جيوب الذين قُتلوا، والذين فتشهم الجنود، على أحجار. وتصرفت القوة العامة بضبط للنفس ضد الاستفزازات المحددة لرعاع مشاغبين.

أعرف أن إنيس قرأت مقالاتي، ولكنها لم تتحدث معي أبداً عنها.

* * *

كانت تعمل وهي جالسة إلى الطاولة الصغيرة حين وصلتُ بعد أن قضيتُ بعد ظهر طويل في الكوليبري مع ستايب. إنها لا تعود غالباً إلى المنزل باكراً هكذا. سألتُها كيف كان يومها فقالت كان رائعاً. لم أستطع أن أجعلها تقول أي شيء آخر. أصدرتْ الآلة الكاتبة صوتها، وواصلتْ عملها. هذا غير معتاد. اليوم ـ لا أعرف لماذا، ربما لأنني شربتُ كأسين إضافيين ـ وهذا أكثر مما أستطيع تحمّله.

صرختُ: "تحدّثي معي".

أجابت بصوت ضجر دون أن تنظر إليّ: "عن ماذا؟"

ـ "تعرفين عن ماذا".

واصلت طباعتها.

ـ "إنيس، لا أستطيع الاستمرار هكذا بعد الآن".

لم يتوقّف إيقاع المفاتيح. غاضباً، أديرها وأنهضها ممسكاً برسغيها بسرعة.

ـ "هل تسمعين؟ لم يعد بوسعي الاستمرار هكذا".

هل تكترث؟ نظرتْ إليّ بدون رقّة.

- "إنك تدخل في فترة مشوشة في حياتك"، هذا كل ما قالته.

أردتُ أن أضربها. جاشتْ الكراهية في صدري. لم أكن أشكل الكثير بالنسبة لها، ولكنني كنتُ حبيبها لمدة عامين وأستحق أفضل من هذا. كنتُ على شفا البكاء من الغضب والشفقة على الذات.

صحْتُ بها: "لستُ مشوّشاً. أنا واضح. أريد أن أكونَ معكِ. لا شيء مشوَّش حيال هذا".

- "لا أستطيع التحدث عن هذا الآن، هناك الكثير الذي يحدث".

- "وهكذا واصلي القول".

لم تردّ عليَّ. أفلتُّها من قبضتي.

قلتُ بنبرة غضب ونزق: "ما الذي يحدث؟ ما الشيء المهم جداً الذي يحدث هنا؟ إنه نزاع صغير حقير حول أية مجموعة من الرجال الصغار الفاسدين والجائعين للسلطة والقابلين للرشوة ستحتل المنصب الأكثر فائدة كي تملأ جيوبها".

- "هل تقول إن باتريس جائع للسلطة وفاسد؟"

- "أنا أقول إن السياسة نتنة. أقول إنها ليست مهمة. أقول إنها مشهد، مهزلة رأيناها ألف مرة. إن الخلفية تتنوّع، والفاعلون يتغيرون، والحبكة تلتفّ في طرق مختلفة، ولكنها دوماً القصة نفسها ودوماً تعرفين النهاية. ومن يأبه بعد ذلك؟ السياسة مضجرة. من يأبه؟"

- "أنا أكترث. أكترث، وإذا كنتَ غير قادر على رؤية ما يحدث هنا بعينيك، إذاً لا يوجد شيء آخر نتحدث عنه".

قلتُ بقدر ما أستطيع من الهدوء: "من فضلك عودي معي إلى لندن".

لم تقل شيئاً.

ـ "أنا أحبكِ يا إنيس. انتظرتُ طيلة حياتي كي أحظى بحبٍّ كهذا. وأخشى أنني لن أحبّ هكذا مرة ثانية".

قالت كما لو أنها تعلن حقيقة: "ستفعل. لا أصدق أنه يوجد شخص واحد فقط في العالم لنا".

صرختُ: "لا أريد أن أسمع هذا! ألا تعرفين ماذا يفعل سماعي لك تقولين هذا؟"

ـ "تغيّرت الأمور".

ـ "لا تقولي هذا!"

ـ "تغيّرت".

ـ "ربما بالنسبة لكِ، ولكن ليس لي. لم تتغير بالنسبة لي وهي تمزّقني".

أحنيتُ رأسي وأغمضتُ عينيَّ كي أستجمع قوّتي. أخذتُ أنفاساً عميقة. لم أقصد أن أدخل في هذا، ولكنني لم أستطع إيقاف نفسي. لم أبالغ: لا أستطيع الاستمرار هكذا. إنه أكثر مما أستطيع التحمل.

تركتُ بعض اللحظات تمرُّ. على الأقل مفاتيح الآلة الكاتبة لا تدقّ، على الأقل لم تعد إلى العمل.

حين نظرتُ إليها أرى أنها تحدق بي، والآن هناك رقة. على الأقل شعرتْ بألمي. وقفنا هناك صامتين. مددتُ يدي لها، غير عارف إن كانت ستتركني ألمسها. كم يطعنني هذا! حين مرة كان بوسعي في أي وقت أن أضع أصابعي على ثدييها، وعلى ردفيها، وبين ساقيها وكانت تتوق إلى لمستي. الآن لا أستطيع حتى أن أتأكد من أنها ستسمح ليدي بأن تلمس وجهها. ارتجفتُ. ابتسمتْ بيأس وحزن، كأنها تنظر إلى

ضحية حادث تستلقي إلى جانب الطريق حالته ميؤوس منها. داعبتُ شعرها. بدا كأن سماكته تخفّ ويصبح أكثر هشاشة كل يوم. استطعتُ أن أرى شيب فروة رأسها.

قلتُ: "تبدين متعبة جداً. تتجولين طول اليوم. لا تأكلين أبداً ــ تعودين إلى المنزل متأخرة. يجب أن تعتني بنفسك".

قالت: "أنا بخير. أنت الذي يجب أن تعتني بنفسك، خاصة مع ستايب".

لا تفهم أي شيء عن ستايب وعني. ضحكتُ بازدراء. اندفعتْ نحوي. دعمتُ نفسي كما لو من أجل صدّ هجوم. بدلاً من ذلك أمسكت يديَّ ورفعتْ ذراعيَّ.

قالت بإلحاح: "أصْغِ إليّ. إن ستايب هو عدوّ. كل ما عليك فعله هو أن تنظر إليه لترى ذلك. الطريقة التي يتصرّف بها، شكل جسده. إن كل شيء فيه يكره هذه البلاد والشعب الذي فيها. تستطيع أن ترى هذا في عينيه، في الطريقة التي يتحرك بها".

ـ "أنت مخطئة، يا إنيس".

ـ "أتثق به فقط لأنه قال في ذلك اليوم في حديقة هاوثهوفد إنه أحب كتابك؟"

ـ "آه، هيا يا إنيس، احترميني قليلاً".

ولكن بالطبع هناك حقيقة في ما تقوله. أشعر بأنني مثير للشفقة، كُشف توقي للمديح. إن الكاتب الثانوي ـ الكاتب الثانوي ذاته ـ عرضة دائماً؛ يمكن أن يُباع ويُشترى بسطر من الإطراء.

ـ "ربما لم يقرأ كتبك. ربما ذكر له دو شوت أنك كاتب".

هذا قابل للتصديق بشكل مرعب.

قلت: "لا تكوني سخيفة".

شعرتُ بصداع رهيب. الشراب، الغضب، الألم، الحرارة.

واصلتْ: "إن ستايب يعمل ضد باتريس. لا تثق به".

ـ "إذا كان يعمل ضد باتريس لماذا قدّم لي المعلومات للمقالة؟"

ـ "إن البلجيكيين لن يمنحوا الاستقلال. قتلوا المتظاهرين وكذبوا حيال ذلك. اعتقلوا القادة وزجّوا باتريس في السجن المركزي. يعرف ستايب إن كل ما في المقالة كذب".

ـ "كان الهدف تقويض الدعم لباتريس والحركة الوطنية الكونغولية".

ـ "إن ستايب هو صديق لومومبا. يفعل ما بوسعه كي يساعده. كنتُ هناك حين حاول أن يقنع لومومبا كي يذهب إلى برازافيل بعد المظاهرة".

ـ "إن المقالة التي تلاعب بك ستايب كي تكتبها قالت للشعب إن البلجيكيين سيستسلمون بأية حال وبالتالي ليس عليكم أن تُعبّأوا".

أخطأتْ في لفظ كلمة تُعبّأوا. لم أصحّح لها.

شدتني بلطف من ذراعيّ. أمسكنا بعضنا بعضاً، تلامستْ جبهتانا. وضعتْ يداً على وجهي.

ـ "تبدو متعباً أيضاً"، قالت بهدوء وقبّلتني على خدّي.

* * *

تعرّينا وذهبنا إلى السرير. تبادلنا القبل والمداعبات ولكننا لم نستطع ممارسة الحب. كان خطأي. تمنيتُ، أو كنتُ أستطيع تحميل المسؤولية للويسكي، ولكن الأمر كان أسوأ من هذا. لم يكن فيها جوع ولا عاطفة. صعقني جفافها. الشيء الأخير الذي كان يجمعنا ـ الجسدي ـ تلاشى.

حين التقينا أول مرة رأتْ صمتي كشيء ستخترقه. اعتقدتْ أنها ستجد معنى مخبأ في فراغي. حاولتُ أن أقول لها، مرات عديدة، ولكنّ هذا عمّق لغزيتي لها. كان هناك وقت أُعْجِبتْ فيه بي. لستُ كلّي سيئاً، وأحياناً أقترب في كتابتي من إظهار شيء جيد. وفي المساءات، في شقة كامدن، ستقرأ الصفحات التي كتبتُها في ذلك اليوم وتقول: "لا تتراجع، لا تتراجع. كن صادقاً. اجعل مشاعرك الحقيقية تدخل كلماتك". ولكنّ عيني الثالثة، عين الكاتب، تراقب جميع الكلمات والإيماءات. تجعلني خائفاً من نقدي العنيف الخاص. استطعتُ فقط أن أتراجع.

أُعْجبتْ مرة بي. آمنتْ بي مرة وقد خُدعتْ بي. ليس الآن. اخترقتْني ولم تعثر على أي شيء.

إن هذا الشيء يموت. حالاً سيكون عليّ أن أقبله. أشعر بالحزن الشديد.

* * *

الفصل الرابع عشر

ما أزال هناك، لكنني سأغادر حالاً. لم نعد نتشارك كما في السابق. نصحتني ستايب بأن أتريّث، ولكنّ وجودي معها دون أن أتلقى أي شيء أحبطني وأنهكني وألغى احترامي لذاتي، وامتصّ كبريائي. إنها غير مبالية بحضوري. لا أستطيع التحمل أكثر.

لم تكن على ما يرام. لم تكن طبيعية، فواصلتُ مضايقتها حول عدم تناول الطعام بشكل ملائم. حين تخرج لتقوم برحلاتها مع سميل وأوغوست، الذي يبدو أنه يقود الآن سيارتها بقدر ما يقود سيارة ستايب، كانت تكتفي بالفوفو ولسان الحمل والمنيهوت. ما هو جيد بما يكفي للناس جيد لها. إنها نحيلة جداً ومنهكة. عيناها الزرقاوان الكبيرتان تبدوان أكبر الآن؛ ثمة توسعات سوداء وبنيّة تحتهما وهما تبرقان بشكل مزعج.

ثمة جانب فكاهيّ في هذا. وعلى الرغم من أنها ستنكر ذلك، فإنّ إنيس تمتلك إحساساً تنافسياً، ليس عن التقدير أو الأرباح أو البراعة في اللغات أو أي شيء كهذا، ولكن عن الصّحة والجَلَد. أثناء شتائنا الأول في لندن أصابتْني إنفلونزا سيئة. كانت تحضّر لي كؤوس ويسكي ساخنة لانهائية وتسلّيني بالأحاديث الهامسة. قالت لي - قليلاً بتباه - إنها لم تُصب بالإنفلونزا أبداً. بعد بضعة أيام حين أوتْ إلى فراشها وهي تعاني بشدّة من الإنفلونزا مزحتُ معها، ولكنها لم تستطع أن تتذكر أنها قالت أي شيء من هذا القبيل. إنها لا تلعب بشكل عادل: تمنحكَ قطعاً من اللغز وتنتزعُها مرة ثانية، التفاصيل الصغيرة، الأشياء التي تصنع الكلّ.

لا أمزح معها الآن. أنا قلق جداً. حين أطلق سراح لومومبا بشكل مفاجئ كي يحضر مؤتمر بروكسل ـ وهذا شيء كانت مقتنعة بأن حملتها في الأونيتا كانت وراءه ـ لم تمتلك قوة كافية للخروج من الشقة. ألحّت بأنها ستكون بخير وكانت عنيدة في رفض الذهاب إلى طبيب. قالت إن الأطباء يثيرون الذعر. ولكن الحقيقة هي أنها لا تريد أن تُذكر بلندن، بما قاله لها الأطباء هناك. هناك أيام كانت فيها بخير، وأيام لم تكن هكذا.

* * *

كنتُ أكتب وأنا جالس إلى الطاولة حين سمعت بذلك لأول مرة. كان الضجيج منخفضاً، لا يُميَّز، كما لو أن الجوّ شُقَّ. كان صوتاً تعتقد أنك سمعته، ثم تقرر أنه داخل رأسك. إنيس في غرفة النوم، تقرأ، تغفو. اليوم هو أحد الأيام السيئة.

نادتْني بصوت منخفض: "هل تستطيع سماع هذا؟"

الصوت أقوى الآن. أصبحُ واعياً لشيء ما غريب. نظرتُ إلى ساعتي. إنها بعد الرابعة. يجب أن تكون هناك حركة مرور ولا يوجد أيّ منها. لا توجد سيارة واحدة.

نادتْ إنيس من غرفة النوم مرة ثانية: "هل تستطيع سماع هذا؟"

ـ "نعم".

ـ "ما هذا؟"

نهضتُ ونظرتُ من النافذة.

ـ "ما الذي يحدث؟"

دخلتْ إنيس إلى غرفة الجلوس واضعة غطاء على رأسها. لمحتُ بطنها البيضاء وثدييها وشعرتُ بانقباض مفاجئ من الخسارة.

الأشياء الجميلة التي كانت لي ولم تعد لي. إن هذا القرب يقتلني. يجب أن أذهب، إذا كنتُ سأحيا. يجب أن أذهب، ولكنني لا أريد.

رنّ الهاتف.

قلتُ لها: "لا أستطيع أن أرى أيّ شيء. ولكن هل لاحظت أنه لا توجد حركة مواصلات؟"

أتت إلى النافذة ووقفتْ إلى جانبي. فاحتْ رائحة النوم والحليب والتعرّق من جلدها. ذهبتُ للرد على الهاتف.

ـ "هل سَمعْتَ الأخبار؟"

ـ إنه ستايب.

ـ "كلا".

ـ "لا بد أنك الشخص الوحيد في ليو الذي لم يسمع. ما الذي تفعلونه أيّها الكتاب طول اليوم؟"

ـ "نكتب".

ـ "حاول أن تخرجْ قليلاً أكثر. أو على الأقل أصْغِ للراديو".

ـ "ما الأخبار؟"

ـ "أتذكر مقالتك: ستة أشهر؟"

ـ "و...؟"

ـ "لم تبتعد كثيراً. 30 حزيران. أُعلن الآن من مؤتمر الطاولة المستديرة. تهانينا. لنتناول كأساً في الكوليبري كي نحتفل".

أغلق السماعة. نظرتْ إليَّ إنيس.

ـ "حسناً؟"

ـ "ستايب".

أصدرت صوت ازدراء واستدارتْ إلى النافذة. لا شيء يقوله ستايب يمكن أن يكون مهماً.

ـ "حدّد البلجيكيون يوم الاستقلال: 30 حزيران".

استدارت فوراً.

قالت بهدوء: "يا يسوع، هل يمزح؟"

ـ "لا أظنّ".

لم أر أبداً نظرتها مندهشة هكذا. أسرعتْ إلى غرفة النوم كي تكمل ارتداء ثيابها.

أفحص التاريخ: 27 شباط.

قلتُ لنفسي: "أربعة أشهر. أربعة أشهر ويحدث الاستقلال".

أدركتُ الآن فحسب أنني لم أصدق ستايب حين كتبتُ المقالة. كنتُ وكيلاً أعوّم شيئاً تحزّرياً ومثيراً. زعمتُ ـ كما يفعل الصحفيون ـ بأنني أرسم لوحة رأيتُها من قبل. لم تملك إنيس وقتاً لهذا الدفاع. أية ألوان تستخدم؟ كيف تخلطها؟ أين تقف؟ أية عوامل تؤثر في اختيارك للمنظور؟ ولكن في هذه الحالة كان الدفاع زائفاً بخاصة. رسمتُ لوحة لم أرها. كانت لوحة ستايب.

عادت ممسكة بفردتي حذاء قديمتين باليتين وانحنتْ أمامي وهي تنتعلهما.

* * *

امرأة بلجيكية متوسطة العمر في فستان بال أزرق مزهّر ربتت على ذراعي. كانت تحمل حقيبة بيضاء تشدها إلى صدرها ونظرتُها يائسة.

تمتمت باللغة الفرنسية: نحن لا نعرف شيئاً. نحن نجهل كلّ شيء.

انطلقت بالملامح المذهولة والعين التي لا ترى لشخص قيل له لتوّه إن طفله قُتل في حادث. لم تكن وحيدة. كانت جميع الوجوه البيضاء تشي بالخسارة، والحيرة الكاملة. في زاوية لاميرمونت خرجت مجموعة صغيرة من عمال المكتب كي يؤكدوا بأعينهم ما الذي سمعوه في الراديو. كانوا صامتين، وخالين من التعبير، ومرعوبين.

"هيّا بنا"، قالت إنيس بإلحاح وهي تواصل السير في جادة دو أفياتور، حيث يتظاهر البيض. سرتُ، شاقاً طريقي عبر المشاهدين المخدّرين.

"أين الجيش؟ لماذا يتركون هذا يحدث؟" سمعتُ رجلاً يقول لرفيقه وأنا أمرُّ.

ثمة شيء مزعج يتعلّق بالأمر. ليس الكلمات. ليس هذه. إنه شيء ما آخر. وما أن سرتُ عشر أو عشرين خطوة أخرى حتى أذْهَلني: كان الرجل يهمس، كان يتحدث بصوت أدنى من نَفَسِهِ. غالباً ما سمعتُ البيض كدفاعيين ومحترسين، ولكن كانت هذه هي المرة الأولى التي سمعتُ فيها مُسْتَعْمِراً يخفضُ صوته. في هذه اللحظة فهمتُ ضخامة ما كنا نشهده. توقفتُ كي أنظر إلى الخلف، إلى المتحدث. يجب أن أراه، يجب أن أثبّت صورة هذه اللحظة. لاحظني، كذلك رفاقه؛ شاهدوني وتوحّدوا ضدي في جنون ارتياب عدواني.

أسرعتُ خلف إنيس. كان كلُّ ما حولي هو القمع والصمت، تلك الهسهسة الثابتة المنذرة بشر فحسب.

في أسفل الجادة، قرب ساحة البريد، وصلْنا إلى المتظاهرين. كان عددهم يبلغ الآلاف ويسيرون في خطوة متعمّدة، وأعينهم تنظر إلى الأمام بشكل عنيد. كانت تعابيرهم تعكس ثقةً لم أرها من قبل في الوجوه السوداء: ممتزجة بالمباهاة، وتتاخم العداء. كانوا يجلدون الهواء بسعف النخيل، كي يصدروا الهسيس العنيف الذي سمعتُهُ في الشقة. جعلَ الصوتُ عموديَ الفقري يرتعش.

امرأة بيضاء خائفة في مكتب البريد أمسكت يد ابنتها ورضيعاً كبيراً على الحمل، وأسرعتْ هاربة، متعثرة محنية الساقين تحت حملها كممثّلة كوميدية مُقلِّدة. وقف رجال الدرك مستائين ومحبطين ومذلّين وبلا قائد.

تبعتُ أنا وإنيس المتظاهرين وهم يركضون نحو الجادة، صادفْنا غرانت بين الحشد المتنامي من المتفرّجين. وضع يده على شعره البني وأبعده عن جبينه. وبقدر ما أستطيع القول من المحادثة المنتزعة التي سمعتها في الكوليبري أو الريجينا كان رجلاً يخلو من الحماس. قالت إنيس إن الحماس انتُزِعَ منه في المدرسة العامة أو الجامعة التي درس فيها. اليوم ليس استثناء. والأخبار بالنسبة له ليست شيئاً مهماً. ألقى نظرة بليدة علينا من ارتفاعه المتفوّق كثيراً ـ كان طوله ستة أقدام وأربعة إنشات على الأقل ـ وتنازل للتحدث معي.

قال بلباقة محكمة لا تعبّر عن أية تهان: "تهانيناً. إن مقالتك نبوئية في النهاية".

أجبته: "شكراً".

سارت إنيس إلى الأمام. كانت تكره النمط بقدر ما تكره الشخص.

سأل: "هل عرفتَ أنّ هذا سيحدث؟"

قلت: "لم أمتلك أية فكرة".

ـ "اعتقدتُ أن صديقك الحميم عميل السي آي إيه أخبرك".

كررتُ: "في الحقيقة لم تكن لدي فكرة".

بدا كأنه قرأ هذا كصدٍّ من منافس. ارتعش جزء مني من إشباع الفرصة الخارجية كوني فزتُ بالسباق ضد معارض أقوى ويعتقد أنه أكثر نجاحاً مني، حتى دون أن أحاول. انجذب بعض المراسلين الآخرين.

كانوا ينظرون إليّ بترقّب. حاول أحدهم أن يحدث اتصالاً بصرياً معي. وبسبب من اللباقة فحسب أومأتُ له فابتسم كما لو أنني فضّلته.

قال غرانت: "ستكون مطلوباً الآن".

بعيداً في أسفل الجادة خرج أحد المتظاهرين من المظاهرة وركض إلى إنيس.

صرخت إنيس مسرورة: "أوغوست!"

اندفعا للعناق.

صوته مرتفع وحماسيّ: "إنها قادمة. الحرية قادمة. تماماً كما قال باتريس".

لم أدرك أن أوغوست كان حماسياً هكذا كلومومبيّ وتساءلتُ إن كان ستايب يعرف هذا. ضمّتهُ إنيس مرة أخرى.

سمعْتُها تقول: "أنا سعيدة جداً".

راقبْتُهما، وهما يشابكان ذراعيهما ويهذران بإثارة، وينضمان إلى المتظاهرين. نمتْ صداقتهما باطراد على مرّ الأسابيع منذ أن عرّفتهما على بعضهما بعضاً. لم ينتبه أيٌّ منهما كم كان عرضهما صادماً للحشد الأبيض. حدّثني غرانت عن العروض الحتمية للعمل التي ستأتي من الصحف اللندنية، وعن أسعار الكلمات والكلف. بالكاد سمعته. كانت نظرتي مثبّتة على رجل ممتلئ الجسم، مسلّح بإفراط انطلق خلف إنيس وأوغوست. لم أستطع أن أرى وجهه، ولكن الغضب والحنق فيه واضحان من طريقة سيره.

قال غرانت: "ربما ستحب أن نتناول كأساً فيما بعد".

ـ "اعذرني"، أجبتُ بسرعة وركضتُ خلف إنيس وأوغوست.

كان هذا متأخراً جداً. انفجرَ الرجل الممتلئ. اندفع من الخلف، ورماهما منفصلين بضربة عنيفة.

ـ "تحبيّن العضو الأسود، أهذا هو الأمر أيتها القحبة الصلعاء؟ أيتها العاهرة النتنة! يجب أن تحصلي على الأمر من الزنوج لأنه لن يلمسك رجل حقيقي".

ردّتْ عليه إنيس صائحة بالإيطالية، كلمات سريعة لم أستطع فهمها. حام الحشد الأبيض متوتراً ولا أحد يمكنه التنبؤ بما يمكن أن يفعله. دار الرجل الممتلئ ودفع وجهه على وجه أوغوست.

ـ "أغربْ من هنا أيها القرد الدميم أو أقتلك الآن بيديّ العاريتين. اذهب أيها القرد الأسود النتن".

صاحتْ إنيس بخصمهما، نظر أوغوست حواليه بحذر. لا يريد أن يترك إنيس، ولكن غضب البيض الآخرين، الرجال والنساء، ازداد. خطا خطوة حذرة إلى الخلف. اندفع شخص من الحشد ولكمه في صدره.

تخبّط أوغوست. تحلق البيض. كم عيناه كبيرتان الآن، كم خوفه متبدّ. كان كزنجيّ فيلم صامت، نكتة لأولئك الذين لا يعرفون مدى مخاوفه. رفسه أحدهم على ساقيه. كان يعرف أنه يجب ألا يسقط. تراجع إلى الخلف، بحرص محاولاً أن يجد طريقة كي يعود إلى أمان المظاهرة. أصبح المتظاهرون واعين لما يحدث ولكنهم بدوا غير عارفين ماذا يفعلون.

صاحت إنيس: "اتركه وشأنه".

حاولتُ أن أندفع عبر الحشد المتجمّع. إنهم يشتمون إنيس: قذرة، قذرة!

صحتُ: "دعوني أمرّ، دعوني أمرّ".

بعد أن سمعوا لكنتي نظـروا إليّ باشـتباه وتباطـأوا في التزحـزح. لستُ واحداً منهم؛ ربطوني بإنيس وأوغوست.

ـ "اخرجوا من طريقي!".

ضربَ أحدهم قفا رأسي. نزلـتْ كـرة مـن البـصاق علـى أنفـي. اندفعتُ إلى الأمام، أمسك أحدهم ذراعي.

هاجم الرجل الممتلئ إنيس. كانت مرعوبة وترد على كل شتيمة.

ـ "اخرسي، أيتها العاهرة القذرة".

دفعها بصدره العريض عن الرصـيف إلى الطريـق. تراجعـتْ إلى الخلف. رفع يده وصفعها على وجهها. بُوغتت ولكنها جمّعـت قوتهـا بسرعة، توقّد الشرر في عينيها، وضربته بقبضتها.

كنتُ في قبضة شخص لم يفلتني. تخلصتُ منـه ودون أن أعـرف من ضربتُ وجدتُ نفسي مُحـرَّراً. ظننـتُ أنـني رأيـت وجهـاً أعرفـه: سميل؟ استدرتُ. إنه سميل. كان تاجر الألماس يعارك الحشد، يدفعه عني، يشتمه ويتحداه. التقتْ أعيننا قليلاً، فقط بما يكفي لنا كي نؤكـد حضورنا لبعضنا بعضاً؛ ثم اسـتدرتُ وشـققتُ طريقـي بـصعوبة نحـو إنيس. نجحتُ في الوقوف بينها وبين الرجل الممتلئ. أنا لستُ مقـاتلاً. لا أستطيع تذكر آخر مرة وجّهتُ فيها لكمـة ـ منـذ وقـت طويـل، في مدرسة ربما ـ ولكن هناك دم على فم إنيس.

قلتُ للرجل الممتلئ: "لا تلمسها".

لا أصيح. صوتي هادئ. أستطيع أنا نفسي أن أسمع التهديـد فيـه. خلفنا في مكان ما أعي استمرار الشجار حول أوغوست.

صاحتْ إنيس بالرجل الممتلئ: "أيها العنصريّ القذر".

قلتُ لها: "اهدأي".

استطعتُ أن أرى أن الرجل الممتلئ يفكّر بضربي. إذا فعل سيتغلّب عليّ. يجب أن أركّز على عدم جعله يرى ذلك. توقف. هناك احتقار في عينيه.

قال: "أَبْقِ امرأتك اللعينة تحت السيطرة".

بصق في وجهي، ثم استدار مبتعداً. حدق الحشد بنا ولكن لا أحد بدا كأنه يريد القيام بالحركة الأولى.

أمسكت بيد إنيس وقدتُ طريقها.

صاحت: "أوغوست!"

على بعد عشرين ياردة في أعلى الجادة كان أوغوست على ركبتيه، محاطاً بالرعاع. وكان سميل يفعل ما بوسعه للدفاع عنه. أحدهم رفس أوغوست بوحشية في صدره.

إنها إشارة بداية القتال بشكل حقيقي. كان المتظاهرون قد بدأوا بتحطيم الصفوف ورمي سعف النخيل واللافتات جانباً، واندفعوا بتهور نحو العدو كي ينقذوا رفيقهم. تبعثر بعض البيض، ركض آخرون للهجوم عليهم. اندفع رجال الدرك.

صاحت إنيس: "أوغوست".

توقف على قدميه متمايلاً، ساعده سميل. انضم المتظاهرون والحشد والشرطة في دوّامة قتال.

قلت: "إن أوغوست على ما يرام. سميل معه. إنه على ما يرام".

لم يكن أوغوست على ما يرام. ولكن كان عليّ أن أبعدها.

* * *

قدتُها نحو أسفل الجادة، من الطريق الذي جئنا منه. كان هناك قتال دائر في كل مكان حولنا. هيمن على الشوارع التي كانت تحت السيطرة جوٌّ مفاجئ من القذارة والإحباط: هناك زوج من الألبسة الداخلية الرجّالية مبللة ورمادية قرب مصرف للمطر (ما الذي حدث كي تكون هناك؟)؛ هناك سعف نخيل ولافتات مبعثرة؛ وكان الزجاج الألماسيّ لنوافذ السيارات المحطّمة مبعثراً في كل مكان. سارت عربة مصفّحة خلفنا. كان برج رشاشها يدور على محوره بهدوء الروبوت. تبعثر المشاغبون فيما كانت تتقدم.

صاحتْ فجأة، كان صوتها ملحاً وضعيفاً في آن: "قف".

انحنتْ ووضعتْ يديها على ركبتيها محاولة استجماع قواها. أمسكتُها من الخلف من خصرها. إنها ريشة.

ـ "هل أنت بخير؟"

لم تردّ.

ـ "إنيس؟"

أصدرتْ أنّة خفيفة. من خلفنا في الجادة جاء صوت إطلاق نار. غاز مسيّل للدموع.

ـ "لا أستطيع الحركة"، قالت وهي تحاول أن تجلس على الرصيف.

لم أفلتها.

قلت: "سنذهب إلى المنزل".

حين رفعتُها بلطف نحو الأعلى لمحتُ غرانت وأحد المراسلين ينظران إلينا. هز غرانت رأسه لي فمنحته ابتسامة متصلّبة بالمقابل. رأيتُ ابتسامة متكلّفة تعبر وجهه. التفت كي يقول شيئاً لزميله. اشتبهتُ أنّ ما قاله لم يكن لطيفاً. لا بد أنه شعر بالسرور من رؤية

منافسه عالقاً في موقف غير محترم كهذا. أشك إن كان غرانت قد جرّب شيئاً كهذا من قبل: العصبيّة والغضب والتوقّد العاطفيّ، وبصاق شخص ما يتقطر من أنفه إلى ذقنه. أشك إن كان مع امرأة كهذه، امرأة تسبب المعارك وتضرب بقبضتيها. كلا، إن غرانت لن يضع نفسه أبداً في موقف سخيف كهذا.

أستطيع أن أرى نفسي وإنيس الآن، الحالة التي نحن فيها، من حيث يقف.

* * *

الفصل الخامس عشر

دهنتُ شفتها المنتفخة بالأيودين. طلبتْ منّي أن أتصل بستايب كي يساعد أوغوست. وإذا كان لا يستطيع أو لا يريد يجب أن أذهب إلى المدينة، إلى منزل شقيق أوغوست، حيث سيكون هناك أشخاص يعرفون ما يفعلون.

قلتُ سأفعل هذا كلّه في الوقت المناسب، أولاً يجب أن يراها طبيب. وعلى الرغم من احتجاجاتها اتّصلتُ بروجر. لم تنْسَ ما قاله أصدقاء روجر في حديقة هاوثهوفد منذ كل تلك الأسابيع، على الرغم من أنه بالمقارنة مع الأمور التي يقولها البيض كل يوم عن السود فإن ملاحظاتهم بدت لطيفة. كنت أصادف روجر أحياناً في الريجينا والكارافيل. إنّه لطيف وطيّب القلب ودون خيال، إنكليزي بشكل كامل. أتى مباشرة.

كان لطيفاً معها على الرغم من أنها مريضة مزعجة، قاطعتْ فحصه بأسئلة عن إعلان بروكسل، وعن لومومبا، والمظاهرة، وما الذي سمعه؟

"قالت الإذاعة إن الانتخابات النيابيّة ستجري في أيار".

تنبأت بثقة: "سيفوز باتريس بسهولة. فالحركة الوطنية الكونغولية هي الحزب الأكبر".

سألها: "هل تتناولين حبوبك المضادة للملاريا؟"

بدا أنها لم تسمع السؤال ولكنها سلّتْ نفسها قائلة: "سأرتب مقابلة حين يعود".

ضغط روجر: "النيفاكين؟ البالادرين؟"

"البالادرين"، أجبتُ عنها على الرغم من أنني غير متأكد إن كانت تتناوله بشكل منتظم.

"ماذا عن تغوّطكِ؟"

نظرتْ إنيس إليه، منذهلة. شرحتُ لها. احمرّتْ قليلاً. كانت خجولة جداً من هذا الأمر. كان هذا الشيء الوحيد عن الجسد الذي يحبط حتى أحاسيسها الأرضية. اعتادت دوماً أن تذهب إلى أبعاد كبيرة، وتتبنى كل أنواع الحيل كي تجد وسيلة لتبعدني عن سماعها حين تذهب إلى المرحاض، وأحياناً إذا لم تستطع أن تبعدني، تصدر ألحاناً عصبية صغيرة مرتجلة كي تغطي كربها. لم تكن قادرة على السيطرة على هذه الحساسية الشديدة. منذ ليلتين استيقظتُ كي أجد نفسي وحيداً في السرير وسمعتها تتقيأ وتتبرّز. انتظرتُ صوت دفق الماء، جريان الصنبور، الغسيل والبصاق. لم يكن هناك أي شيء سوى الطنين البليد للمكيّف. قفزتُ من السرير وفي شبه ظلمة الحمام وجدتها تجلس عارية على مقعدة المرحاض، منحنية إلى الأمام في موقف من الإعياء الكامل. كان هناك بقع كثيرة من القيء رمادية وبنية على الأرض بين قدميها. ساعدتها على النهوض وأدخلتها تحت الدش. كانت بشرتها باردة ورطبة. جلستْ في الحوض، ظهرها على الآجر بينما وجّهتُ فتح الماء. نشّفتُها وحملتُها إلى السرير، ثم عدتُ كي أنظّف الأرض.

تركتُها مع روجر وحيائها وذهبتُ إلى النافذة في غرفة الجلوس. اتّصلتُ بالقنصلية وتركتُ رسالة لستايب أخبرته فيها عن أوغوست. كان الشارع في الأسفل صامتاً. لا أحد يتحرك. نظرتُ إلى الطاولة في الأسفل، التي يتوضع عليها مخطوطي. ماذا كان شعوري حيال الرواية، إذا كنتُ صادقاً؟ إنها عن رجل بحث نقطةً في حياته حيث، جاهلاً من هو أو ماذا هو، يقتنعُ أنه إذا عثر على الأب الذي لم يعرفه

أبداً سيكتشف مفاتيح هويّته. حين أخبرتُ إنيس لأول مرة أنني أخطط لتأليف هذه الرواية تحمّستْ جداً. ولأسباب تتعلق باهتمامها بماضيَّ وأسرتي وتكويني، كانت هذه هي الرواية التي أرادتني أن أؤلّفها. ستكون مختلفة عما كتبته من قبل، ستشكّل انعطافاً، سيُشعر بها. أمطرتني بالأسئلة، وقدّمتْ اقتراحات لانهائية، وغذّى حماسُها حماسي. في كل مساء، حين تعود إلى الشقة، تطلب مني أن أطلعها على ما كتبته. كانت تلتهم الصفحات، تقول برافو. تقبّلني. ولكن بعد أن تقدَّمَ العمل بدأ موقفها يتغيّر. كانت ردود فعلها شكليّة. حاولتُ أن أخفي خيبة أملي، ولكن في إحدى الليالي تحدّثتُ معها حول الأمر. قالت بالطبع إن العمل يمتلك التقنية والصنعة، وإنها أحبّت بعض المقاطع الوصفية (كلما ازدادت الممارسة ازدادت الفرص لإكمال الخدع). ولكن جوهر الرواية يجب أن يكون حاجة الولد وهذا ما لم تشعر به. بعد ذلك، كانت تقلب الصفحات كشخصٍ يقرأ بدافع من الواجب. في مساء أحد الأيام حين طلبتْ قراءةَ ما كتبتهُ رددتُ باستهتار مدروس: "آه، لا أعتقد أنه لدي أي شيء يستحق أن أطلعك عليه الليلة. إن المقطع الذي أعمل عليه لم ينته بعد". لم تطلب ثانية. بعد أن خاب أملها من هذا الكتاب، بدا وكأنّها نسيت كلّ ما يتعلق به.

هذا صحيح. إنها محقّة. على الرغم من أنني أكتب وأعاود الكتابة، فإنني ما أزال عاجزاً عن معرفة الخلل بالنسبة للابن. تربكني الميلودراما، والأصوات المرتفعة غير الضروريّة. أينما حاولتُ من أجل العاطفة والغضب والنار والتأثير يبدو الأمر مزيفاً. سأكتب لآلن كي أخبره أنني أحتاج إلى مزيد من الوقت.

خرج روجر من غرفة النوم.

- "إنها مصابة بفقر الدم"، قال بالطريقة المباشرة الصريحة للأطباء حين يعلنون كل شيء من الكتل اللحمية إلى السرطان.

ـ "ربما أصيبت بملاريا خفيفة، وأكيد أنها أصيبت بعدوى الزحار الأميبي. ربما أصيبتْ به من الأكل في الشارع. لا يُنصح بهذا. إنه غير صحي، كما تعلم. إن المنيهوت لا يمتلك أية قيمة غذائية. إنه حشو، فيه الكثير من النشاء. تستطيع أن تشعر به في البطن ولكنه لا يفعل أيَّ شيء أكثر من إرضاء وخزات الجوع المباشرة. يُعْتَقد أنه يحتوي أيضاً على أثر من السيانيد".

قلتُ: "أعتقد أن هناك شيئاً ملائماً في هذا".

بدتْ فكرة أن الطعام الأساسي للكونغوليين السود سامّ ملائمة جداً ولكنّ روجر ليس رجلاً تمتلك المفارقات والاستعارات الكثير من المعنى بالنسبة له.

مرر طرف إصبعه على طول شعر شاربه الزنجبيليّ اللون.

ـ "يجب أن تنتبه أكثر إلى غذائها. اجعلْها تتناول الكثير من البروتين والخضار والفاكهة الطازجة. تركتُ بعض الفيتامينات وحبوب الحديد. يجب أن تجعلها تتناولها".

ـ "سأفعل".

ـ "تركتُ أيضاً دواء لمشاكل البطن. أخذتُ عيّنات دم وعيّنات أخرى ورتبت موعداً في العيادة في غومبي. في غضون ذلك أبْقِها في الفراش. إنها تحتاج إلى الراحة والعناية".

سألتهُ عن شعرها. شعرتُ بالحرج من فعل هذا، شعرتُ بالحرج على إنيس، أكثر مما لو كنا نناقش حركاتها. عاهرة صلعاء. رنّتْ إهانة الرجل الضخم الجثة في رأسي.

أقرّ روجر: "إنه رقيق قليلاً. أحياناً تفقد النساء الشعر. هذا مرتبط أحياناً بالحالة العصبية وهو مؤقت. ستساعدها الحمية".

سرتُ معه إلى الباب.

سألته: "ما رأيك بالأخبار؟"

تنهّد: "حين أتيت سنة 1949 كانت الحياة رائعة. كانت أفضل من أي شيء يمكن أن يحصل عليه شاب أعزب في إنكلترة. كانت أوضاع السود في المجمل معقولة بشكل مريح. ولكن بدأ كل شيء ينحدر. بنتْ شركة يونيليفر وشركة يونيون للتعدين منازل رائعة في الحقيقة لعمالهما ـ أعني رائعة بالمعايير الأفريقية: مياه جارية، كهرباء وهلمّجرا. إن المشكلة هي أن كثيراً من البلجيكيين ـ المستوطنون الصغار ـ ليسوا أشخاصاً ظريفين أو متعلمين. أعتقد أنهم ارتكبوا أموراً كثيرة كريهة لإثارة السود. أشك إن كنتُ سأبقى هنا فترة أطول".

قال بعد استدراك: "لو كنتُ محلّك، لفكّرتُ بالرحيل أيضاً. إن ما رأيته اليوم هو إشارة إلى الأشياء القادمة".

سألته كم يجب أن أدفع له لكنّه لم يسمعني.

دخلتُ لأرى إنيس. كانت دائخة. جلستُ على السرير.

ـ "هل ستتّصل بستايب؟ يجب أن تعرف ماذا جرى لأوغوست".

انحنيتُ وقبّلتُها على جبينها وقلتُ لها إنني اتصلت بستايب.

قلت: "بما أننا صرنا نعرف أن ستايب كان مصيباً حيال الاستقلال فما رأيك الآن بحافزه لمنحي تلك القصة؟"

لم تقل أي شيء.

مزحتُ معها: "لن تعترفي أنك أخطأت فهمه؟"

ـ "لا أعرف ماذا كان باعثه، سوى أنه لم يكن شريفاً".

وضعتُ أصابعي إلى جانب وجهها.

قلت لها: "تعرفين أنني أحبك".

شعرتُ بأنني قادر على المجازفة بهذا لأننا كنا معاً ثانية؛ في الشارع بدا الأمر وكأنّ هناك خطأ بيننا.

ضغطتْ خدّها على يدي، ولكنها لم تستجب بخلاف ذلك. عيناها مغمضتان. ثمة أمر حيال إنيس ـ إنها لا تكذب أبداً، ليس حتى كي تراعي شعور أحدهم. إنها صادقة بطريقة غير لبقة. إن صمتها الآن يهدف إلى تجنب كذبة.

قلت ببطء: "قال روجر إننا يجب أن نفكر بالرحيل. ما رأيك؟"

أعلنت بعد لحظة: "روجر مذعور كمثل جميع الأطباء".

ـ ليس هناك مستقبل.

ـ "بالطبع".

ـ الأطباء مذعورون. هذا كل ما في الأمر. تتجنب المعاني الضمنية الأخرى.

ـ "على أي حال، كيف أستطيع المغادرة الآن، مع مجيء الاستقلال؟"

هذه أزمنة مسرعة؛ يجب ألا تُترك في الخلف.

* * *

الفصل السادس عشر

أخرجَ مرضُها أفضلَ ما فيَّ، أو القليل الموجود الذي يمكن أن أزعم أنه الأفضل. أحبُّ كونها مريضة، هذه هي الحقيقة؛ إن ضعفها يثير الأخيلة الفروسية التي كمنتْ فيَّ منذ اليوم الذي رأيتُ فيه أبي يرفع يده الغاضبة، ورأيتُ أمي ترتجف.

ثمة المزيد في هذا. استُعيدَ شيئاً ما، ببطء، وبشكل متفاوت. أشعر أحياناً أن الأمور كانت كما بعد أن نمارس الحب. في تلك اللحظات ـ إذا عمل الأمر، إذا قمتُ بالأمر بشكل جيد ـ كانت هذه المرأة المتداعية تهدأ بشكل مؤقت، وفي ذلك الهدوء أستطيع أن ألمح مكاناً لنفسي. كان هذا يحدث حين أشعر بشكل أكبر بحاجتي إليها، وحاجتها إليّ. والآن هناك حاجة مرة أخرى، لدى الطرفين. على الأقل أفكر هكذا. آمل هذا.

في الصباح أخرج لإحضار الصحف. فمنذ إعلان بروكسل ظهرت دزينة من الجرائد والمجلات وصحف أنباء الأحزاب. أشتري عدداً مختاراً منها لإنيس، وكذلك كوريير دو أفريك، لو أفينير، أكتشواليتي أفريكين وأية صحف أجنبية أستطيع العثور عليها. كانت تكلّفنا ثروة. أعود إلى الشقة وأعدّ القهوة لنفسي وشاي الليمون الخفيف لها. أجلس على السرير وأقرأ العناوين بصوت مرتفع. تختار القصص التي تريد سماعها. تتعلق كلّها تقريباً بالحملة الانتخابية التي بدأت في اللحظة التي نزل فيها لومومبا والمبعوثون الآخرون من الطائرة القادمة من بروكسل. كنت مطّلعاً على الأحزاب السياسية الأكبر والجمعيات القبلية: الحركة الوطنية الكونغولية الخاصة

بلومومبا، أباكو الخاصة بكاسافوبو، وكوناكات الخاصة بتشومبي ـ ولكنّ أحزاباً جديدة تظهر تقريباً كلّ يوم، وكذلك الائتلافات والكارتلات والفيدراليات والتحالفات. هذه تتبدّل، إذا قلنا أقل شيء: فبعد أن يُعلن عنها في تصريحات مقدّسة من الأخوّة الأبدية في عدد من صحيفة جديدة، تُحلّ فيما بعد في لغة انتهاك منحطّ واتهامات كبيرة بالخيانة. هناك الكثير من الأصوات الفوضوية والصاخبة، والكثير من الأسماء، والاختصارات، الأسماء بالأحرف الأولى: بي إس إي، سيريا، آر بي، بي بي، ريكو، ميدريكو، لوكا، بونا، آ ردي إل كي، أونيمو، كوكا، أبازي، كارتل م يو بي، أونبافي، إم إس إم، بالوباكات. هذا إذا لم نذكر الحزب الوطني التقدمي. كانت إنيس تدعوه حزب الزنوج القابض، ذلك أن أحرف كلماته الأولى هي المفضلة للبلجيكيين وصلاته مع خزائن الإدارة ليست سرّاً. إن النقود ـ مصادرها والقنوات التي تتدفق فيها ـ هي موضوع تأمل لانهائي وهجوم قاس.

غضبتْ من أخبار صحيفة إنفوركونغو، الناطقة باسم الحكومة.

صاحتْ محتجة: "انظرْ إلى هذا: إن الخطأ الوحيد الذي من المحتمل أن البلجيكيين يرتكبونه هو توقع الاعتدال والحسّ العام من القادة المعيّنين ذاتياً".

مزحتُ معها قارئاً التعبيرات الأكثر سخافة التي في صحيفة اندبندانس وصحيفة الحركة الوطنية الكونغولية:

ـ "باتريس لومومبا، أنت الرجل الذي نحتاج إليه، أنت أملنا وأمل المستقبل..."

ـ "اخرس"، قالت، غاضبة وهي تحاول نزع الصحيفة من يدي.

ـ "كلا، اسمعي ـ إنها تتحسّن. شهيد الحرية، ابن وطننا، رمز

الحريــة، حــامي حقــوق أســلافنا، الجنــدي الــشجاع، دع أعــداءك المتألمين يراقبون انتصارك ومجدنا".

أمسكت الصحيفة وقذفتْها إلى أبعد زاوية في الغرفة.

قالت موبّخةً: "من السهل أن نــسخر، ولكــنّ هنــاك أمــوراً مهمــة تحدث الآن".

ـ "ربما، إنّ لغة كهذه تجعل من الصعب النظر بجدية إلى الأشياء المهمة".

ـ "ربما بالنسبة لك. ولكن حين تُفكّر بما ارتُكبَ، بكل الاضطهاد والبؤس، فإن كلمات كهذه حتمية. أي شيء أقلّ من هذا سيكون إهانة للناس الذين عانوا".

أخطأت في لفظ كلمة معاناة بالإنكليزية. هناك دومـاً الكـثير مــن المعاناة في قاموس إنيس. تذكرني أن هذا الشعب كان بلا حقـوق منـذ وصول المستعمرين الأوائل ولن تُستعاد حقوقهم حتى يتـولّى لومومبـا السلطة.

ـ "شهيد الحرية؟ ابن وطننا؟"

ـ "يوماً ما ستُجبر أنت أيضاً على أن تنظر إلى هذا بجدية. لن تنجو".

* * *

في بداية الأصائل كنت أجلس علـى السرير وأقـرأ روايـات لهـا بدلاً من الذهاب إلى الكوليبري.

"لا يكون موجوداً حين يتحدث. إن هذا تقني جداً" ــ شـكـتْ في منتصف الطريق أثناء قراءة رواية التربية العاطفية، الرواية التي أعـارني إياها ستايب ـ "إذا لم يكن متأثراً، لماذا يجب أن أكون هكذا؟"

أصغتْ بالنوع نفسه من فقدان الصبر إلى روايتي سالامبو وسينت أنتوني.

قلتُ: "استرخي فحسب. أصغي إلى الوصف، تخيّلي الصور في رأسك. كمثل مهندس معماري يصمم قصراً رسم خططه من أجل مستقبله، مليء بالأشياء الأنيقة والرائعة، مرتفعاً إلى السماوات؛ وغائصاً في تأمل مجموعة غنية كهذه فقد إحساسه بالعالم الخارجي".

"كيف يمكن لأي شخص أن يفقد إحساسه بالعالم الخارجي؟"

لا يناسب الواقعيون ذوقها. تفضّل استعارات ييتس، ومبالغاته ورموزه وتعابيره الجمالية المريعة، وتشاطره احتقاره للأشخاص المحدّقين ومختلسي النظر وبائعي البضائع المسروقة. كان يجب أن أتذكر قبل أن أختار فلوبير أن اللغة بالنسبة لها لا تتعلق بالدقة، ولا تتعلق بالاحتمال أو بالوصف الكامل للشخص والشيء والزمن، بل فسيفساء مشتعلة من الصور والغرائز، من الأشياء نصف الحقيقية التي يُشعر بها بعمق. ففي عالمها لا يمكن الفصل في الفكر بين الواقع والخيال والعاطفة. لا تقيّدها التفاصيل أبداً.

صنعنا، بطريقة ما، بعض الأرض الضائعة. ليس لديّ أوهام. لم يُحلّ أي شيء. لا أحد منا متأكد أين نقف مع الآخر أو عن ماذا يتكشف المستقبل. في الوقت الحالي هناك سياق مختلف أكثر هدوءاً نحن فيه معاً فحسب.

* * *

أحياناً حين أعرف أنها نائمة أترك المكتب وأذهب كي أقف في ممر غرفة النوم. أحبُّ أن أنظر إليها. هناك أوقات أستطيع أن أقنع نفسي فيها أن كلَّ ما عليّ فعله هو أن أندفع إلى السرير، أركعُ على

ركبتيَّ وأتوسّل إليها أن تُصلح كلَّ شيء. سيكون هذا سخيفاً جداً. كان والدي رجل تصرّفات متهورة وشفّافة، كانت تُؤدّى على نحو متقطّع تعويضاً عن تقصير أكبر وأكثر جوهرية. فبعد اندفاع لمزاجه وإيلامه لأمي كان يهديها الأزهار التي لا يستطع أن يشتريها والتي لم تكن تريدها. حلمَ دوماً بأن يكون جيداً وصعّد فشله إلى محاولات مكثّفة للخروج من حالات الفشل عبر تقديم المزيد من الأزهار وقِطَع المجوهرات ودعوات العشاء، ولم تكن هذه الأمور مكلفة، ولكنها كانت تكلّفه أكثر مما يملك من النقود. اعتدتُ أن أشاهده يقف أمام أمي كولد صغير منكّس الرأس ينتظر أن يُقبَّل، أن يُربت على شعره ويُلعب به، وكان معظم الانتظار من أجل صفح يعرف أن أمي لن تضنّ به. كانت لطيفة وقد قطع لها وعوداً من أجل المستقبل. لا أستطيع القول إنني كنتُ أعرف أبي جيداً ولكنني رأيت ما يكفي منه كي أشمئز من هذا التودّد عبر التسلل والخداع والمكر. بدا هذا رخيصاً لي آنذاك كما يبدو الآن؛ لكنني منذهل من أنه يبدو أنه يعمل.

أزهار والدي، أزهار والدي...

... وكلماتي. أية قيمة لكلماتي؟ فمنذ بداية شبابي وأنا أعيش وراء الأقنعة، ومع كلّ قناع مجموعة جديدة من الكلمات كي أُطْربَ أذنيْ جمهوري الجديد، ومثل مارغريت التي نَسِيتْ طول قامتها، نسيتُ ما هي كلماتي الحقيقية. عشتُ غريباً عن نفسي، وفي شك مستمر بأصالتي العاطفية؛ وعلى الرغم من أنني لم أكن وحيداً أبداً مع نفسي، بما أنني أراقب دوماً الشخصية التي تلعب دوري في المشهد، فإنه لم تكن هناك إمكانية للتلقائية.

وهكذا تركتُها تواصلُ نومها دون أن أقول أيَّ شيء.

* * *

كنتُ أكتب إلى الطاولة في بعد ظهر أحد الأيام حين نادتني.

سألتها من الباب: "هل تريدين شيئاً؟"

بدت ضعيفة.

سألتها: "ما هو؟"

ارتفعت آمالي. لا توجد فرصة لأي شيء بيننا حين تكون هادئة، ملتهية بالتزاماتها. هناك فتحات في حزنها.

قالت منهكة: "لا أعرف".

تبدو علامات التحسّن عليها. عيناها على الأقل صافيتان، رغم أن وجهها ما يزال مشدوداً.

قالت: "تعال إلى هنا".

ـ "هل تريدين أن أقرأ لك؟" قلت، جالساً على سريرها.

قالت: "لا، هل أنت مشغول؟"

ـ "لا بأس".

ـ "هل أنت متأكد؟ لا أريد التدخل في عملك".

ـ "أي عمل، يا إنيس؟ لقد تدخَّلْتِ في حياتي".

نهضتْ وقبّلتني.

بيدي، بيدي اليمنى داعبْتُها. طلبتْ منّي هامسةً أن أتعرى. نكسّتُ رأسي، شعرتُ أنني غاضب وغير متأكد. لم نمارس الحب لأسابيع كثيرة. ولم تكن محاولتنا الأخيرة ناجحة.

قالت بلطف: "هيا".

نفّذتُ ما قالتْهُ ورفعتُ الغطاء. كان السرير مشبعاً برائحتها. لم

تكن أبداً ذات حساسية شديدة، ولم تكن هناك قاعدة حيال الاستحمام كلّ يوم. استلقيتُ قربها وضغطتُ أنفي في حموضة إبطها. تنفّستُ بعمق وقبّلتُ طرفَ ثديها. قالتْ أشياء جميلة لي: أنني صبور، ليس في السرير فحسب، وأنني رجل جيد، ولطيف. هذا صحيح، أستطيع أن أكون لطيفاً أحياناً. لن أضخّم الأمر أكثر من ذلك. ولكن في تلك اللحظة لم أرغب بمصارعة أحكامها؛ أردتُ أن أشعر بأنني على ما يرام حيال نفسي.

همسْتُ: "قولي لي المزيد".

بدلاً من أن تتحدث دفعتني على ظهري.

قلتُ: "هل أنتِ متأكدة من أنك قوية بما يكفي؟"

ـ "أنا قوية جداً".

تقدّمتْ كي تمسكَ بي. ابتسم كلانا. كانت هذه إحدى نكاتنا الجنسية المشتركة. مرة، حالاً بعد أن أصبحنا حبيبين، قدتُ يدها إلى عضوي. تردّدتْ مما أدهشني لأنها كانت تستسلم في جميع الأمور الأخرى، فشعرت بالخجل قليلاً، وكأنه تم تأديبي من أجل شيء غير لائق، من أجل الجشع أو الانحراف. ولكنها شرحت: "لستُ جيدة في هذا، لم أعرف أبداً كيف أفعله بشكل جيد". في أنانية العاشق الممتعة همستُ لها إنني سأعلّمها. ولكنني لم أفعل أبداً: تشكّلت النماذج، استقرّ الوعي الذاتي، لم تصل اللحظة أبداً مرة أخرى.

لم أتواطأ في الحال مع ما كانت تفعله. لم أسترخِ خشية أن تفقد الثقة، وأن تفكر بأن الأمر يستغرق وقتاً طويلاً. ولكنها كانت تواصل وتواصل. عندئذ أغمض عينيّ وأستسلم للأمر. أداعب ظهرها، أخفض يدي إلى خدّيها وأطوّقها وأضمّها بشدّة. أرسل إليها إشارات

صغيرة أن الأمر يعمل بشدّة من بيدي، وبصوتٍ من نَفَسي. تقبّلني فأستجيب.

قلتُ لها: "أريد أن أدخله فيكِ".

هزّتْ رأسها: "أريد أن أفعل هذا لكَ".

تلعق أسناني وشفتي وتحرك فمها إلى صدري. تلعقُ حلمتيَّ، تعضّهما، تنقرهما بيدها المتحررة. أردد اسمها مرة بعد أخرى وأقول: لا تتوقفي، لا تتوقفّي وهي تجعلني أصل إلى الذروة أشعر بحرج مؤقت، بانكشاف وضعف. ولكنها لا تصدر صوت الهديل المزيّف للجنس الذي ليس في وقته أو غير المشبع. أرى أنها مهتاجة عبر ما فعلته ـ حتى أن هذا جعلها تحبني ثانية، وشعرتُ فجأة بأنني كامل وسعيد وواثق.

تستلقي هادئة، يدها تجري على كتفي. بعد وهلة تبدأ بضغط نفسها على فخذي. ترتفع إلى العظم، وواصلة إلى بطني تقربني منها أكثر. أشعر بنخس الشعر بين ساقيها، باحتراق على الجلد الناعم لردفي وخصري. أشعر بالرطوبة والحرارة. كم أحب وصولها إلى الذروة بهذه السهولة.

أشعر بنَفَسها على بطني. نستلقي صامتين إلى أن تقول لي إنها تحبني.

سألتُها: "إلى أين يؤدي هذا؟"

"أنت ... لا أستطيع التفكير بالكلمة بالإنكليزية. في الإيطالية هي متشائم catastrofista . هل توجد هذه الكلمة؟"

ـ "أعرف أنها تُستخدم بمعنى جيولوجي فقط".

ـ "كالعادة! إن الإنكليزية فقيرة دوماً. إن معنى هذه الكلمة أكبر بكثير. إذا كنتَ متشائماً فإنّ هذه ليست مشكلة صغيرة. لا شيء يمكن أن يُحلّ؛ إنها دوماً النهاية. هل تعرف هذا الشخص؟"

ـ "قليلاً".

ـ "أنا أيضاً".

قلت: "ولكن إذا كانت المشكلة كبيرة، إذا كانت لا يمكن حلّها، فإن الشيء الوحيد الذي يجب فعله هو تركها خلفنا".

ـ "أنت متشائم" ـ قالت، واضعة يداً على خدي ـ "ولكن لا يهمني".

تجلس. أنظر إليها من الخلف. فقراتها مرئيّة بوضوح؛ ثمة اعوجاج ضئيل من اليسار إلى اليمين. تغوص مؤخرتها الصغيرة في الفراش وكأنها هُرست أو ضُغطتْ.

قالت: "أشعر بالكآبة".

ـ "بالكآبة؟"

قالتْ وهي تمد يدها إلى الأرض رافعة جريدة: "إنّ السبب هو هذا الشيء الغبي. هنا" ـ قدمت لي طبعة الصباح من صحيفة اندبندانس، ونقرتْ بإصبعها على الصفحة ـ "إنها القرارات الأساسية".

ـ "أنت كئيبة بسبب هذه".

القرارات الأساسية. القرارات الستة عشر التي أُقرّتْ بالإجماع في مؤتمر بروكسل، والتي ستشكّل الأساس لدستور ما بعد الاستقلال والحكومة الكونغولية المستقبلية. فقد اتُّفق عليها بتعبيرات من العاطفة الرفيعة، والوئام والمثالية، النوع الذي يُطلق عادة في نهاية صراعات طويلة ومريرة حين يجد أولئك الذي تُوكل إليهم مهمة التوصل إلى حلّ أنهم يتلقّون أوّل ومعظم المدائح لمؤهلاتهم كرجال دولة،

ولعمق نظرتهم وكرمهم. رأيت صورة صحيفة للومومبا وهو يصافح أيسكينز، رئيس الوزراء البلجيكي، تماماً بعد أن انتهى اجتماع بروكسل. اعتقدت إنيس أنه بدا أنيقاً ومهيباً؛ رأيت الطفل في ساحة المدرسة الذي سُمح له أخيراً باللعب مع الأولاد الكبار. في ذلك الوقت، مُدحتْ القرارات الستة عشر بأنها بداية حقبة جديدة.

"كلا، لستُ مكتئبة، فقط... " ـ تخمد و تهزُّ كتفيها ـ "بل متألمة أيضاً لأنّ باتريس وافق على هذه الأمور".

آه، تحدّثي عنا من فضلك، ليس عن السياسة في هذا المكان العبثي، أي شيء عدا هذا. إن ما هو خطأ فينا لا يمكن أن يُعاد تركيبه بسهولة وبسرعة. سيستغرق أكثر من بعد ظهر في الفراش. تَحَدَّثي عنّا يا إنيس، وعمّا سيكون عليه المستقبل.

تحدثت بدلاً من ذلك عن باتريس. وثق كثيراً بالبلجيكيين، وكمثل المبعوثين الآخرين كان متحمّساً للذهاب إلى بروكسل. ظنّ أنهم عاملوه كندّ، وقابل الوزراء والملك. تلاشتْ جميع حالات سوء الفهم التي كانت في الماضي. كان هو والآخرون فخورين جداً بالفوز بالاستقلال، ولم يفكّروا بالتفاصيل. ألحّتْ أن التفاصيل سيئة جداً.

سألتُ دون حماس: "أهي هكذا؟"

ـ "إن التفاصيل الاقتصادية والمالية مريعة. يظنّ باتريس أنه سيفوز بالانتخابات وسيفوز على الأرجح، ولكنه لن يحظى بالسلطة لأن أصحاب البنوك ورجال الأعمال وشركات التعدين، سيسيطرون على الاقتصاد. إن البلجيكيين لطفاء معه الآن، ولكن هل يظنّ أنّ شركة يونيون للتعدين في كاتانغا وسوسايتي جنرال ستكونان شريكتين له في الكونغو الجديدة، أنهما ستوافقان على منح ثروتهما للشعب؟"

ـ "هل يعتقد؟"

لم تسمع الفراغ في صوتي حتّى الآن.

واصلت كلامها: "ربما. يجب أن أتحدّث إليه. أستطيع أن أشرح له أين أخطأ".

ـ "أنا متأكد أنه سيقدّر هذا".

ـ "نعم".

تبدأ بالانزلاق في السرير، وقد نال منها التعب. أقبّلها بلطف على شفتيها. ترفع يداً. أمسكها.

همستْ: "أنا في غاية السعادة".

ـ "أنا أيضاً".

عانقتني، وشدتني إلى المخدة، وبآخر طاقتها قبّلتني بصخب ولعب: الفتاة الإيطالية مرة ثانية.

قالت: "لا تسهر حتى وقت متأخر".

ـ "لن أسهر".

ـ "جيد. أريدك أن تفعل لي ما فعلتهُ لك".

* * *

أمسكُ بالقمر. من يريد ضوء النهار؟ الرسغان بسرعة في قبضتي، الكاحلان على كتفيّ. أمْسكْني، لا تَدَعني أتنفّس! إنها متكوّرة على نفسها تقريباً، عيناها مغمضتان. تجفل حين أدفع. أتوقّف كي أُصلّي، كي أُحصي، كي أتذكر.

أريد أن أعثر على قصة أرويها لها. ولكنها تعرفني. لا أستطيع أن أؤثر بها بالحكايات عن ماضيَّ والتي أظهر فيها جيداً أو مجروحاً. لا شيء جديداً لدي لها، لا أسرار أسحرها بها الآن. ولكن الليلة لا يهم. الليلة اكتفيت.

* * *

الفصل السابع عشر

جئتُ مع ستايب إلى منزل مونغول كي أقابل لومومبا. كان ستايب يعرف أنه سيكون انتظاراً طويلاً فأراد الرفقة. جلسنا مع أوغوست على مقعد خشن في الساحة. كانت الفراشات تطير دائرة حول المصباح الإعصاري، واليراع يومض في الزوايا المظلمة، وتفوح رائحة لاذعة من الجوّ، رائحة براز الخفافيش والمجارير. دزينة أو ما يقارب ذلك من الشبان ـ حرس ومسؤولون وأبناء عمومة وأخوة ومتطفلون ـ يتبخترون حولنا، الحاشية المألوفة للحركة الوطنية الكونغولية. لا يبدو أن هناك عملاً محدداً لأيّ منهم كي يقوم به. لا يستطيعون القول إن كان لومومبا سيظهر أم لا، أو إذا كان هنا.

وهكذا انتظرنا. تلاشى الجوّ الهادئ من حس الفكاهة الجيد لدى ستايب مؤخراً وحلّ مكانه شيء ما غير تواصليّ. ففي هذه الأيام صار من الأصعب السيطرة على صديقه باتريس. لم يكن يردُّ على المكالمات، أو يتقيّد بالمواعيد. كانت الحملة الانتخابية في أوج اندفاعها، وهناك عذر على الدوام، ولكنّ ستايب لا يُحبّ ذلك. وقد تزامنت مراوغة لومومبا مع تدهور الجوّ السياسي. فبعد بضعة أسابيع من إعلان بروكسل بدا وكأن باتريس يتعاون مع البلجيكيين، الذين بعد أن تخلّوا عن رجلهم الأفريقي المفضّل كاسافوبو، رقّوه بصخب إلى مرتبة الأفريقي الجيّد الجديد. عندئذ، ولأسباب لا أحد يعرفها، بدأت الإهانات. بدأ المستعمرون يدعونه بألقاب منها أنه هتلر آخر؛ لومومبا أفريقي سيء، ليس أفضل من الشيوعيّ غيزنغا الذي كان يتسلى معه الآن. اكتُشف أن كاسافوبو أفريقي جيد في النهاية.

وفي وهج المصباح التفتَ ستايب إلى أوغوست وتحدث بصوت منخفض، بمزيج من اللينغالا والإنكليزية والفرنسية. من المؤثر دوماً مراقبتهما معاً، حتى في هذا الضوء الخفيف. إن الحميمية بينهما هي تلك تتجلّى بين الأخوة، أو ـ إذا لم تكن الفكرة كوميدية ـ بين الشقيقتين. يتواطآن ويتآمران ويقرآن نزوات ونوايا بعضهما بعضاً، ويضحكان سوية على أشياء لا يعتقد الغريبون أو الدخلاء أنها مضحكة. أيّاً كان رأي إنيس به، أيّاً كان ما يفعله ستايب في ليوبولدفيل، فإنه على الأقل جيّد مع أوغوست، ورجل مختلف. يُخرجُ أوغوست فيه شيئاً أكثر خفّة وفتوة وابتهاجاً. يثيره بطريقة لا أستطيع أن أفكّر بها، حول افتقاره للطول والشعر، وحول شربه ولفْظه للأسماء الأفريقية. يبتسم ستايب حيال كلّ هذا. يتجاوز الأمر كونه أكثر من صبر وديّ بسيط حيال كونه أُغيظ، ويتجاوز عدم الرغبة بأن يظهر دفاعياً. يتمتع بالأمر، يتذوّقه. إن أوغوست يأخذه خارج نفسه بطريقة لا أستطيع القيام بها.

بالمقابل ستايب صديق جيّد. رافقناه أنا ودو شوت في الليلة التي ذهبَ فيها إلى مخفر الشرطة في جادة ليبرز للمطالبة بإطلاق سراح أوغوست بعد المظاهرة. جادلَ وهدَّد إلى أن أخرج السجانون سجينهم. كان أوغوست ذليلاً وخائفاً. تفحّصه ستايب بصمت غاضب، معتبراً كل جرح وكدمة فيه كأنها فيه. احمرّ وجهه العريض، وكانت شفتاه شاحبتين ومزمومتين. فكّ حارس فرنسي قيد أوغوست ودفعه إلى الأمام وللحظة كنتُ متأكداً أن ستايب سينفجر. وضعتُ يداً كابحة على ذراعه ولكنّه أبعدني بفظاظة. سيطر نوعاً ما على غضبه وذهب بدلاً من ذلك كي يعانق أوغوست ويقول له إنه آمن الآن وسيكون دوماً هكذا. تركتهما خارج المخفر وعدتُ إلى إنيس، ولكنّ دو شوت أخبرني فيما بعد أن ستايب قاد أوغوست إلى شقته الخاصة

حيث استحمّ وطهّر جراحه. ثم أخذه إلى مطعم زو، أجْلَسهُ بشكلٍ متباه، نظر إلى البلجيكيين وطلب أغلى شمبانيا في المطعم. أخبرني أوغوست أن ستايب يمنح النقود لأسرته، وأنه دفع فاتورة العلاج الطبي لجدته، ووضعَ أحد أخوته في مدرسة.

ستايب رجل صاخب وهادئ.

ولكنّ شيئاً تغيّر بينهما. أستطيع أن أراه الآن فيما الخفافيش تدور في ممراتها المجنونة حول منزل مونغول والشباب الضجرون يهمسون ويقهقهون. كان لإنيس دور في الأمر على الرغم من أن ستايب لم يقل لي أيّ شيء، أعرف أنه ليس مسروراً مطلقاً من تدخّلها.

* * *

لاحظتُ في البداية أن شيئاً ما كان يجري حين ذهبنا إلى مؤتمر للحركة الوطنية الكونغولية في ليوبولدفيل، وهو واحد من سلسلة مؤتمرات عُقدت في أنحاء البلاد مع اقتراب الانتخابات. تتوّجَ الحدثُ بمسيرة مضاءة بالمشاعل في ملعب ماتونغ لكرة القدم. لمعَ العرقُ على الوجوه كلّها، وكانت المعنويات مرتفعة وأحيا الكورس المزدهر للاستقلال تلك الليلة. ألقى لومومبا الخطاب الأكثر تأثيراً الذي سبق أن سمعته. كنتُ قد سمعتُ الكثير من خطاباته من قبل، ذلك أنني ذهبت كمراسل لصحيفة الأوبزرفر إلى المسيرات في لولوابورغ وكوكويلهاتفيل وإنينونغو وستانليفيل. حتى في تلك الليلة في ماتونغ اعتقدتُ أن لومومبا ساحر. كنتُ أعرف أن هناك سحراً ولكنني أعرف أن هناك خداعاً وراءه. كان هذا الأداء على أي حال خاصاً. جعلَ الشَعْر في قفا عنقي ينتصب؛ وقبّبَ شَعْرَ ذراعيَّ. كانت هناك لحظات وجدتُ نفسي فيها تحت تأثير الموجات العاطفية التي أرسلها كي تنحطم علينا. كان عليّ أن أُجبر نفسي على الانسحاب، والتوقّف

والتفكير والإصغاء إلى كلماته، الكلمات المألوفة للسياسي، والمظالم المعتادة، والمبالغات والأشياء المبتذلة والتعميمات والوعود. كان عليّ أن أقاتل، أن أبذل جهداً إرادياً كي أتماسك.

صادفتُ دو شوت وولديه. لم يَثْبتوا بل كانوا يُدْفعون؛ كان دو شوت يطفح بالعاطفة. كان الناس متواضعين، وكان العالم جيداً ـ وفي الحال سيكون أفضل. إنه دوماً يرى ما هو أفضل في الجميع.

حيّاني الولدان جولي وكريستوف بقليل من الخجل ولكن بدون الارتباك المعذِّب لبعض الصغار.

قال دوشوت: "خطاب رائع، رائع، أليس كذلك؟"

كان هذا وقتاً هائلاً في الحقيقة، هذه هي الفرصة الأولى التي سنحتْ للناس في هذه الأرض المجزأة للعثور على طريقة كي يعيشوا سوية في مساواة وسلام. إنها فرصتنا الأولى للتسوية".

ـ "هل تعتقد أن لومومبا مهتم بالتسوية؟"

ـ "آه، نعم، بدون شك. لا تصغي للناس الذين يقولون إن باتريس شيوعيّ ومتطرف. إنّه ليس عنصرياً أيضاً. إنه يريد فعلاً أن يكون البيض جزءاً من الكونغو الجديدة. إنه رجل رائع وشريف".

قالت جولي بخجل: "اعتاد باتريس أن يأتي إلى منزلنا".

سألتُها: "وما رأيكِ به؟"

أجابتْ وهي تُحكم إمساكها بذراع والدها حين كان الحشد المغادر يتحرك إلى هذه الجهة أو تلك: "إنه ظريف جداً".

قال كريستوف: "لعبنا كرة القدم معه. إنه جيد جداً في كرة القدم".

ابتسم دو شوت لولده. بشرةُ الفتى صافية وشعرهُ الجميل ممشّط بأناقة. له أذنان صغيرتان مائلتان.

قال دوشوت: "سيتطلّب الأمر الكثير من الجهد والإرادة الطيبة، ولكننا نستطيع جعله يعمل إذا ركزنا عليه بعقولنا".

قال إنه سيدعوني أنا وإنيس إلى العشاء قريباً. ودّعني ووضع ذراعيه على كتفي ولَديْه. راقبتُهم وهم يشقّون طريقهم عبر الحشد المتدفق. أبٍ عجوز طيب مع طفلين جميلين يأخذان بذراعيه. أخبرتْني إنيس في الصباح أنها تريد إنجاب طفل. كان هذا الكلام قاسياً ومشوشاً بشكل عميق لي، فقد تركزت ردود فعلي في عضوي الذي انتصب بقوّة وفوراً بحيث آلمني. حين تحركتُ شعرتُ بالرطوبة على فخذي. اكتشفتْ إنيس إثارتي لأنها كانت دائماً متناغمة مع حالتي الجنسية. ضحكتْ وقالت إن هذا طبيعيّ بالمعنى البيولوجي.

إذا كان هناك طفل، إمكانية لإنجاب الأطفال...؟

وجدتُ أنا وستايب إنيس تتحدث مع أوغوست. كان هناك تواطؤ في تصرفهما، شيء ما إقصائي، امتلكتُ أنا وستايب أسباباً مختلفة كي نكرهه. نظرتْ إليّ إنيس نظرة قاسية بخاصة. كانت توبيخاً كوني مع ستايب. كان أوغوست يرتدي نظارة بإطار أسود ثقيل من النوع الذي يفضّله لومومبا. لم أعرف أنه يرتدي نظارة فعلّقتُ عليها وقلتُ إنها جميلة. ابتسم من إطرائي.

لم يضيّع ستايب الوقت على الدعابات. فقد تخلّى منذ وقت طويل عن التدخل في إنيس.

قال: "هيا، يا أوغوست. لنحضر السيارة".

حينئذ حدث شيء فائق للعادة. تردَّد أوغوست الذي كان يقف مع إنيس. وقف هناك ونظر إلى ربّ عمله وصديقه وناصحه وسيده ومموّله لكنه لم يتحرك. كانت هذه هي المرة الأولى التي أشهد فيها شيئاً كهذا بينهما. في تلك اللحظة تذكّرتُ شيئاً قاله لي ستايب في ظهر أحد الأيام ونحن نشرب كأساً في الكوليبري.

ـ "هل تعرف مفهوم إطالة الفتوّة. إنه مصطلح ذو علاقة بعلم الحيوان".

ـ "لا أظن".

ـ "إنه عن النمو المتوقف، يمكنك القول، بالمعنى النفسي والعاطفي. إن في الكلب إطالة للخصائص الفتيّة بمعنى أنه عبر آلاف الأعوام هجّناه من حيوان بري إلى شيء أكثر ألفة في فنائنا. فعلنا هذا مُسْتبقين الخصائص اليافعة للخضوع والخنوع في الراشد. لهذا السبب يقوم كلبك المهجّن بلعق يدك بدلاً من أن ينهشهما كما يفعل سَلَفهُ الذئب".

قلتُ: "إن العلم جيد دوماً من أجل الاستعارات، على الرغم من أنها يمكن أن تكون أحياناً واضحة قليلاً".

أجاب: "نعم، ولكن ليس أقل صحة في هذا الصدد".

في ملعب مونتاغ، أمام أوغوست المتردد، تساءلتُ إن كان ستايب يفكّر بإطالة الفتوّة. لا توجد كمية من الحميمية يمكن أن تخفي التحيّز الواضح في علاقتهما. بدا ستايب كأنه الشخص الوحيد الذي لم يستطع أن يراه. نظرَ إلى سائقه وحاول فهم المعاني الضمنية. عرفتُ أنه كان يفكّر بأن إنيس هي وراء هذا التمرد الخفيف فشعرتُ بالخطر من هذا.

قال ستايب ببطء: "هل أنت آتٍ يا أوغوست؟"

كانت الكلماتُ مليئة بالمعنى، وكذلك بالعاطفة. لم يكن هذا مجرد تمرد موظّف، وإنما خيانة صديق أيضاً. كان غضب ستايب البارد يخفي ألماً عميقاً.

كان وجه إنيس مستعداً، فقد كانتْ جاهزة للقتال. ولكنَّ القتال لم يحدث في تلك الليلة. ظننتُ أن أوغوست ربما شاهد الألم خلف

عَينيْ ستايب، حتى لو لم تـره إنـيس. ابتـسم فجـأة ابتـسامته الخاصـة الـضخمة الخاصـة بالمراعـاة وعـدم الاعتـداء. لم يكـن جـاهزاً بعـد للعض، ولكنني عرفتُ حينئذ أنه تعب من لعْق الأيدي.

حين ذهبا، سألتُ إنيس إن كانت مستعدة للـذهاب إلى المـنزل. لم أرد أن أتحدث عن أوغوست وستايب، ذلـك أنـني كنـتُ أعـرف مزاجها. بدتْ ضعيفة ومنهكة. استأنفتْ بالطبع جدول أعمالهـا حالمـا نهضتْ من سرير المرض.

ـ "كلا، لدي عمل أقوم به"، قالت فجأة.

ـ "أي عمل؟ إنه بعد منتصف الليل".

نظرتْ إليّ بحدة.

ـ "لن أناقش هذا العمل معك".

ـ "ما الذي تتحدثين عنه؟"

ـ "كي لا تخبر صديقك الجاسوس عنه".

ـ "إنيس"، قلتُ بلطف واضعاً يداً رقيقة على كتفها.

كان آخر شيء أريده هو الجدل، ولكنها ابتعـدتْ عـني، خـارج مدى وصولي.

طلبتُ منها مغتاظاً: "أي عمل؟"

بدأتْ بشكل متعمّد: "طُلـبَ مـني أن أقـوم بعمـل مـا لبـاتريس، وقلتُ إنني سأقوم به، وسأفعل ذلك".

ـ "حسناً، قومي بعملك. متى ستعودين إلى المنزل؟"

ـ "لا أعرف".

قالت هذا بعدوانية.

قلت: "لا أفهم لماذا أنتِ غاضبة هكذا".

- "أنا غاضبة بسبب ستايب. لأنه يجب ألا تكون معه".

- "إنه صديقي. لماذا يجب ألا أكون معه؟"

- "أنت تفكّر بنفسك فحسب، كما هي العادة. إن الأمر يتعلق بك دوماً."

كان في يدي اليمني صحيفة ملفوفة. رفعتُها دون تفكير في وجهها. شعرتُ بأنني متوحش وبالألم، وهذه المرة لن أكون ضعيفاً ومتوسّلاً. إن كبريائي لن تسمح بذلك. كنت سأقول لها مرة واحدة وإلى الأبد إنها يمكن أن تكون أحياناً عاهرة سخيفة وينبغي أن توقف كل هذا الهراء. أبعدتْ وجهها، مطلقة صرخة خفيفة، ولكنني حرفت يدي في الوقت المناسب. لم أضربْها.

- "آه إنيس أنا آسف".

نظرتْ إلي.

كرّرتُ: "أنا آسف".

- "لدي عمل أقوم به".

سألتُها: "هل هناك شخص آخر، يا إنيس؟"

"كلا"، أجابت، غير أنه كان هناك شيء ما في صوتها لم يُقنعني. لم يكن تردّداً ـ لم يكن كذلك، لم تتردّد مطلقاً؛ كان مزيداً من الضجر الذي قالت به هذا.

- "هل هذه هي الحقيقة؟"

- "نعم، إنها الحقيقة".

لم أشعر بأنني مقتنع للمرة الثانية، بسبب غياب الجهد الذي تضعه في جوابها أيضاً.

قالت وهي تنطلق: "لا أعرف في أيّ وقت سأعود".

ناديتها: "هل ستتشاجر من أجل ستايب؟ هل ستخسرين الأرضية التي صنعْناها بسببه؟"

استدارتْ كي تواجهني.

قالت بحدة: "متى سترى ما الذي يفعله؟ متى ستفهم ما يحدث حولك؟"

كنت أفضّل لو سمعتُها تشجبني كضاربٍ للنساء بدلاً من هذا. على الأقل سيكون الأمر عندئذ عنّا. استدارتْ وسارت بعيداً كي تقوم بعملها لباتريس.

منذ ذلك الوقت صارت الأمور باردة بيننا. انخرطتْ مع قومها، وقضيتها، كما لم يحدث من قبل، كانت تمكث خارج المنزل كل الساعات، وتمضي من الوقت في مقر الحركة الوطنية الكونغولية ومنزل لومومبا أكثر مما تمضيه في مكتبها. وكانت تخرج مع سميل بشكل متكرر.

* * *

واصلتْ الخفافيش طيرانها المتعرّج. ما يزال الشبان ضجرين وفاترين، يروحون ويجيئون، متمتمين لبعضهم بعضاً بلامبالاة. خنفساء ضخمة طائرة، من النوع البرتقاليّ اللون الذي يأتي من النهر حطّتْ على شعري. نفضتُها مقشعراً فقهقهَ الشبان بين أنفسهم. شعرتُ بالنعاس. غداً عليَّ أن أكتب مقالة طويلة للصحيفة. ينبغي أن أعود إلى العمل على روايتي أيضاً. فقد وصلتُ فيها إلى الذروة. عثر الابن على

والده ولكنه لم يعثرْ على نفسه بعد، ولم أجد طريقة حتى الآن لجعل شعوره بالفشل واليأس يبدو حقيقياً للقارئ. سيكون عليّ أن أكتب ثانية لآلن، سيكون هناك تأخير في إرسالها مرة أخرى.

قلتُ لستايب إنني سأذهب إلى المنزل. كان صامتاً وشارداً في الساعة الأخيرة. لم يكن هناك أيّ من المزاح المعتاد بينه وبين أوغوست، فقد تلاشى حديثهما المتوتّر. قال شيئاً ما باللينغالا لأحد الرجال الذين يتسكّعون حولنا. إن اللينغالا لغة تشبه اللغة العسكرية ودوماً تبدو مفاجئة. بدتْ هكذا أكثر اليوم حين لفظها ستايب. كنتُ أعرف ما يكفي كي أفهم أنه أخبرهم أن يُذكّروا باتريس أنه هنا.

نهض أحد الرجال بكسل على قدميه، أمضي بعض الوقت وهو يتمدّد ويتثاءب ويتحدث مع أحد أصدقائه. ثم دخل.

لم يعد.

بعد خمس عشرة دقيقة أو ما يعادل ذلك خرج رجل من المنزل. إنه سميل. بدا مندهشاً من رؤيتنا.

ـ "مرحباً جيمس، ما الذي تفعله هنا؟"

ـ "إن مارك ينتظر كي يرى لومومبا".

ـ "حقاً؟"، قال سميل.

إن ستايب لا يحب سميل لأنّ لتاجر الألماس الشيوعيّ تأثيراً سيئاً على لومومبا مثل تأثير إنيس وغيزنغا.

قال سميل، محرجاً قليلاً: "حسناً، إن المسألة هي أن باتريس ليس هنا. فقد رحل".

قال ستايب: "ما الذي تعنيه بأنه رحل؟"

- "كان هنا ولكنه رحل منذ ساعتين".

لم يتفوّه ستايب بأية كلمة. لم يتحرك.

قال سميل قارئاً مزاج ستايب ومحاولاً تهدئته: "لا يملك باتريس لحظة هذه الأيام. لديه عمله في كلية مكتب المفوضين. وحين يأتي إلى المنزل هناك دوماً من ثلاثين إلى أربعين شخصاً ينتظرون رؤيته. ينام في حوالي الثالثة إذا كان محظوظاً، وعليه أن ينهض فجراً من أجل مزيد من المواعيد قبل أن يذهب إلى المكتب ويبدأ الشيء كلّه مرة ثانية".

لم يهدأ ستايب.

ودّعني أنا وستايب وقال لي: "سلِّم لي على إنيس".

"يجبِ أن تنقل أنت سلامي إليها. تراها أكثر مني"، قلتُ للرجل الذي تفضّل إنيس رفقته هذه الأيام على ما يبدو.

ابتسم برسمية، وانحنى متودداً لستايب ثم رحل.

في السيارة بقيَ ستايب صامتاً إلى أن وصلنا إلى شارع الشقة. حين ودّعتُهُ قال لي إنه يفكّر برحلة إلى كاتانغا كي يزور هاوثهوفد.

بعد بضعة أيام اتصل مقترحاً أن أذهب معه. أكّد لي أنَّ ما سيقوله هاوثهوفد سيثير اهتمامي. سألتهُ إن كان قد نجح في رؤية لومومبا. قال لي إنه لم ينجح في نبرة حاولتْ أن توصل أنه لم يتوقع ذلك وأنه لم يكن مهماً أنه لم يره. عرفتُ في الحال أن إعادة تنظيم مهمة تتم. عُرضت النصيحة ورُفضت. لن يدع ستايب هذا يمرّ.

* * *

الفصل الثامن عشر

على الرغم من أن أوغوست معنا، فإن ستايب يقود السيارة. يبدو أنه يفكر بأن ما يفعله نوع من العقاب لأوغوست؛ وعلى الرغم من ذلك فإنّ سائقه المتمدد في المقعد الخلفي، الذي يلعب بنظارته الجديدة بأصابعه، كان يتقبّل ذلك بهدوء واستسهال. كان أوغوست يعدّل النظارة باستمرار ويفحص انعكاسها على النافذة حين يظنّ أننا لا ننظر.

عبرنا عَرْضاً لانهائياً من الملصقات، واللوحات والشعارات المدهونة على الحيطان ونحن في طريقنا خارج لويبولدفيل قرب كيكويت.

كرّرها ستايب بصوت ضجر: "صوّتوا للحركة الوطنية الكونغولية، صوّتوا لأباكو، صوّتوا لبونا، صوّتوا لريداكو... هل تعرفون أن هناك أكثر من ثلاثين حزباً يتنافسون في هذه الانتخابات؟ يجب على أحدهم أن يخبر الناس هنا عن فوائد نظام الحزبين. على الأقل سيخفف هذا من تبديد الورق".

قال أوغوست من لامكان: "إن الحركة الوطنية الكونغولية هي الحزب الأكبر".

نظر إليه ستايب في مرآة السائق. استدار أوغوست، شاعراً بالاستهجان الصامت، وحدق دون هدف من النافذة. انطلقتْ السيارة في صمت لانهائيّ. كنتُ وسط خصام عائليٍّ آخر. كان الوصول إلى كاتانغا يستغرق من خمسة إلى ثمانية أيام وهذا يعتمد على حالة الطرق. وكان بوسعنا أن نطير إلى إليزابيثفيل في بضع ساعات ونذهب إلى عزبة هاوثهوفد من هناك، لكنّ ستايب أراد أن يرى كيف تتقدم

الحملة الانتخابية في أعلى البلاد. لو كان ستايب يعرف ما أعرفه لساء مزاجه أكثر، ولكنّ إنيس طلبتْ مني أن أعدها بألا أتحدث عن الأمر. انضم أوغوست سرياً إلى الحركة الوطنية الكونغولية؛ ليس هذا فحسب، لقد انتُخب أيضاً ـ وهذا ما يزال غير قابل للتصديق بالنسبة لي ـ إلى منصب حزبيّ مهم.

بعد وقت قصير من تجمّع ماتونغ جاء أوغوست إلى الشقة. كان الوقت متأخراً، وإنيس التي كانت في الخارج مع سميل في مهمة حزبيّة، أوتْ إلى الفراش. حين كانت تتعرى كان عليّ أن أتصرف كمضيف، ولم أكن جيداً في هذا. صار الحرج أكثر سوءاً بسبب الجو بيننا. فاحت الشقة برائحة اغترابنا. تظاهرتُ بالمرح ولكنني كنتُ متأكداً من أن أوغوست شعر بما يجري. كان في غاية الإثارة ولكنّ الإحساس المبالغ به باللباقة الذي يحتفظ به للأوروبيين ـ على الأقل في الدقائق الخمس الأولى التي يكون فيها في حضورهم ـ كان يعني أن عليه أن يتابع طقوس اللباقة، فسأل بشكل متقن عن تقدّم روايتي، وصحتي، وصحة والدتي... كان أوغوست يخطئ دائماً في تقدير الأمور.

"وهكذا؟" سألتْ إنيس عند دخول غرفة الجلوس.

كانت تعرف شيئاً ما، أو تريد أن يُؤكّد شيء ما. كان الاثنان متواطئين.

روى أوغوست أنباءه بوقار كبير: في اجتماع في تلك الليلة انتُخبَ نائباً لرئيس جناح الشباب الذي تأسّس حديثاً في الحزب باسم شباب الحركة الوطنية الكونغولية. أطلقتْ إنيس صيحة متعة. مدّت يديها واندفعت لمعانقته. استطعت أن أرى الكبرياء ينمو فيه. كمتعلّم أفريقي، وكمالك لبطاقة التسجيل، وكعضو في جمعية الطبقات الوسطى الأفريقية، كان سابقاً رجلاً له أهمية ما. وصار الآن مسؤولاً في أكبر حزب سياسي في المستعمرة، سيصبح في الحال الحزب الحاكم في البلاد ـ وهكذا فإنه يمتلك سبباً مزدوجاً لوقاره. غير أنّه لم

يبق مجمّداً في جديته طويلاً. ذلك أن بعض زجاجات البيرة ومكر إنيس فكّا جليده. استرخى بسرعة وصار أكثر ارتياحاً وروى لنا من جديد، بتفصيل كبير وفكاهة لا طعم لها، نجاحه في الاجتماع. كانت إنيس في فرح مفرط من تقدمه الأول في ما تنبأت أنه سيكون إحدى المهن السياسية الأعظم في أفريقيا. إن إحساسها بالتناسب، يشبه إحساس أوغوست كثيراً. جلست بقدمين مرفوعتين، ووجه محمرّ من الحرارة والشراب، وعينين واسعتين بينما تباهى هو بهزيمة خصومه وقوة خطابته. استمرت الليلة طويلاً. وحين استأذن أخيراً جرّب دوره الجديد كقائد سياسي، عانقنا بنظرة تضمّنت أن ثلاثتنا حققنا عملاً عظيماً يوحدنا في حزمة التاريخ والبطولة والزمالة الأبدية. كنتُ راغباً بأن أراهن على أنه كان يفكر بهوراشيو على الجسر، أو بشيء مشابه. ذلك أنّ الكهنة الكاثوليكيين الذين درّسوا أوغوست زرعوا فيه ضعفاً أمام الميلودراما وحكايات الشجاعة الكلاسيكية. وقد حاول الأخوة المسيحيون في بلفاست القيام بالأمر نفسه معي. كانت إنيس مغمورة بلحظة تاريخية، ولكن كل ما استطعتُ رؤيته هو زجاجات البيرة الفارغة ـ البريموس، المفضلة لأوغوست ـ مبعثرة على الطاولة والأرض. لم أر إنيس سعيدة هكذا منذ وقت طويل. ولم يرقْ لي أن يكون ذلك الشخص الآخر ـ والذي اعتَبَرْتُهُ مهرجاً محبّباً ـ مصدر متعتها. وفي اللحظة التي غادر فيها أوغوست، جفّتْ سعادتها. عادت البرودة وذهبت إلى الفراش دون أن تقول كلمة واحدة.

قالت لي في الصباح التالي إن ستايب يجب ألا يعرف. ولكنني بدأت أفكر أنه يعرف. كيف يستطيعان إخفاء سرٍّ كهذا عن ستايب؟ إنه يعرف كلّ شيء. فهذا هو عمله.

قال ستايب كأنه يفكر بصوت مرتفع: "ما هو دافع لومومبا برأيك؟ أعني دافعه الحقيقي؟"

كان يتحدث إلى أوغوست عبري.

أجبتُ، مستعداً كي أتماشى مع الأمر على الأقل جزءاً من الطريق، فماذا أستطيع أن أفعل سوى هذا؟: "إنه رجل مهمة".

ـ "هل هو؟ أعني، أكيد أن باتريس يمتلك صورة رجل بمهمة. ولكن ما الذي في الحقيقة يجعله في العمق يتصرف بهذه الطريقة؟"

"من يعرف ما الذي يجعل الناس يتصرّفون بهذه الطريقة؟"

قال بعد توقّف: "أنت مصيب هنا، أنت مصيب بشكل كامل".

دخل الطريق في قلب الغابة، عبر الكروم والبساتين البرية. كانت أشجار الأبنوس والماهوغاني والمطاط مطوقة بالعرائش ومكسوة بالطحالب. أتتْ أصوات حيوانات غريبة من لا مكان، نابحة عاوية وخادشة. كان هناك القليل من السيارات. وفي كل ساعة كانت تعبر جيب أو شاحنة محملة بأكياس الأرز وسلال المنيهوت والفاصولياء، يجلس فوقها رجال ونساء وأطفال في صمت مراقب.

يتسلى ستايب بصوت مرتفع: "من يعرف ما الذي يجعل الناس يتصرّفون بهذه الطريقة؟"

يصمت قبل أن يواصل.

"حين كنتُ في الكلية كان هناك فتاة اسمها ريتا. كان لها أجمل شعر كستنائيّ، وعينان كبيرتان سوداوان، وقوام كأنه خارج من مجلة. كانت تفوح منها ـ أنا لا أمزح معكما ـ رائحة التفاح. لم تكن مركّباً أو عطراً أو صابوناً. كانت رائحتها الطبيعية. كان الجميع يطلبون من ريتا موعداً، ولكن هذا لا يحدث. مرة كنا في درس الأدب معاً، كنتُ مرة أنا وريتا في درس الأدب معاً، تحدثتْ معي وقاد أمرٌ إلى آخر، وقبل أن نفهم طبيعة مشاعرنا خرجنا معاً في موعد. غار مني جميع أصدقائي لأنها اختارتني، لا بدّ أنني شعرتُ آنذاك بفرح غامر كما لو أنني طفل.

ـ "ولكنك لم تكن؟"

ركّزتُ انتباهي كلّه على ستايب. نادراً ما يمنح أي تفاصيل شخصية. التفاصيل القليلة التي يتركها تسقط أخزّنها كأملاك ذهبية.

ـ "لم أكن سعيداً لأنني لم أتوقف عن التساؤل لماذا اختارتني. كان هذا لغزاً لأنني لستُ رجلاً أنيقاً".

ضحكتُ، ولكنني لا أستطيع القيام بأضعف جهد كي أناقضه.

قال بخفة، وقد سامحني: "لا بأس. تصالحتُ مع هذا. هذه ليست مشكلة".

ـ "ما هي المشكلة لريتا؟"

واصلَ بالنبرة المرحة نفسها: "لا شيء مطلقاً. في الحقيقة، كانت المشكلة هي أنها لم تعتبر ذلك مشكلة. واصلتُ سؤال نفسي ما الذي تفعله معي؟ شغلني الأمر. بعد فترة صار هاجساً. لم أستطع النوم أو الأكل، بدأت أسقط في الامتحانات. لم أستطع أن أعالج الأمر فحسب. وهكذا في أحد الأيام ذهبتُ إليها مباشرة وقلت لها بفظاظة: لم أعد أحبّك".

صمت.

ـ "ثم؟"

تنهّد وبدا أكثر جديّة الآن.

ـ "قُضيَ على ريتا، كما يمكن أن تتوقّع. ما أزال أستطيع رؤية وجهها".

ـ "لماذا أنهيتَ العلاقة؟"

ـ "لماذا أنهيتُها؟ في ذلك الوقت اعتبرتها من أنواع الأشياء الغامضة والعنيدة. كانت القدر، الله، الحاجة للمعاناة من أجل الخلاص. مهما كانت، فقد كانت كبيرة. كان عليها أن تكون كبيرة. عرفتُ هذا".

أخذ نفَساً عميقاً قبل أن يواصل، كفاصل من أجل اعتراف صريح.

ـ "لم تكن هناك مشكلة داخل المنزل مع ريتا. كنتُ عاشقاً. إذ لو كان بوسعك أن تراني..." ـ تلاشى صوته، حرفته مؤقتاً الذكرى ـ "في الخارج كان الأمر مختلفاً. كنتُ محرجاً من وجودي معها ومع الأصدقاء وفي السينما والألعاب".

ـ "لماذا؟"

ـ "لم يكن الأمر سهلاً مع ريتا. أنا رجل قصير، كما ترى، وكانت هي أطول مني بإنشين ونصف. كنتُ أرى أصدقائي مع فتياتهم. بدوا رائعين ولم نبد هكذا. أسألك: هل يستطيع رجل أقصر بإنشين ونصف من فتاته أن يلعب دور العاشق الرومانسي، هكذا كانت نظرتي لنفسي آنذاك؟ هذا ليس ممكناً".

ضحك من نفسه.

قال جازماً: "لم تكن أزمتي تتعلق بأي شيء كبير. وصل الأمر إلى هذا: أردتُ أن أشعر بحلمتي ريتا على بطني، وليس على حنجرتي".

نظرتُ إليه. لم أصدقه.

قلت: "أنت قاس جداً على نفسك".

أجاب: "كلا. إن غريزتنا هي أن نكسو الباعث. أفضّل أن أعرّيه. خذ لومومبا. لا شك بأن باتريس يتمتع بذكاء رفيع. إنه موهوب وأصيل. ولكنَّ فيه عيباً وهذا العيب سيقضي عليه".

ـ "ما هو عيبه؟"

ـ "لا يستطيع أن يضع الماضي خلفه. إن أعلى ما يمكن أن يأمله باتريس في الكونغو البلجيكية هو أن يكون موظّفاً. إن استياءه من هذا منطقيّ. فهو يمتلك موهبة كبيرة. وهكذا فهو يسرق من أرباب عمله،

وهم، بشكل طبيعي، يرمونه في السجن. والآن هو غاضب. فالمسألة ليست عن الإحباط فحسب، إنها عن الانتقام، الانتقام من الرجل الأبيض. ثم يأتي سميل وأصدقاؤه بنظرياتهم الماركسية واشتراكيتهم العلمية. كلّ هذا هراء، ولكنّ باتريس يعتنقه لأنه يمنحه المبرّر لتحويل استياء فرد إلى حملة سياسية عنيفة".

كان أوغوست في الخلف يصغي إلى جميع الكلمات.

اختتم ستايب: "إذا قبلْتَ أنّ باعثَ باتريس هو في عمقه تافه وشخصيّ، فأنت إذاً تعرف أن جميع أتباعه لا يملكون قضية حقيقية".

اقتربْنا من ميناء فرانكوي. في الجانب الآخر من النهر يقع الطريق الطويل باتجاه الجنوب الشرقي إلى لولوابورغ، وباكوانغا وكاتانغا.

* * *

أمسكتُ بالقميص اللزج وشددته عن صدري. لا طاقة في الهواء، ولا فيَّ. نظرتُ إلى زنبق الماء المترف، إلى آكل الأوكسجين النهم، وقاتل النهر. نظرتُ إلى الأزهار البنفسجية الجميلة.

فكرّتُ بالطريق أمامنا، بالمسار اللانهائي الذي يمتدّ متواصلاً عبر البرية. بعد خمس دقائق خارج بلدة، أية بلدة، لا يوجد شيء سوى الحرارة والتعرق والرائحة العفنة للغابة. كنتُ في السابق أستمتع بقيادة السيارة فترة طويلة. كان بوسعي أن أسكن أية روايات كنت أكتبها في ذلك الوقت، وأن أتحدث مع أية شخصيات، وأعيش في قصتها. ولكنّ هذه الرحلة برهنت أنها غير ممتعة من البداية. ليس بسبب الحرارة وعدم الراحة، أو التوتر في السيارة فحسب. فقد نجحتُ حتى الآن في تجنّب التفكير بإنيس، ولكن أثناء الساعات الرتيبة كانت أفكاري تعود إليها، وإلى وضعنا. فالأمر الآن أسوأ مما كان عليه. إنها في الخارج طول الوقت، من أجل الصحيفة، من أجل

الحركة الوطنية الكونغولية؛ انخرطتْ في هذا الأمر بشكل كامل. لا أستطيع تذكّر آخر مرة تناولنا فيها وجبة سوية. فهي لا تأتي إلى المنزل في الليل في معظم الأحيان وتوقفتْ منذ مدة طويلة عن الاتصال كي تعلمني بعودتها. إن وجودي بالنسبة لها مجرد إزعاج ثانوي. كنتُ أستيقظ كلّ صباح شاعراً بالفراغ؛ أؤجل الذهاب إلى المنزل إلى أن أعتقد أنني سأنهار من الإعياء. ولكنني لا أفعل أبداً. أستلقي تحت الأغطية المجعّدة الدبقة وأنا أحلم بها. كان الدافع هكذا: أبتكر مشاهد معها، أعيش من جديد الحجج، وأذكر الجراح التي أُصبتُ بها. تُظلم مخيّلتي، وتجعلني حادّ المزاج مع ستايب وأوغوست... غالباً ما يستخدم الإيطاليون عبارة "أنا أحبك" للتعبير عن العلاقة. تدعوها إنيس "قصة" وهي إحدى أخطاء الترجمة التي لم أصحّحها أبداً لأنني أحببتُ إيقاع الكلمة. تبدو ملائمة بخاصة هنا، الآن. لا نستطيع الاستمرار. فقدَ سَرْدُنا خيطه. يجب أن نستعيده ونتابعه إلى خاتمته. يجب أن نصل إلى ذروة قصتنا.

قال أوغوست: "هذا هو نهر سانكورو".

كنا نتكئ على خلفية السيارة فيما كان المراكبيّ يدفع المركب عبر النهر البني.

قلتُ: "إنه نهر كبير".

- "ليس كبيراً كنهر الكونغو، أو الفولتا في غانا. هل تعرف غانا، يا جيمس؟"

دفع جِسْر نظارته إلى الأعلى بسبابته.

قلت: "كلا، لم أذهب أبداً إلى غانا".

- "غانا بلد رائع".

- "كيف تعرف بحق الجحيم؟"

كان ستايب هو الذي سأل. كان يصغي من السيارة. قفز. اهتزّ القارب تحت سيره الغاضب. لم ينظر المراكبي إلى الأعلى بل تابع عمله.

قال ستايب: "ما الذي تعرفه بحق الجحيم عن غانا؟ أنت لا تعرف أي شيء عنها".

قلتُ مندهشاً من حدّته: "هوِّن عليكَ يا مارك".

ـ "لا يعرف أيَّ شيء عنها".

توقعتُ أن يهدأ أوغوست. كان دائماً يفعل هذا حين يكون ستايب مستاء. انتظرتُ ابتسامته، لكنها لم تأت هذه المرة.

قال ببطء: "في غانا يبني الدكتور نيكروما سداً كهرمائياً على نهر فولتا. سيحوّل السد غانا كلّها. سيزوّد القرى كلّها بالكهرباء. سيزوّد المعامل والمصاهر بالطاقة ويجعل الكثير من الصناعات الجديدة ممكنة. هذه رؤية كوامي نيكروما. إنها رؤية عظيمة، رؤية حقيقية شاملة لأفريقيا".

صاح به ستايب: "هل تعرف من يبني السدّ اللعين على نهر فولتا؟ هل تعرف؟ سأخبرك. شركة كايزر للفولاذ الأميركية".

قال أوغوست: "يريد باتريس أن يكون صديقاً للأميركيين. يعرف أننا نحتاج إلى الأميركيين".

ـ "لا يمكن أن يكون باتريس صديقاً لنا وصديقاً للسوفييت في الوقت نفسه. إذا حاول سيحترق".

لم يجب أوغوست.

هدأ ستايب كأنه ندم على التعبير عن مزاجه، قال: "انظر يا أوغوست، أعرف أنه لا معنى لكثير من هذا المتاع بالنسبة لك الآن، ولكن عليك أن تثق بي. لم أخذلك أبداً حتى الآن. هل سبق وفعلت؟"

ـ "صحيح، يا مارك".

قال ستايب وهو يربت على كتفه: "صحيح".

وصلنا تقريباً إلى الضفة البعيدة.

واصل ستايب بصوت تصالحيّ: "أخبرني ماذا تريد يا أوغوست؟"

أجاب أوغوست دون يقين: "ماذا أريد؟"

ـ "نعم، ماذا تريد؟"

ـ "أريد أن تصبح بلادي..."

فجأة احتدّ ستايب مرة أخرى.

ـ "كلا. أنا أتحدث عنك، يا أوغوست. أنت، الفرد! أنا أتحدث عما تريده لك!"

نظر إليه أوغوست بطريقة مباشرة، بتحد في عينيه؛ ثم عاودَ ميلٌ قديم ما تأكيد نفسه فخفض رأسه.

حثّه ستايب: "تريد سيارة، مثل هذه. أليس هذا صحيحاً؟"

ـ "صحيح، يا مارك".

ـ "وتريد منزلاً جميلاً؟ وتريد ملابساً جميلة وزوجة جميلة شابة مغرية تتمتع بتعليم جيد من أجل أولادك. أهذا صحيح؟"

ـ "صحيح، يا مارك".

ـ "إذاً ما الذي تفعله بحق الجحيمم بهذه؟" انتزع ستايب نظارة أوغوست ورماها في الماء.

"مارك...". صحتُ محتجاً.

صاح بي ستايب: "إنها ليست حقيقية. إن نظره مكتمل. إنه يرتديها فقط لأنها تجعله يبدو مثل باتريس".

كان أوغوست مُروَّعاً. لا شيء لديه كي يقوله.

واصل ستايب بكلمات سريعة وقاسية: "هل تريد البضائع؟ تريد الكثير من البضائع؟ بالطبع تريد. تماماً مثل الجميع. مثل جيليسباي، ومثلي. وتستطيع الحصول عليها يا أوغوست. أستطيع التأكد من أنك ستحصل عليها. ولكنك إذا أخطأتَ مع الآخرين فلن تحصل على سيارتك أو منزلك أو أيّ شيء منها. أتفهمني؟"

وصلنا إلى ضفة نهر سانكورو البعيدة. ذهب ستايب كي يدفع للمراكبيّ. دخل السيارة، شغّل المحرك وقاد السيارة من القارب إلى الرصيف الخشبي الوعر.

سرتُ أنا وأوغوست خلفه ببطء. عبرنا مستعمرة فوّارة من النمل الأسود الكبير وسحقنا بعضه تحت أقدامنا.

كرّر أوغوست ونحن نقترب من السيارة، نافضاً النمل عن بنطلونه عند الساقين: "يمتلك باتريس رؤية عظيمة. سيدعم الأميركيون هذه الرؤية. نحتاج إلى مساعدة أميركا لبناء بلادنا. كما تفعل شركة كايزر للفولاذ في غانا".

اعترضتُ وقد بدا صوتي كأنه غريب مثل إنيس. أرجعتُ هذا إلى عادة الشك المستمرة: "إن الشركات الأميركية لا تقدم أبداً أيّ شيء مجّاناً".

قال أوغوست ببساطة: "إذا طلب الأميركيون ثمناً مرتفعاً فسنذهب إلى الروس".

قلت: "هذه لعبة خطيرة".

- "إنها اللعبة التي نحن مجبرون عليها، يا جيمس".

* * *

في ذلك اليوم انضمّ إليَّ ستايب في فناء الاستراحة لتناول كأس من الجن والاستماع إلى هيئة الإذاعة البريطانية على الموجة القصيرة. تظاهر مائة ألف شخص في ساحة ترافالغار داعين إلى نزع السلاح النووي. تبع هذا التقرير مادة حول نايسلاند والسير روي ويلينسكي؛ وأخرى حول ما جرى بعد إطلاق النار في شاربفيل. ثم انتقل الحديث إلى انتخابات الكونغو. في ليوبولدفيل ليلة أمس حدثت ثلاث جرائم سياسية إضافية؛ ففي ستانليفيل أطلق مهندس بلجيكي النار وقتل دون قصد امرأةً سوداء وهي خارجة من الحانوت.

سألته: "هل كانتْ قصتك عن ريتا صحيحة؟"

- "نعم".

- "هل تعرف ما الذي حدث لها؟"

قال وهو يبتلع الألفاظ قليلاً: "تزوّجتُها".

نظرتُ إليه، مندهشاً.

سألته: "أين هي؟"

- "في المنزل. لدينا منزل في فيلادلفيا. ثلاثة أولاد، كلبان وقطة، بحسب الإحصاء الأخير".

أخرج صورة من محفظته. الصورة أميركية محضة: زوج وزوجة وأطفال يرتدون ملابس عادية لامعة ونظيفة مجتمعون مع حيواناتهم الأليفة حول سيارة العائلة أمام منزل العائلة. ابتسامات وأحاديث وتعابير خجولة وقصات شعر قصيرة للذكور. كان واضحاً أن ريتا أطول من زوجها. لم تكن نظرتها في الصورة سعيدة كما بدا.

قلت، معيداً الصورة: "أنا سعيد أنكما نجحتما في الأمر".

قال: " لم تنجح الأمور. لم ينجح أي شيء".

ـ "كيف تقول هذا وأنت متزوج ولديك أطفال وأسرة؟"

تنهّد ستايب بعمق: "توسّلتُ إليها وأنا راكع على ركبتيّ كي تعود إليّ. انتظرتُ فترة طويلة. صمّمتُ ألا أتركها. عرفت أنه عليَّ أن أمتلك هذه الفتاة، وأنها الوحيدة التي تناسبني. وفي النهاية أنهكتُها. استسلمتْ. ولكنّ الأمور لم تبق كما هي عليه. لم تسامحني أبداً على ما فعلتهُ. آه، لم تقل أيَّ شيء أبداً. إن ريتا ليست متحدِّثة، ليس حول هذه الأمور بأية حال. كانت مشاعري نفسها، لم تتغيّر أبداً. ما تزال المرأة الوحيدة التي أحبها. لم أنمْ في حياتي كلها سوى مع امرأتين، وكانت الأخرى قبل ريتا. امرأتان. هل تستطيع تصديق هذا؟ سببّ هذا لزملائي الكثير من المرح. ولكنني غير مهتم فحسب. ربما يجب أن أكون مهتماً ولكنني لستُ كذلك".

قلتُ: "لا أرى لماذا يجب أن يكون هذا سبباً للمرح".

هزّ كتفيه بكسل: "تغيّرت مشاعر ريتا".

ـ "هل يوجد رجل آخر؟"

ـ "كلا. حين تقول كلا أصدقها لأنها صادقة. لا تعرف كيف تكذب. أحياناً أفكر أنه من الأفضل لو كان هناك شخص آخر. ربما ستكون هناك فرصة على الأقل كي تضجر منه وتعاود اكتشافي. ولكن الأمر أسوأ من هذا بكثير. لم تعد تحبّني فحسب ولا شيء في الحياة مؤلم كالحبّ من طرف واحد.

جلسنا صامتين، وأعدنا ملء كأسينا والنظر إلى الليل.

قال بعد وهلة: "كنتُ نذلاً مع أوغوست".

ـ "لماذا أنت قاس عليه هكذا؟"

ـ "إذا اختلط مع الناس الخطأ سيلحق به الأذى. ولا أريد أن يحدث هذا فأنا أحرص عليه".

خصّني بنظرة تشي بأنني أشك في صدقه.

قال بسرعة: "ألتقي بأربعمائة رجل كل يوم يا جيمس، ولكن الحقيقة هي أنني لا أنسجم مع كثير منهم. لم أنسجم أبداً. والناس أيضاً لا ينسجمون معي. ينظرون إليّ ويحترسون. يرون القوة العضلية، والعدوانية. إنّ الناس لا يحبون هذا. وهكذا حين ألتقي بشخص وأتماشى معه فإن هذا يعني لي الكثير".

فجأة رأيتُ ستايب في ضوء حقيقي.إنّ ما يقوله صحيح. فقد قدم دوماً الانطباع بأنه مكتف ذاتياً، بشكل مثير للحسد. إنه على حق جزئياً، فالانطباع يأتي من بنيته وقوّته، والعضلات الصلبة التي أشار إليها، ومن عدوانيته. إن الناس ينظرون إلى رجل مثله ولا يفكرون سوى بأنه راسخ وقوي. أما بقيّتنا فيشعرون باهتزاز الثقة بالذات. هذا مفهوم الآن. فالدعوات اللانهائية للشرب في الكوليبري، والتودد غير الخجول لآنا، والرحلات إلى تجمّع مونتاغ، وإلى منزل مونغول لرؤية هاوثهوفد ومائة مكان وشخص آخر توضح أن ستايب رجل محتاج. يريد أن يُحَبّ. لم أشعر بأنني غاضب منه على الرغم من معاملته لأوغوست اليوم.

لا يقرّ ستايب بدوافع أعلى، إنه ريبيّ وأحياناً «بلطجيّ»، ولكنه مخلص وصديق حقيقي، وهو متألم.

* * *

الفصل التاسع عشر

صفّ ستايب سيارة الشيفروليت على جانب الطريق. وذهب إلى الحاجز المرتجل كي يتحدث مع الجنود. كانت الغابة بعيدة خلفنا وقد أكملنا تقريباً رحلتنا عبر الريف المفتوح لكاساي. كانت أمامنا الهضاب البنيّة لحزام كاتانغا النحاسيّ. سيكون الجو أبرد على سطح الهضبة حيث السماء شاسعة وهادئة وصافية.

في كوخ من القش مفتوح من جانبه قرب مضخة للماء كان الأطفال يصرّفون الفعل الفرنسي "منح" في نصف أغنية أفريقية أمام أستاذهم العجوز. كانوا يسترقون النظر إليّ وإلى ستايب: الرجلان الأبيضان اللذان يجب ألا يكونا هنا. تجاهلنا القرويون، ولكنّ المدرّس كان يحاول كما اعتقدت أن يلتقط عينيْ أوغوست. بدا خجولاً وربما عصبيّاً. يرتدي قميصاً أبيض قصير الكمّين وربطة عنق زرقاء غامقة. أنا متأكد من أنه يريد التحدث معنا. كي يحذرنا؟ يتصرف الناس هنا، حتى الأطفال، كما لو أن هناك شيئاً مخبأ: ثمة شائعات في نظراتهم.

انضممتُ إلى ستايب عند الحاجز. كانت امرأة حامل تجلس على كومة من النمل الأبيض، ترفع قطعاً من من الجذور تواصل قضمها. الجنود متجهّمون. ليس معهم ضباط بيض يستطيع ستايب أن يفاوضهم. جرّب الحلاوة والإطراء، وجرب الرشوة، وجرب الصداقة الحميمة لغرفة الثكنة لرجل يعرف عمل الجنود، ويفهم أوامرهم وقواعدهم، الرسمية وغير الرسمية، والتي يجب أن يؤدوا واجبهم وفقاً لها. جرّب الغضب. هذا، بخاصة، لم يعمل. لم تعجبني

نظراتهم، لم أستطع قراءتها. كانوا ينقّلون أعينهم بسرعة من شخص إلى آخر. كرهتُ غياب اليقين والقلق والضعف وحقيقة وعار هذه المواجهة. قد لا أكون مؤمناً، ولكنّ تطرّف الأسود والأبيض يجعلني غير مرتاح تماماً. أريد أن أقول: "لستُ عنصرياً، ولستُ بلجيكياً"، ولكنني أستطيع أن أسمع في رأسي الضحك؛ والسؤال: "من أنت إذاً؟" الذي لا أملك له جواباً.

استدار ستايب مبتعداً عن الرجال المتجهّمين.

سألته: "حسناً؟"

قال: "لن يسمحوا لنا بالعبور. ما من مجال".

ـ "ما المشكلة؟"

ـ "هناك أعمال شغب. إن البالوبا واللولوا يقومون بالأمر ثانية".

منذ أن عبرنا إلى كاساي مررنا بعدد من القرى المحروقة، والحوانيت والمنازل المنهوبة. كانت أجزاء من الريف مهجورة، وبدت كمنطقة أشباح. وكان هناك لاجئون على الطريق.

قال ستايب: "نحن نبعد على الأرجح من أربع إلى خمس ساعات عن مكان هاوثهوفد، ولكن الجنود قالوا إنهم لا يستطيعون السماح لنا بالمرور حرصاً على سلامتنا".

راقبتُ المرأة الحامل تمضغ الجذور التي عليها نمل أبيض. حرك ستايب بعصبية قبة قميصه الملطّخ. قبّتي المتصلّبة من التعرق أصدرتْ صريراً في قفا رقبتي المسفوع.

دفع ستايب لامرأة كي تقدم لنا البيرة والمنيهوت، المنكّه ـ وهذه نعمة صغيرة ـ بالقليل من البصل، والبندورة والفلفل الحار. جلسنا في ظلّ شجرة باأوباب وأكلنا بشراهة. كان المدرّس قد صرف تلاميذه. واختفى أوغوست. سيكون علينا الانتظار فحسب إلى أن يغيّر الجنود رأيهم.

سألني ستايب كيف تجري أموري مع إنيس في هذه الأيام. أخبرته أن التزامها بلومومبا والحركة الوطنية الكونغولية لا يسمح لنا بإعادة بناء حياتنا معاً.

قال هازاً رأسه: "التزام؟ أي نوع من الكلمات هذه؟"

ـ "كان والد إنيس نصيراً شيوعياً. نمتْ مع الالتزام".

قال: "هذا هو الجواب".

"ماذا كان السؤال؟"

ـ "لماذا هي ما هي عليه؟ على ما يبدو إنه تأثير الأب".

أكلتُ بلا شهيّة. خطرت لي الفكرة نفسها مرات كثيرة، ثم صرفتُها معتبراً أنها غير جديرة بي وبها.

واصل ستايب: "إنها شابة تريد أبطالاً. كان والدها بطلاً، ربما كنتَ بطلاً بالنسبة لها مرة..."

آلمني سماع هذا الكلام، فستايب يخترقُ إلى أعمق، ويمتلك كل المواهب الضرورية لخط عمله الخاص. فكّرتُ بالطريقة التي اعتادت إنيس أن تتحدث بها معي، وتنظر إليّ، وتكتب لي حين كنا في بداية حبنا. يعرف ستايب ما يقوله، يعرف ما تفعله هذه الكلمات. إنه يصبّ ألمه عليّ.

قال: "إن لومومبا هو الأخير فحسب في خط طويل من الأبطال. الوغد المسكين. عليه أن يتحمل ثقل أحلامها، أحلامها وأحلام مليون مثلها. إما سينهار تحت الثقل أو ستدفعه إلى ميتة شهيد".

عرفتُ لبعض الوقت أن ستايب تضايق من إنيس بسبب أوغوست، ولكنّه لم يتجاسر من قبل على التعبير عن مشاعره أمامي. والآن تخرج مندفعة. ولكن ربما هذا ما أحتاجه. ربما هو قاس كي

يكون لطيفاً. فقد تخبّطتُ في بؤسي طويلاً بما يكفي. حان الوقت كي يتوقف تحويلي لها إلى مثال.

ـ "هيا، يا جيليسباي، لا تحاول أن تقول لي إنه لم تكن هناك أوقات أحرجتْكَ فيها قليلاً جميع عروض المثالية والتضامن المبالغ بها تلك. في ذلك الوقت خارج منزل لومومبا حين اعتُقِلَ، مثلاً؟ رأيتُ الطريقة التي كنتَ تنظرُ بها إليها".

ـ "كيف كان ذلك؟"

ـ "كنتَ مرتبكاً. كانت تبكي مع أوغوست وكنت مرتبكاً".

ـ هذا صحيح، أعرف أنه صحيح: تبكي إنيس جيداً. ربما يجب أن أدافع عنها لكنني لا أستطيع.

كلما تحدث ستايب جاءت الإحراجات إلى الذهن.

ـ "كانت حساسيتها تظهر للجميع، خاصة لك، بحيث تستطيع أن ترى كم كانت متأثرة بعمق بينما أنت، أيها الوغد البارد، لم تكن تملك القلب كي تشعر بأي شيء..."

ـ كان هناك الكثير.

ـ "... والذي هو غير مؤذ كله بما يكفي، عدا أنه أنت وأنا نعرف أن هناك شيئاً ما..." ـ توقف كي يختار الكلمات المناسبة ـ "شيء ليس أصيلاً بشكل كامل حيال عروض كهذه".

ـ أحدها خاص.

ـ "اعترفْ، يا جيليسباي. إنها تحرجك حين تقوم باستعراضها الثوري".

ـ أحدها خاص...

* * *

بعد مضيّ شهرين على وجودنا معاً كان عليها أن تعود إلى روما كي تتحدث مع الصحيفة عن عَقْدها. قرّرنا أن نمضي العطلة في إيرلندة بدلاً منْ أن تعود مباشرة إلى لندن وأن تستقلّ الطائرة كي تلتقي بي في دبلن. كانت طيارتها متأخرة. كان هناك ضباب في روما فانتظروا على المدرج ثلاث ساعات.

شكتْ وهي تتقدم إلى قاعة الواصلين: "كان الطيار جباناً".

قلتُ بتذكير لطيف: "يا له من جبان!"

كان ذهني متضاربا دوماً حيال إن كان يجب أن أصحّح أخطاءها ـ كما ألحّت أن أفعل ـ أو أستمتع بها.

قالت وكأنني لم أفهم في المرة الأولى: "نعم، جبان. كان بوسعه الإقلاع بعد ساعة واحدة".

كانت مستاءة جداً من جبن الطيّار بحيث نسيتْ أن تقبّلني. قدنا السيارة نحو الغرب، وكان المطر يلاحقنا.

قالت: "نحن دوما غير محظوظين بالطقس".

"إن إيرلندة غير محظوظة بالطقس"..

كان الوقت أواخر نيسان/إبريل وكان أيار/مايو ما يزال في الدثار الرمادي للشتاء. كان هناك مطرٌ متجمّد وبَرَد، وكلاهما شديد، دفعا الكلاب والخراف إلى المأوى. وفي ويستبورت فاضَ النهرُ فوق الجسر الخشبيّ وعانيتُ من مشكلة العبور بالسيارة. صاحتْ وهي تقبّلني. عثرنا على كوخ للاستئجار على بعد خمسة أميال من البلدة. كانت الأغطية الكتانية للسرير رطبة. أشعلتُ ناراً وأبقيْتُها طول الليل.

في اليوم التالي فيما كنا نسير في الخارج لجأْنا إلى بار دافئ هرباً من المطر. تحدّثْنا مع المزارعين والعمّال، وبعد عدة كؤوس بعد

الظهر، بدأتْ حديثاً عن الجيش الجمهوري الإيرلندي، مما ولّد استياء واضحاً في الجو على الرغم من أن رد فعل سكان الريف نادراً ما يظهر أمام الغرباء. شعرتُ بتصلّب الناس حولنا، وانسحابهم. واصلتْ إنيس ارتكاب خطأ أحمق، فاهمة الصمت بأنه إذن، وكان انحراف كلامها مغرضاً. لم تتوقّف إلا بعد أن نظرتُ إليها في عينيها.

حين عدنا إلى الكوخ قلت ببرود: "ألم تلاحظي كم كان الأمر محرجاً لهم؟"

ـ "ربما كان محرجاً لك وحدك".

ـ "نعم، كان كذلك".

ردّتْ: "حسناً، لا يشعر الطليان بالحرج حين يتحدثون عن الأنصار".

ـ "إن الحزب الجمهوري الإيرلندي ليس أنصاراً".

لم يكن جديداً عليّ أن أصادفَ غريباً له آراء قوية حول إيرلندة غير قائمة على إطلاع، ولكن أن أسمع شخصاً قريباً جداً مني يتحدث بهذه الطريقة كان خارج طاقتي على التحمل. للمرة الأولى صحتُ بها:

ـ "ليسوا أنصاراً. إنهم فتيان مغفّلون في السابعة عشرة يُقتلون في غارة فاشلة بلا هدف أو يموتون وحدهم في الزريبة في شتاء شديد البرودة وأحشاؤهم نافرة إلى الخارج. إنهم عازبون في متوسط العمر يعيشون حياتهم كلها مع أمهاتهم في قطعة أرض صغيرة ثم يفجّرون أنفسهم وجميع من حولهم إلى أشلاء بقنابلهم المصنوعة محليّاً. إنهم لا يقاتلون الألمان يا إنيس، إنهم يطلقون النار على رجال الشرطة العاديين الذين لهم منازل وزوجات وأطفال أيضاً".

كانت حججها عفوية ووجدانية. حين رجعنا إلى لندن وجدتُ نفسي أتساءل للمرة الأولى إن كنتُ قد ارتكبتُ خطأً. وإنيس؟ ماذا كان رأيها بي آنذاك؟ كانت هادئة ومحبة كما كانت من قبل، مما أثار دهشتي.

سألتُها: "لماذا؟ ماذا ترين فيَّ؟"

جالساً في ظل شجر الباأوباب الاستوائية مع ستايب حاولتُ جاهداً أن أتذكّر ما قالته جواباً على سؤالي. لا شيء أتي إلى الذهن. لا أعرف ماذا قالت. أظنّ الآن أنها لم ترغب بالإقرار بأنها ارتكبت خطأً.

* * *

سقط ظلّ عبر ساقيَّ. نظرتُ فلمحتُ أوغوست. ومعه المدرّس. إنه نحيل كالعصا، بشعر شائب كالسلك على صدغه ووجه جاف فيه تجاعيد. حين اقترب بدا قميصه رثّاً، وربطته السماوية الغامقة مهترئة ومتّسخة. بنطاله الفضفاض بلون التراب ومرقّع عند الركبتين. قدماه العاريان مفلطحتان ومغمورتان بالغبار.

قال أوغوست: "هذا شقيقي كليوفاس".

ـ "أخوك؟"، قلتُ. شقيق آخر؟ كم عددهم؟

أجاب كما لو أنني طرحتُ سؤالاً غبيّاً: "نعم، أخي من أبي وأمي".

انحنى كليوفاس بارتباك وسلّم علينا باحترام. فرنسيته بسيطة، سهلٌ عليّ فهمها، ونبرته مراعية. بالكاد يستطيع النظر إلينا في العين.

قال بهدوء: "يجب أن تغادروا فوراً فالمكان غير آمن".

رفع إصبعه وأشار إلى شيء يقترب من الجهة التي جئنا منها. كان الطريق يومض بالسراب. وكان محيط العشب الطويل المدبّب حول القرية هادئاً وبدون حدود. حين ظلّلتُ عينيّ رأيتُ سيارة ليموزين

مفتوحة الغطاء يقف فيها رجل كما لو في عربة. كان يرتدي ربطة عنق سوداء وذيلَ سترة، لُفَّ عليه جلد فهد. حين اقتربَ رأيتُ أنه يرتدي قفّازاً أبيض. وكان يحمل عصا رقيب أول أنيقة موضوعة تحت ذراعه ويرتدي نظارة سوداء. وكان هناك خادم يرفع مظلة سوداء كبيرة كي يقيه من الشمس. خلف الليموزين كان هناك ثلاثون أو أربعون تابعاً، مسلحين بالرماح والسيوف والأقواس والسهام والهراوات وبفؤوس من العصر الحجري.

خرجَ القرويون من أكواخهم وتجمّعوا في المكان المفتوح حول مضخّة الماء.

سأل ستايب: "ما الذي يحدث بحق الجحيم؟"

قال كليوفاس: "إنه اجتماع من أجل الانتخابات. إن السيد مرشّح الحركة الوطنية الكونغولية. جاء يطلب أصواتنا".

قال ستايب: "لا يتصرفون هكذا في بلادي".

سأل أوغوست: "ألا يتصرفون هكذا؟"

تبادلا النظرات هو وستايب للحظة.

قلتُ على نحو مقنع: "ربما هو محقّ. لا يعني هذا أنه ليس هناك تلاعب سياسي في أميركا".

لم يقل ستايب أي شيء. بدا متجهّماً.

قال كليوفاس: "إن هذه القرية تنتمي لقبيلة بالوبا، ولكن المحيط كله من قبيلة لولوا. حدثت معارك كثيرة".

توقّفتْ الليموزين، تبعها رجال قبائل البالوبا. تهكّموا علينا حين مرّوا وقاموا بطعنات وهمية. ركضَ رجل يرتدي خوذةً عسكرية ومئزراً من جلد الأسد يقعي قرد صغير على كتفه. قرّب الرجل رمحه إلى

مسافة إنش من وجه ستايب وأطلق صرخة تهكّم وشتائم. لم يجفل ستايب. تحدث كليوفاس بحدة مع المحارب، الذي بعد طعنة وهمية أخرى تخلى عن رياضته وانضم من جديد إلى رفاقه.

قال كليوفاس ثانية: "يجب أن تغادروا. ليس المكان آمناً".

قال ستايب: "سأذهب للتحدث مع الجنود مرة أخرى".

بدأ المرشّح الواقف في الليموزين بالحديث. إنه خطيبٌ قويّ.

سألتُ كليوفاس بعد وهلة: "أية لغة هي هذه؟"

- "إنها لغة التشيلوبا، لغة شعب البالوبا".

- "ماذا يقول المرشّح؟"

- "أشياء سيئة، يا سيدي؟"

- "أية أشياء سيئة؟"

"يقول للناس إنهم إذا صوّتوا له سيعيشون جميعاً في منازل كبيرة، وسيملكون منازل البيض ونساءهم أيضاً".

صدر تصفيق صاخب عن القرويين.

"يقول للناس الآن إنهم إذا صوّتوا له فإن محاصيلهم ستكون جيدة..."

تصفيق آخر.

- "... أنهم سيجدون النقود البلجيكية تنمو في الحقول بدلاً من المنيهوت".

- "أهو حقاً يقول هذا؟"

- "يقول للناس إنه حين يحصل الاستقلال فإن أقرباءهم الموتى سيُبعثون من قبورهم ويعودون إليهم، بأجساد كاملة كما كانوا شباناً".

ـ "أتصدّق ما يعد به المرشّح؟"

ـ "ما يعدُ به مستحيل يا سيدي".

ـ "إذاً لن تصوّت له؟"

نظر كليوفاس إلى أوغوست.

ـ "نعم، سيدي، سأصوّت للسيد لومومبا وللحركة الوطنية الكونغولية"، قال بصوت غير مسموع تقريباً.

قلتُ له وقد فوجئت: "ولماذا ستفعل هذا؟ إن هذا الرجل على ما يبدو مشعوذ. لماذا ستصوّت له ولحزبه؟"

شعرتُ بأنّ كليوفاس يريد أن يجيب ولكنه خائف من أن يهينني.

قلتُ معدّلاً نبرة صوتي، جاعلاً منها أقل حدّة: "أودّ أن أعرف. ولكن فقط إن كنت تريد أن تخبرني".

جمّع كليوفاس أعصابه.

ـ "سأصوّت للحركة الوطنية الكونغولية لأن السيد لومومبا هو القائد الوحيد الذي يقول لنا إنه ليس علينا أن نبقى فقراء إلى الأبد، إنه إذا اتحدنا كأمة واحدة نستطيع أن نستخدم ثروات الكونغو لشعب الكونغو".

أتت صيحة من الحاجز. نظرتُ فرأيت جنديين يواجهان ستايب بغضب. رفع يديه ليظهر أنه لا ينوي القيام بأي اعتداء. دفعه جندي بفظاظة. سرتُ إلى الأمام.

قال أوغوست على الفور: "كلا يا جيمس. الجنود سيئون".

صاح الجنود بستايب، ملوّحين بأذرعهم بشكل هستيري. نظر وأشار إليّ أن أبقى في مكاني.

قال كليوفاس: "ادخلْ إلى السيارة من فضلك يا سيدي وكن مستعداً للقيادة. سأشرح للجنود".

قبل أن أستطيع قول أي شيء انطلقَ إلى الحاجز. راقبناه أنا وأغوست وهو يسير بخضوع نحو الجنود، يداه مفتوحتان وذراعاه إلى جانبيه. ذهب إلى ستايب المطوّق وحاول التشفّع له.

دخلتُ أنا وأغوست السيارة. أدرتُ المحرك. خلفنا، ازداد الحشد إثارة، مستجيباً لخطاب المرشّح.

رفع جندي كعب بندقيته وكأنه على وشك أن يضرب كليوفاس الذي خفض رأسه ولم يحاول الدفاع عن نفسه. اجتمع الجنود حوله وصاحوا به. دفعوه إلى الأمام وإلى الخلف. تحمل كل شيء، دون أن يتفوه بكلمة. بقي ستايب هادئاً. توسّل كليوفاس من أجله ثانية، هامساً ومتشفّعاً. بين وقت وآخر كان الجنود يهددونه كي يسكت، لكنه بدأ ثانية.

واصل المرشّح خطابه وسط الهتافات والصياح. فجأة اندفع رجال القبيلة كي يحيطوا بالسيارة. طعن محارب يحمل رمحاً الأضواء الأمامية كما لو أنه يطعن وحشاً مقيّداً.

قال أغوست: "هيا يا جيمس. يجب أن ننطلق".

سرتُ ببطء إلى الأمام نحو الحاجز. ضرب المحاربون غطاء محرك السيارة وسقفها والزجاج الأمامي بأيديهم. ضغطتُ على البنزين وزدتُ من سرعتي ببطء. حين تجمهروا أمامنا زدتُ من السرعة بحدة فتقافز المحاربون من أمامي.

أسرعتُ إلى الحاجز. قذفونا ببعض الأحجار، ثم سخروا منا وضحكوا علينا.

أسرع كليوفاس.

قال: "إن الجنود رجال طيبون. إنهم من قبيلة الباومنغو، وهم بعيدون عن قراهم وخائفون جداً".

قلت: "هل سيسمحون لنا بالمرور؟"

نظر كليوفاس إلى الخلف إلى الجنود. أحدهم هزّ رأسه بشكل مقتضب.

دعا أوغوست ستايب إلى السيارة، وتقدم كي يفتح الباب الخلفيّ. خلفنا، بدا أن رجال القبيلة يستعدّون للهجوم علينا".

سألت كليوفاس: "ماذا عنك؟ هل ستكون بخير؟"

قال: "سأكون بخير يا سيد. شكراً لك".

عيناه مكدّرتان، بدون تعريف؛ القزحيتان تملكان نوعاً من اللون الفاتح الضارب إلى الرمادي على حوافّهما.

ألحّ عليّ أوغوست بالانطلاق حين دخل ستايب من الباب الخلفيّ: "انطلق، يا جيمس".

وقف الجنود جانباً. دعستُ على البنزين. لوّح أوغوست لكليوفاس وانطلقنا عبر الحاجز.

طار شيء عبر النافذة المفتوحة خلفي. نظرتُ فرأيت سهماً عالقاً في مسند ذراع الباب الخلفي على بعد إنش أو إنشين من ركبتيْ ستايب.

صاح ستايب: "ارفعْ زجاج نافذتك".

أصابنا المزيد من السهام، ليس من الخلف، وليس من القرية، ولكن من الجانبين. قفز رجال من العشب الطويل، مئات منهم. ظهر

أحدهم أمامنا على الطريق وقذف رمحاً. قشط غطاء محرك السيارة وشق الزجاج الأمامي. قفز من طريقنا حين زدنا من السرعة. سمعنا طلقة بندقية.

استدرتُ فرأيت الجنود على الحاجز يهربون نحو القرية تحت مطر من السهام والرماح. لم يظهر كليوفاس في مدى البصر.

قال ستايب: "إنه هجوم من اللولوا".

ضغطتُ قدمي على البنزين. وتمنّيتُ لو أنّ إنيس هنا كي ترى انتصار هذه القضية الجديدة.

* * *

الفصل العشرون

أريد أن أكتب المقالة التي يريدون مني تأليفها. إنها قصة جيدة، ليس عليهم أن يبذلوا جهداً كبيراً كي يقنعوني بهذا. سأكتبها على الرغم من أنني أعرف ما تعنيه لإنيس ولي. سأكتبها لأنني أعرف.

* * *

لم يبدأ ستايب وهاوثهوفد التحدث عن العمل مباشرة. كان هناك أولاً المشروبات الباردة التي تستمرُّ طويلاً على الشرفة حيث رويتُ قصة هربنا من القرية. ردّ هاوثهوفد هازّاً كتفيه: ماذا تتوقّعون؟ سيحدث الأسوأ إذا لم تُتَّخذ إجراءات قوية. ولكنّ الحكومة في بروكسل لها معدة ضعيفة؛ إن فرض النظام لدرء الفوضى يقع على عاتق المستعمرين أنفسهم.

فيما بعد، أخذنا هاوثهوفد في رحلة قصيرة في عزبته. لا أعرف إن كنت قد رأيت في أي مكان في العالم شيئاً جميلاً كهذا. كانت بداية المساء والسماء حمراء وذهبية. وكانت المشاهد طويلة ومهدّئة. تخيّلتُ تسلّقاً مبكراً في الصباح لإحدى الصخور الضخمة على التلال التي تطلّ على الأودية حيث الأشجار الشوكية وأشجار الباأوباب ترتفع بين أعشاب السافانا الصفراء. هناك يمكن أن أمضي النهار كله وحيداً، دون أن تذهب أفكاري إلى أيّ مكان، ويصبح المشهد بلسماً. الأصوات تأتي خافتة في هذا المكان، غير راغبة بأن تُزعج أو بأن تصدر ضوضاء. في خلفية كهذه، يمكن أن أكون متحرراً من إنيس.

أراني هاوثهوفد فسحات النحاس حيث المعدن كثيف في أرض لا يمكن أن تنمو فيها الأشجار. قال لي إن أفريقيا قارة فقيرة فيها حفنة من المناطق الغنية بشكل مفرط. إن كاتانغا، والتي هي بحجم بريطانيا، هي الأغنى. تقدم مناجم شركة يونيون للتعدين وشركة فورمينيير للعالم ثمانية بالمائة من نحاسه، وستين بالمائة من يورانيومه، وثلاثة وسبعين بالمائة من كوبالته، وثمانين بالمائة من ألماسه الصناعي. تمتلك كاتانغا الذهب والفضة والقصدير والزنك والمنغنيز والكولومبيوم والكادميوم والتنغستين والتنتالوم؛ إن مؤونتها لن تُستنفد أبداً.

على العشاء سأل هاوثهوفد بشكل خطابيّ: "هل تثق بوقوع هذه الثروات بيد رجل كباتريس لومومبا؟"

ستايب صامت على غير العادة؛ ترك البلجيكيين يقومون بمعظم العمل وأفضله مع الرجل الذي جِيءَ بي كي أقابله: فكتور نانداكا. هل شعر ستايب بالذنب لأنه هاجم صديقه القديم فجأة وعلى نحو غير متوقّع؟ إن نانداكا هو أحد مساعدي لومومبا المقرّبين، ونائب رئيس الحزب. صنعَ اسماً لنفسه حين أجبر البلجيكيين على إطلاق سراح لومومبا قائلاً لهم إنه لن يأخذ وفد الحركة الوطنية الكونغولية إلى بروكسل لحضور مؤتمر الطاولة المستديرة بدون قائده. أعرفه. قابلتُه في منزل أوغوست في المدينة الحديثة، في الليلة الأولى التي رأيتُ فيها لومومبا. أدهشني آنذاك بأنه رجل يتمتّع بغياب تام للإخلاص. إنه أملس وناعم ومغرور ويمتلك سحراً مزيّفاً. اعتقدتُ دوماً أنه يصلح أن يكون قواداً جيداً. يمتلك باراً، ووكالة سفر وشركة تأمين.

كنتُ نصفَ مُصغٍ فحسب. فقد اتخذتُ قراري سابقاً. كنتُ ملتهياً بأحد الضيوف، وأعني مادلين التي كانت موجودة. إنها في علاقة غرامية مع هاوثهوفد، وهذا واضح من مدى احتشامها، من الحرص الذي يتجنبان به عَينيْ بعضهما بعضاً.

كانت تجلس قبالتي. شيء ما غريب دار في ذهني. يتعلّق بالجنس. فقد عشتُ مع إنيس حياة جنسية ممتعة لم أعتقد أنها ممكنة. إن تفضيلات إنيس الجسدية مباشرة. ليست متزمتة، ولكنني لا أستطيع القول إنها مغامرة. ليست مثل مارغريت، التي كانت تُحب أن تُفَاجَئ وتطلبُ ذلك. مع إنيس كان هناك القليل جداً من المداعبات والقبل - كانت تُثار بسهولة - وكانت تفضل وضعية أن تكون فوقي وكانت ترغب بأن يتم ذلك بسرعة. لم تصمد التنويعات كثيراً بالنسبة لها. لم أعتقد أن ذوقها البسيط يستطيع أن يتحمّل اهتمامي. ولكنها تحمّلتْ. وجدتُ الجنس معها مُشْبِعاً بشكل عميق ومؤثراً. لم أعرف أبداً إن كنت أستطيع أن أشعر فيما بعد بهذا الشعور الجيد. أذكر أنني كنتُ أتطلع للذهاب إلى الفراش كل ليلة. أنتظر أن تنهي ما تقوم بفعله، أطلب منها أن تُسرع، وأحياناً أقول حسناً هذا يكفي وآخذها من رسغها. أعتقد أن أحد الأسباب التي جعلتني أحبّ هذا كثيراً هو أنني بدوت كأنني أمتعها كثيراً. (تخطر في بالي فكرة مريعة: هل أبالغ بالقول كم أسعدتُها؟ هل أخدع نفسي، كرجل عادي؟ ربما لم تكن خيبة أملها مني أكثر من خيبة الشريك الجنسي الضجر؟ إذا كنتُ قد أمتعتُها كثيراً، هل ستكون بعيدة هكذا؟ ربما، مثل "بوفاري"، سلّمتُ بسعادتها جدلاً؛ وربما، مثل "إمّا"، عثرتْ على السعادة في مكان آخر. أقاتل الفكرة، تسبّب لي ألماً في معدتي). أحببتُ الأمر معها. احتجتُ إليه. أستطيع القول إن أهميته العاطفية أكبر من الجسدية وإن عواطفي تأجّجتْ من حميميتنا، ثم هدأت. أستطيع قول هذا وأزعم لنفسي نوعاً من الحساسية. ولكن الحقيقة هي أنني استمتعتُ بها، بضمّها ورائحتها وعناقها وتلاؤمي معها. حين أدخله فيها وأسمع نفَسَها الصعب، أشعر بقلبها ينبض وبارتعاش ساقيها. عندها يشتعل جسدي، وكلّ حواسي. كان ذلك ممتعاً، ممتعاً...

لم أدرك حتى هذه الليلة كم افتقدت هذا الجزء من حياتي. فمنذ وصولي إلى الكونغو، نسيتُ تقريباً أمر النساء. لا أستطيع تذكر آخر مرة مارسنا فيها الحب أنا وإنيس.

أثارتْني رؤية مادلين. فيما كان هاوثهوفد يتحدث كنتُ أسلّي نفسي بأخيلة مضاجعة عشيقته. تركتُ النبيذ الأحمر يتغلغل في خيالي، يصبغه ويوسّخه. كان شعرها الأشقر الفضي الكثيف مربوطاً إلى الخلف كالمعتاد، مظهراً عنقها الطويل والنحيل وأذنيها الصغيرتين. أردتُ أن أعضّهما وأهمس أشياء لها.

قال هاوثهوفد: "إنه خطير. إنه أخطر رجل في القارة الأفريقية اليوم".

افترضتُ أنني يجب أن أقول شيئاً ما لجعل الأمر يبدو كما لو أنني مهتم. أبقيتُ عيناً كسولة وقحة على مادلين حين ذكّرتُ ستايب أنه تغني مرات كثيرة بمديح لومومبا. كان حكمه الأخير أنه رجل مميز.

هز ستايب كتفيه: " تصرّفتُ معه بطريقة أخلاقية ملائمة وصادقة، وهكذا فعل برنارد، هكذا فعل الجميع، ولكن باتريس عنيد".

تدخّل هاوثهوفد قائلاً: "إنه غير سويّ. أعتقد أنه ربما يعاني من مرضٍ عقلي".

قال ستايب: "إنه يتعاطى المخدرات".

بدوتُ متشكّكاً.

تابع ستايب كأنه يتفوّه بحقيقة، دون أي تشديد خاص، كأنه متأكد من قضيته: "هذا صحيح يا جيمس. رأيته في مكتبه يتعاطى

المخدرات مع أصدقائه وسكرتيرتين جميلتين يضاجعهنّ أحياناً. في بلادِ رجالٍ يحملون السيوف، إن فتانا هو دي أرتنيان حقيقيّ".

قال هاوثهوفد: "لا شيء لدي ضدّ حكومة سوداء إذا كانت حكومة يقودها رجال مسؤولون".

سألتُ دون اهتمام: "هل في ذهنك رجل مسؤول معيّن؟"

فكّرتُ بتقبيل مادلين. بقيتْ خارج المحادثة، بالكاد نظرتْ إلى جهتي، ولكنني عرفتُ أنها واعية لتحديقتي. اتكأت إلى الخلف على كرسيي، أنهيتُ كأسي ومدّدتُ ساقيّ بشكل مستقيم تحت الطاولة، واضعاً كاحليَّ فوق بعضهما بعضاً. ملأ خادم كأسي.

واصل هاوثهوفد: "هناك كاسافوبو في ليو. اعتاد أن يكون جمرة، إنه معاد للبلجيكيين جداً، وهو رجل منطو على نفسه وانعزالي، ولكنّه صار أكثر استقراراً مؤخراً. في كاتانغا هناك تشومبي. ليس مستقراً مثله. في الحقيقة هو محبّ للنساء ومقامر، ولكنه يعرف كيف يصغي للنصيحة الجيدة من رجال الأعمال".

في جرأة خيالي استحضرتُ صورة مادلين وهي تقف أمامي في جانب المسبح في الريجينا، ترتدي ثياب السباحة السوداء. تذكرتُ الثديين الثقيلين ونتوء اللحم الصغير المنتفخ على بطنها. تذكرتُ عصبيّتها حين حاولت أن "تطبّقني". لماذا لم أستجب للأمر؟ كان بوسعنا الذهاب إلى غرفتها آنذاك. كان بوسعي أن أسندها على الحائط وأنزل حمالة صدرها وألعق حلمتيها. كان بوسعي أن أباعد بين ركبتيها وأضغط بعضوي على عضوها. كان بوسعي أن أديرها وأجعلها تصفع الحائط براحتي كفيها وأشدها إلى الخلف وأنزل ثوب السباحة كاشفاً عن مؤخرتها. لماذا لم أفعل هذا؟ من أجل ماذا أنكر نفسي؟ من أجل إنيس؟ من أجل اللاشيء الذي تقدّمه لي، من أجل الآلام التي تُسلّطها عليّ؟ اللعنة عليك يا إنيس. سأضاجع مادلين، سأضاجعها حالما أحصل على الفرصة.

ـ "إن لومومبا يقبض من السوفييت".

تواصلت المحادثة. لم أسمع في الحقيقة منها شيئاً. نظرتُ بشرود إلى المتحدث الحالي. إنه نندااكا.

قال ثانية: "لومومبا يقبض النقود من السوفييت. هذا لا يُحتمل".

نظرتُ إلى صاحب البار. لم أستطع التفكير بأي شيء أقوله. لستُ مهتماً. أنا مهتم بمادلين فحسب. أنا ثمل تماماً. بدا كأنّ غياب رد الفعل من قبلي سبب الذعر لكل من نندااكا وستايب وهاوثهوفد. تبادلوا النظرات. قدمتُ انطباعاً بأنني رجل لا يتأثر بسهولة.

قلتُ أخيراً: "هل هذا مفاجئ إلى هذا الحد؟"

نظرتُ إلى مادلين. تفوه ستايب بشيء ما حول كيف غازل لومومبا السوفييت، كما غازل هو الجميع. ولكن قبضه للنقود من الشيوعيين في هذه النقطة هو إعلان كبير عن الجهة التي يأخذ إليها الحركة الوطنية الكونغولية وعن خططه عن الكونغو بعد الاستقلال.

وضعتُ قدمي على حاجز كرسي مادلين. حركتُ ساقي وضغطتُ على قفا ساقها تحت الركبة. نظرتْ فجأة إلى الأعلى. التقطتُ نظْرتها.

قال هاوثهوفد: "لدينا نسخ من السجلات المالية: المعلومات، والتحويلات، وعمليات السحب".

ضغطتُ. رفعتْ مادلين كأسها وارتشفت رشفة ضئيلة. لعقتْ ببطء شفتها السفلى، وضعت الكأس، خصّتني بنظرة، ثم استدارت إلى الآخرين. أعلن نندااكا أنه سيقود فئة منشقة من الحركة الوطنية الكونغولية. قال إنه سيشق الحزب إلى حزبين.

هززتُ رأسي معبراً عن الفهم، مفكّراً بمادلين وبراحتي كفيها على الحائط، وثوب سباحتها مُنزل حتى الكاحلين.

لخّص هاوثهوفد: سيحدث انشقاق في الحركة الوطنية الكونغولية حالاً. ولن يقبل رجال الأعمال برنامج الحزب. ولن يقبله ضباط القوة العامة. ولن يقبله الجنود السود. ولن تقبله كاتانغا. اختتم هاوثهوفد بسرور: انتهى باتريس لومومبا.

أثناء تناول البراندي حدّق هاوثهوفد بي، صامتاً وبارداً. لم أكترث. شعرتُ بأنني الشبل ينظر إلى الأسد الكهل. كانت مادلين تجلس بعيداً عني قدر الإمكان وتركّز الانتباه على عشيقها. حاول ستايب أن يغطي حديثه القصير. لم يكن جيداً في ذلك.

سأل هاوثهوفد فجأة إن كنت أكسب رزقي من الصحافة. كان هناك تعليق لاذع في نبرته.

قلت: "ومن الكتب".

ـ "الكتب؟"

ـ "أنا أنهي الآن روايتي الرابعة".

نظر إليَّ باحتقار، استطعتُ أن أتبيّن كيف أن كلمة رواية، المنطوقة أمامه، بدتْ ضعيفه. ولو قلتُ إنني أحبُّ أن أبني زوارق نموذجيّة أو أجمع طوابع بريدية لما نظر إليّ باحتقار أقل.

لأول مرة في تلك الليلة شعرتُ بأنه انتُقص من قدري، أنني خُذلتُ فجأة، وأنني ذعرتُ قليلاً، وكله بسبب ما فعلتهُ. حتى ستايب، الذي يحب الكتب، يفكّر، في أعماقه، أن لا قيمة للكتاب. أنهيتُ أخيلتي حول مادلين؛ تلاشى شبه الانتصاب الذي حدث لي منذ العشاء.

انطلقنا ظهراً في اليوم التالي، بعد مقابلة رسمية مع نداكا. وفيما كان أوغوست يحمل حقائبنا في الشيفروليت، أسمعتْني مادلين بأنها ستكون في ليو الأسبوع القادم.

* * *

كان طريق العودة إلى كاساي نفقاً إلى البؤس والأسى. فقد كان الدمار مرعباً والقرى والمساكن محروقة، وممهدة بالأرض. وكان اللاجئون يسدّون الطرقات.

كانت غرفة الصف المسقوفة بالقش محروقة حتى الأرض. وكان خنزير صغير وردي اللون بساق خلفية ملتوية يشمشمُ باحثاً في الأوساخ ولكن بخلاف هذا لا شيء يتحرك. كانت هناك بقع سوداء، يغفّ عليها الذباب على الأرض، ربما بقع دماء. وحين وصلنا إلى موقف من أشجار الأكاسيا رأينا الجثث الأولى. كانت تتدلى عارية ومبتورة من الأغصان بين أعشاش طيور الحبّاك. الجلود مشدودة ومنتفخة، وكأنها منفوخة بالهواء. سرتُ على الطريق المهجور مع ستايب. كان يحمل مسدسه.

قال: "ما الذي كنتَ تفكر به حول مادلين ليلة أمس. أعتقدت أنك كنت ستخرج عضوك في أية لحظة وتبدأ التلويح به".

لم أقل أي شيء. شعرتُ بالارتباك. إن التفكير بإنيس يُثقل قلبي. تمنّيتُ لو أنني في ليوبولدفيل، لو كنا خارج هذا المكان الكريه والدبِق، الذي لا اسم له.

ناظراً حولي رأيتُ شيئاً ما يستلقي على حافة الطريق بدا مألوفاً لي على نحو كريه. إنه مغطّى بعباءة جيّاشة من الذباب الطنان. إنه عضو، ساق، مقطوعة من الأعلى؛ ما يزال عظم الحوض متّصلاً بها. بعد مسافة قريبة كانت يد، ثم أخرى. كان هنا شيء يستلقي في

العشب. شيء ممتد وملتفّ. كنت على وشك أن ألتقطه حين طارت سحابة صغيرة من الذباب فجأة ورأيت أنّ هذا الشيء متصل بعضو رجل. أين المالك؟ أية آلام شعر بها؟

نادانا أوغوست. سرنا عائدين إلى الأشجار. لقد عثر على كليوفاس. كانت قدما المدرس العريضتان والمسطحتان منتفختين. ترك له قَتَلَتُهُ قميصه وربطة عنقه، ولكنّهم سرقوا بنطلونه القديم المرقّع. والآن أعرف من هو المالك. ما الذي نستطيع فعله سوى النظر؟

* * *

الفصل الحادي والعشرون

إنها تكرهني الآن. تمقتني. لا بأس. أنا فخور بما فعلتهُ وأستمتع بغضبها. فقد أصبتُ هدفي أخيراً وآلمتُها.

قلتُ مبرّري بصوت حادّ، صَرَخْتُ معبّراً عنه بأعلى صوتي في نشوة غضب. نعمْ، قدَّمَ لي ستايب القصة، وجميع كلماتها صحيحة. أخبرني نداكا بنفسه. أغضبتْ المقالة الأولى البلجيكيين ولكن هذه أغضبت لومومبا. إذاً ماذا؟ هذه هي المشكلة مع الحقيقة، يا إنيس، تظهر أين تشاء. لا يعني هذا أنك ستعرفين أي شيء عن الحقيقة. كيف تستطيعين ذلك حين يكون كلّ ما تفعلينه هو استنباط مدائح للقائد العظيم ومداهنة تثير الغثيان لحزبه وبرنامجه؟ كل ما كنتُ أفعله هو الإبلاغ عن الحقائق.

ردّتْ عليّ صائحة: لا تقذف الحجر وتخبئ يدك. هل ما تفعلينه هو صحافة؟ أهي صحافة صادقة؟ حتى غرانت ليس متحزّباً هكذا. أكره ما تفعلينه يا إنيس، أكره شعاراتك المُتَقَيّأة التي لا هدف لها. هذا يحطّ من قدر مهنتك. إنك تجهلين الاستجواب الذاتي. أين استقلالية موقفك؟ أين مسافتك النقدية؟ كان يجب أن أقول هذا منذ وقت طويل. لن أعرف أبداً لماذا لم أفعل هذا.

هاجمتْ على طول الخطوط المعتادة: إن ما هو مهم هو الوقوف إلى جانب المُضطَهدين، الوقوف معهم حتى لو ارتكبوا أخطاء، وعدم الانحراف، والمحافظة على رؤية واضحة لما هي المسائل الحقيقية ومن هو العدو.

ـ اكبري، يا إنيس. اكبري وانضمّي إلى العالم الحقيقي، حيث الأشياء ليست دوماً سوداء وبيضاء. انضمّي إلى العالم الذي توجد فيه المفارقة، اقرأي إمبسون وستكتشفين أنه من الممكن الإيمان بأن البشر مذنبون وغير مذنبين في آن واحد؛ سترين أن المبادئ تتغيّر وأنّ الناس شكاكون وضعفاء.

ـ آه ضعفاء؟ أخبرني عن الضعفاء! كم أنا ضعيف كي أنكر من أنا، كي أنكر جنسيتي، كي أنكر تاريخي، ومكاني، كي أنكر اسمي. شيموس! تصرخ بي. شيموس! اسمك ليس جيمس.أنت شيموس. لماذا تتحدث بلكنة إنكليزية؟ من أين أتى هذا؟ ماذا تحاولين أن تبرهني بهذا؟

ـ أنه لا يهمّ. أنه قديم وقَبَلَيٌّ وتافه.

ـ أنت تشعر بالعار. أنت تشعر بالعار حين يجب أن تكون فخوراً! إذا لم تكن تشعر بالعار سيكون هذا في كتبك. كيف يمكن أن تكون من إيرلندة دون أن تختار طرفاً تنحاز إليه؟ تنظر، وتنظر بعيداً.

ـ لأن هذا قديم وقَبَليّ وتافه، ولأنني كاتب وأرى جميع الجوانب. أعمل بالكلمات، أنا عامل بالكلمات ولا يمكن أن تُجعل هذه الكلمات تعمل لآخرين، فهي ليست خدم الحزب أو الموقف. ربما تزدرين هذا، ربما أنتِ ورفاقك الساخرون تعتقدون بأن هذا ثمين، ولكن كلمات الكاتب هي تبريرها الخاص. يجب أن تكون حقيقية إذا كان يجب أن تكون، إذا كان لها معنى.

ـ تقولين إنّ دانتي كتب أن الأمكنة الأعلى حرارة في الجحيم محفوظة للذين يظلون محايدين في أوقات الأزمة الأخلاقية الكبيرة.

أين هذه الأزمة الأخلاقية الكبيرة؟ أرى الطموح، وأرى الفساد، وأرى الرجس، وأرى الخداع والخيلاء وعبادة الذات. أين الأزمة الأخلاقية؟

تقـولين إن الكلمـات بـاردة بالاحتقـار، وهنـاك أوقـات مـن الضروريّ أن تكون فيها أكثر من مجرد كاتب.

***

رحلتْ. أخذتْ أشياءها. لا أعـرف أيـن تعـيش. لا بـأس. لـستُ حزينـاً. في الواقـع انتـابني شـعور عظـيم بـالتحرّر. عـشتُ في تخمـة احتقارها طويلاً. كنتُ متعباً من كلماتها الشتائية. لا أشتاق إليها مطلقاً. في بعض الأيام لا أذكر حتى بأنني فكرتُ بهـا. ليـست في الـشقة، في نسيجها أو جدرانها. لا أستطيع شمّها، لم تترك أيَّ أثر. كما لو أنهـا لم تكن هنا أبداً.

استمتعتُ بروتيني. لم يعـد علـيّ أن أبنيـه حولهـا. إنـه مكـسبي في النهاية. كانت مهيمنة بحيـث أنهـا لـو أمـضت في المـنزل بعـض الوقـت لكانت حاجاتها هي الأساس الذي يدور حوله كل شـيء. كانـت عقـارب الساعة مثبتة حول ذهابها وإيابها. أنا متحرّر من الزمن. متحـرر مـن البقـاء مستيقظاً منتظراً سماع دورة المفتاح في القفل. متحرر من كل هذا.

أنا مندهش قليلاً من أنني أتعامل مـع الموضـوع جيـداً. سـأل دو شوت إن كنت علـى مـا يـرام، وكـذلك سـتايب. في إحـدى الليـالي أخذاني إلى مطعم سابينا وحـاولا جعلـي أتنـاول الطعـام. قلـتُ لهمـا بصدق إن شهيتي لم تكن أبداً مفتوحـة دائمـاً، وأريـد أن أفقـد بعـض الوزن. أكّـدتُ لهمـا أنـني لم أشـعر بتحـسّن كهـذا منـذ شـهور، بـل سـنوات. إن النبيـذ جيـد علـى أي حـال. بمـاذا كنـت أفكّـر، سـألتُ بخطابيّة، حين أملأ كأسي. لماذا وضعتُ نفسي في هذا العذاب؟ قلتُ إنني بدأت أعتقد أن الأمر لم يكن أكثر مـن كبريـاء. لم أسـتطع تحمـل فكرة الصدّ، ولهذا قمتُ بحملة عبثية ومفرطة وظّفـتُ أثناءهـا جميـع الوسـائل المتاحـة للعاشـق المـصدود بمـا فيـه الاسـتخدام التكتيكـي

للدموع. أنا أبكي! جرّبتُ كل شيء استطعتُ التفكير به ـ وأكثر مما أنا فخور به ـ لجعلها لي ثانية. اعتقدتُ أنني إذا لم أعيدها إليّ سأنتهي. ولكن أنا هنا وانظروا! لم أنته على ما يبدو. لدي حياة أمامي. حياة جيدة. كان يجب أن أدعها تذهب حين غادرت لندن وأرحت نفسي من وجع القلب والإزعاج. كان يجب أن أقول: "اذهبي، يا إنيس. اذهبي إلى الكونغو واعثري على أبطالك الجدد". الأمر واضح لي الآن. والآن ذهبتْ وأنا بخير. أنا حقاً بخير. ابتلع ستايب لقمة من بلح البحر وتناول رشفة من خمرته. حدّق إليّ بنظرة مضحكة. وضع دو شوت يده على ذراعي وسألني إن كنت أريد أن أمكث معه ومع ولديه لفترة. أُغريتُ للحظة ـ منزل، منزل أسرة يمكن أن أكون جزءاً منه. ولكنني بخير. حقاً. شكرته على كرمه، وعلى اهتمامه. إنه رجل لطيف جداً. ولكن لا... لا... أنا بخير. أنا بخير حقاً.

* * *

عملتُ وواصلتُ العمل. كنتُ في نوبة عمل. في الأصائل والمساءات كنتُ أتحدث مع المصادر، أصقل الصلات، وأقوم بمقابلاتي. أنتهي في الوقت المحدد. أثنوا عليّ في الجريدة وزادوا من مرتبي. كان عليهم أن يفعلوا هذا. كنتُ أحصل على دفعات نقدية سلفاً. وصاروا يطلبون مني الآن مقالات رأي وتقارير إخبارية مباشرة ومقالات خاصة. وقد أذعن لي غرانت. فأثناء الرفقة كنتُ أنا الشخص الذي يفحص عينيه من أجل الموافقة كلما خاطر بتعليق. أعرف أنه يكره نفسه بسبب التذلّل، ولكنني أنا، كنتُ في ذلك الوقت ملك القلعة الصغيرة للمراسلين، مهما كانت درجة استيائه من ذلك.

كنتُ أعمل في الصباحات على الكتاب الذي كان يسير على نحو جيد جداً. في اليوم الذي غادرتْ فيه إنيس حللتُ مشكلة القسوة في الرواية. جاءت إليّ في ومضة إلهام. أدركتُ أنني كنت أحاول أن

أكتب شيئاً لم أؤمن به. أدركت في الواقع أنني كنت أكتب محاولاً أن أُسرّ إنيس (جنون ـ متى حدث أي إمتاع لها؟). كانت تشجّعني على استقصاء مشاعر لم تكن هناك أبداً، عواطف شبحية. كنت أحاول أن أكتب عن الألم الذي لم يلعب أي دور في حياتي. كان حلّي هو الحلّ الواضح: أن أفعل ما أفعله على نحو أفضل، أن أعود إلى أسلوبي المعتاد. فككّتُ الرواية وركّبْتُها، جاعلاً منها جافة ولاذعة. صنعتُ فضيلةً من افتقارها للمشاعر. يسخر الكتابُ من الابن لأنه ظنّ أنه يستطيع العثور على أي شيء في والده. لا يوجد أجوبة في الكتاب أبداً. إنه قاس. في غاية القسوة. أحياناً يضحكني. كتبتُ إلى آلن ووعدته بأن أرسل المخطوط في غضون شهر. بدأتُ بوضع خطط لكتابي التالي. سيكون كتاباً كوميدياً عن فتاة جدية التفكير ومثالية ـ صينية؟ روسية؟ تشيكية؟ ـ ربما عضو مبتدئ في بعثة تجارية في وظيفتها الأولى خارج البلاد، وتقع في حبّ شاب رزين متوسط العمر وبالأحرى مندهش ـ وكيل عقارات؟ مفتش ضرائب؟ ـ معتقدة على نحو خاطئ بأنه جاسوس لا يخاف، يخدم الشيوعية العالمية. سأتسلى بها، على حسابهما. على حسابنا.

شعرتُ أنّ كتابتي مختلفة الآن بعد أن رَحَلتْ. أقرُّ بأن ثقتي بنفسي اهتزّتْ بسبب إنيس، وهاوثهوفد، وستايب. أعرف الآن أن ستايب لم يقرأ أبداً أي شيء لي، على الرغم من أنني متأكد من كلام معيّن قاله بأنه طلب الكتب من لندن. أعتقد أنه كان يعني على الأرجح بأنه يريد العودة إليها. اكتشفتْ إنيس هذا منذ البداية. كان يطريني، يفعل ما يفعله الجواسيس: يعثر على مدخل إلى شخص ما من أجل احتمال استخدامه. هذا مؤلم، عليَّ أن أقرّ، لأننا صديقان. أسهم خداعه في الشكوك التي انتابتني. بدأتُ أشعر بأن إنيس على صواب، وأن الكاتب مجرد أناني، الذي بعد أن ينفخه الاحترام الذي تقدمه الكلمة العادية المنشورة وحقيقة أن جميع الأفعال وجميع الأشخاص عرضة للاستدعاء النهائي في

الطباعة، يخدع نفسه ظانّاً أنه يستحق أكثر مما هو، لدرجة أنه يقنع نفسه بأنه نوع من الكائن الخاص، وبأنه حساس وغير هيّاب في آن، ومستقل ويحتاج إلى الحماية الأبدية في الوقت نفسه.

ولكنني الآن أرى أنّ رواياتي ـ مهما كانت ميّزاتها، مهما حوكمت لدى النشر ـ تمتلك أهمية. إنها البرهان على ما أنا، على ما أملك لقباً من أجله. للمرة الأولى منذ وقت طويل، وبدقة مفاجئة، أرى نتيجة مهنتي. أفهم قيمتها وقيمة ما أفعله. من المدمِّر أن تكون مُحاطاً بكثير من الناس الذين يلعبون دوراً في هذه البلاد والأشياء التي تحدث لها، بأشخاص يمكن أن تجعل عواطفهم واهتماماتهم الناظر يبدو عقيماً، وهاوياً. ولكنني كنتُ أسمح لنفسي بأن أنحدر. لدي كتابي وكلماتي ومسافتي وعيناي المنصفتان؛ لدي الحقوق ليس فقط لقصتي، ولكن لقصتهم. إن القصة المكتوبة تستمر، تعمّر أكثر من المشاركين كلّهم. في النهاية، ستعرّفهم. ستكون النَفَس الذي تعيش عليه ذكرياتهم، واللسان الذي يستدعي أسماءهم.

ستكون لي الكلمة الأخيرة حول هاوثهوفد وافتراضاته المتعلقة بالملكية. ستكون لي الكلمَة الأخيرة حول ستايب وخداعاته. وستكون لي الكلمة الأخيرة حول المرأة التي أحببتها مرة. أنا متحرّر.

* * *

اتصلتْ مادلين. مادلين وفمُها. هل أنا غير عادل معها؟ كان اشتهائي لها كبيراً، وحاجتي إليها ماسّة. كانت في أحد منازل هاوثهوفد في ليو، قرب الكوليبري في يوجين هنري. المنزل فارغ، هي وحدها. هناك سنستهلك انجذابنا العدواني. أستحم وأحلق ذقني، أشتري الأزهار والشمبانيا. لم تكن إنيس تمتلك وقتاً لأدوات الإغواء. أنا، من ناحية أخرى، اشتقتُ إلى هذه الأدوات.

* * *

مع من أمزح؟ أنا في الجحيم. لا أستطيع تحمّل بطء اليوم. بداية الغسق تسبِّب لي الذعر. في هزيع الليل أجنّ. أنا في متاهة، وفي تشوش، ومشبع بالكآبة، ولكن لا يوجد إلا صدى اسمها على شفتيّ المتيبّستين... إنيس، إنيس، إنيس... في الصباحات أستيقظ وليست هناك. اعتادت أن تنظر إليّ بعينين زرقاوين متألّقتين وتقول: صباح الخير، تقولها بعذوبة، تقولها وكأن اليوم مقدر عليه أن يكون جيداً لأنني أستلقي قربها. تُركتُ بأقل ما حصلتُ عليه من قبل؛ مُنح المزيد لي، أُخذَ المزيد. أنا حطامُ ما كنتهُ. أنا غاضب ومتألم. أكوّم الاتهامات المضادة عليها. كنتُ على صواب لدى اشتباهي بالأمر بعد أن قالت إنها تحبّني حين توقفنا تحت المطر على شاطئ البحيرة في بلفاست. كيف كان بوسعها أن تحبّني آنذاك؟ بالكاد كانت تعرفني. كان حباً كثيراً وسريعاً ومستعجلاً. إن حبها مثل إشعال عود ثقاب. يتوهج فجأة متألقاً ويخمد فوراً. لماذا تركتُ نفسي أُفْتَن على حين غرة هكذا؟ لماذا لم أعامل الأمر كأنه علاقة أخرى؟ لماذا جعلتُها تقترب؟ إنها غير قادرة على الحفاظ على أيّ ارتباط عميق. تعبّر عن مشاعرها بشكل دفّاق ورقيق، ودون تمييز، لا وجود لإمكانية الارتباط الحقيقي المستمر. يقول أصدقاؤها إنها في غاية الدفء، ولكنّ هذا الدفء لنفسها. واعيةً لما كانوا يقولونه، واعيةً لسمعتها، ومراجعاتها، ترفلُ في وهجها الخاص. هل هذا الدفء حقيقيٌّ؟ إن كل ذلك العطاء، والإيثار، والتعاطف العنيد مع المداسين يتعلق بها، يلبّي حاجاتها، وليس حاجات الآخرين. فقد كرهتُ دوماً اعتبارها لنفسها أكثر أخلاقية من الآخر، وتبريراتها غير القابلة للدحض: كيف يمكن أن تنقد شخصاً يردّ عليك بأنه يخدم الآخرين؟ يصبح نكداً ومغروراً. إنها من أكثر الأشخاص الذي سبق وقابلتهم أنانية. إنك أنانية يا إنيس، هذا ما أنت عليه، عاهرة صغيرة أنانية أقنعتْ نفسها بأنها قديّسة القضية! لماذا لم أتخلّص من أنانيتك وازدرائك لي وكلّ ما فعلتِهِ بي منذ وقت طويل؟

* * *

أتفقّت. بعد أن أنفث سمّي أتفتّت. أعتـذر لهـا في رأسـي، بتـوق وخضوع. أصرخ أنني لم أعن أيّاً من هـذا، أنـني منزعـج فقـط، أنـني مشتاق إليها وإلى الحياة التي عشناها.

* * *

قرّرتُ أن أغادر الشقة قبل الانتخابات تماماً. لم أعـد أسـتطيع تحمّلـها. عثرتُ على منزل أجرته معقولة في غـومبي. في الليلـة الـتي سـبقت الانتقـال حزمـتُ آخـر ممتلكـاتي. وبينـها كتـاب رسـائل سـجناء المقاومـة الإيطاليـة المحكوم عليهم بالإعدام. كان أول هدية قـدمتْها لي. قالـت إن هـذا الكتـاب أثّر بها أكثر من أي كتاب آخر. قالت إنـه سـيكون جيـداً للغـتي الإيطاليـة لأن اللغة بسيطة. لم أفعل أي شيء سوى نفض الغبـار عنـه. الآن أجلـس وأقلـب الصفحات. أستطيع أن أقرأ معظمـه، حـتى دون قـاموس. أصـلٍ إلى رسـالة كتبها أحد الأنصار من سان ريمـو، وهـو خيـاط عمـره 61 عامـاً. طولهـا 12 سطراً. يقول لأطفاله وأمه وشقيقاته وأشـقائه إنـه أُبلـغ لتـوه إن النـار ستُطلق عليه. يطلب من ابنه وابنته أن يكونا جيدين مع بعـضهما بعـضاً، ويطلـب مـن أمه أن تسامحه على الألم الذي سبّبه لها. ينهي بقبلات للجميع، وأؤكـد لكـم بكل شجاعة، قبلاتي للجميع، قبلات، قبلات. كان صـدق العاطفـة يكمـن وراء الكلمات البسيطة، بسبب الظـروف الـتي كُتبـت فيهـا. كـان الرجـل في زنزانته، ينتظر الفجر، الخطوة خارج بابه. لا أسـتطيع تحمـل ذلـك. قـبلات للجميع. قبلات، قبلات، قبلات. تتدفق الدموع علـى وجهـي. أنـا لا أبكـي عليه بل عليّ. يختزلني كلّ شـيء إلى دمـوع الآن. لا أسـتطيع تـصديق أنّـني سأُحرم منها إلى الأبد. إنه كالموت.

في الـصباح التـالي، فيمـا كنـتُ أنتظـر مجـيء دو شـوت كـي يساعدني، جلستُ إلى الطاولة الصغيرة أمام النافذة وبدأتُ بالكتابة.

آه يا إنيس، لماذا أكتب هذا فيما أعرف أن لا أمـل يُرتجـى منـه، أن الشيء الوحيد الذي لن تسامحيني عليه أبداً هو الشيء الذي فَعلْتـهُ؟

بقيتُ مستيقظاً ليلة أمس، متيقّظاً لجميع الأصوات، مفكراً وآملاً أنه يمكنك أن تأتي إلى المنزل، إليّ وتجعلي كلّ شيء أفضل. لم أعتقد أنك ستفعلين هذا، ولكنني لم أستطع إيقاف جسدي، الذي رفض أن يهدأ، أو ذهني، عن تخيّلك مرة ثانية بين ذراعيَّ.

أبحثُ عنكِ في جميع الأمكنة، يا إنيس، وأعرف أنني لن أعثر عليك أبداً. كان يجب ألا أجيء إلى هذا المكان الكريه. أنا خارج سياقي، ومن الصعب أن أبدو جيداً حين لا أملك مكاناً. ومع كل يومٍ يمر أشعر بأنني أدنى قيمة. لم يكن هناك لك أي شيء كي ترينه فيّ، أو طريقة كي أبهرك. إن الصديق الوحيد الذي لديّ تشمئزّين منه.

بدأتُ أفكر بأنك تكرهينني أيضاً بسبب عدم قدرتي على الاصطفاف مع طرف، ورفضي النظر إلى هذا الأمر بجدية. ولكن هكذا أنا، تعرفين هذا. هذا عملي، وماضيّ، إنه من وماذا أنا. أعتقد أنك اشمأزّيتِ منّي جسدياً أيضاً: الشَعْر الذي لا تحبينه، العينان المتعبتان دوماً، وجه نحيل جداً، وخصرٌ يزداد سمنة؛ وأمور أخرى تتعلق بي لا أستطيع أن أعبّر عنها بالكلمات. لم ترغبي أبداً بلمسي، وكنتُ أرغبُ بك كلَّ يوم. لا أفهم، لا أفهم. هل السياسة مهمة إلى هذه الدرجة؟ ماذا عن الحب؟ ماذا عن حبنا؟

هل أنت هناك، يا أيتها الأميرة الذهبيّة؟ هل تقرأين هذا، يا حبي؟ لا تخذليني.

أوصلتُ الرسالة باليد إلى المكتب الصغير قرب سوق السكان المحليين. بعد بضعة أيام زرتُ الشقة كي ألتقط بريدي فاكتشفتُ أن الرسالة أُعيدت دون أن تُفتح. عرفت بالطبع أنها ستُعاد. إن إنيس صارمة. قالت لي إنها لن تتحدث معي ثانية. لن تتحدث أبداً.

* * *

هل هناك شيء مبالغ به حيال كل هذا؟ شيءٍ مضخّم؟ هل أحاول أن أبرهن لنفسي بأنني قادر على الحب؟ هل هذا كل ما يتعلق به هذا الأمر؟

* * *

الجزء الثاني

إيرلندة وبريطانيا

الفصل الأول

هبّتْ العواصف بعد الغداء. هبّتْ الريح، ولمعُ البرق في أقواس متألقة ومتفرّعة وتغيّر النهار في دقائق إلى فجر زائف متجهّم. من مونت ستانلي استطعتُ أن أحدّد اقتراب المطر من مكان بعيد قليلاً: فمن ناحية الغرب، حيث المحيط، اندفع جدار رماديٌّ مائل، تقدّم في هبوبه غازيّاً فوق الغابات والشلالات والمدينة كي يطرق على السطوح القصديرية وإسفلت الجادات.

بعد كل هذه الشهور يجب أن أعتاد على أوقات بعد الظهر المضاءة بالكهرباء ولكنني ما أزال مفتوناً بها. حين أغمضُ عينيَّ تأخذانني إلى مكان على حافة الذاكرة، حيث لا أستطيع الذهاب، حيث أنا صغير ومحمومٌ وخائف. تأخذانني إلى غرفة طويلة بيضاء عالية السقف. يتوهج دهانُ الأرض الخشبية الداكنة بنظام مكان يهيمن عليه الصمت. تندفع الريح على زجاج النوافذ الكبيرة والتي تتراقص عليها الانعكاسات وترتعش الأرواح. في أعلى الجناح فتى يبكي وهو نائم. وعبر فوضى حمّاي أستطيع سماع صوت أمي. لا يريدها الأطباء والممرضات أن تأتي إليّ. إنها امرأة صغيرة وخجولة. تدخل خائفة ومرتجفة وتمقت المجابهة. ولكنني ولدها ولن يستطيع أحد إبعادها عني. عند طرف السرير تمسك يدي وتحميني من الأشباح الطويلة.

* * *

كان أبي الابن الثالث والأصغر لتاجر أجواخ في ديري. وكان والده واعظاً عادياً ومستشاراً نقابياً في تلك المدينة المهجورة. كان الأبناء الثلاثة أذكياء ولكنَّ ويليم هو الوحيد الذي تمكّن من الدخول إلى جامعة كوينز، حيث درس اللغة الإنكليزية. كان طالباً متميّزاً ومتألقاً كما قال بعض أساتذته، وكانت هناك وظيفة عظيمة تنتظره. بعد أن نال شهادته في بلفاست، حصل على وظيفة مدرّس في مدرسة إعدادية في أوكسفورد. في ذلك الوقت كان قد ارتدّ كي يتزوّج أمي.

كانت آخر مرة رأيته فيها في لندن بعد الحرب تماماً حين جاء إلى غرفتي المستأجرة في إسلنغتون. كنتُ قد سُرِّحْتُ من الجيش قبل بضعة أسابيع وقمتُ بترتيبات كي أواصل دراستي. لم أعتقد أنني سأراه ثانية. عثر عليَّ بواسطة أمه، وهي امرأة لطيفة تابعتُ الاتصال معها بعد أن أُطيح بعائلتنا. بدا منهكاً ورثّ الثياب. اكتهل بشكل كبير في السنوات الاثنتي عشرة منذ أن رأيته آخر مرة. فقد تلاشت الملامح الرقيقة، واختفت الثقة والبهجة السهلة.

كانت الساعة حوالى الحادية عشرة صباحاً وكان ثملاً تفوح منه رائحة الخمر. انبعثت الرائحة الكريهة من ثيابه وفمه وجميع خلاياه. في البداية لم أرد أن أتبادل معه أي شيء، ولكنني وجدت صعوبة في أن أخذل ذلك المحطّم. أعدّتْ لنا السيدة ليماس الشاي وشربناها في غرفتي والنوافذ مفتوحة. كان الوقت أواخر فصل الصيف والجو دافئاً. وكنت أستطيع سماع أصوات السيارات في طريق هولوي.

بدأ بسرد حكايات المحنة الخاصة به: لا شيء في العالم نجح معه، كل ما لمسه منذ أن ترك أمي تفتت إلى غبار. كان الجميع ضده وهل لدي بعض النقود التي يمكن أن يستدينها؟ صبّ الويسكي من زمزمية محرقفة في شايه. رفضتُ عرضه لتناول رشفة منها. كانت

لكنتهُ الخاصة بديري ما تزال قوية ويمتلك نوع الهوية الإيرلندية التي تحرجني أكثر من غيرها، إذ كان مليئاً بالعاطفة العارفة والمبالغة، والطرفة والمكر والتواصل عبر الأداء. كان نوع الرجل الذي تشكّل قصة مرويّة جيداً بالنسبة له ضماناً للهرب، مهما كانت منافية للعقل: ما من مأزق شديد جداً، ما من نجاة قريبة، لا تلميح غير مريح جداً ولكن قصة ستنقذك. أمقتُ هذا.

دفّأه الشراب، جعله أكثر سوءاً. تحولّتْ حالات بؤسه إلى انتصارات قبل فوات الأوان: الثروات التي حصّلها، والنساء الجميلات اللواتي أحببْنه، الأمكنة والأشياء التي رآها. عُرضت عليه لتوّه وظيفة في شركة رئيسية في المدينة براتب ضخم. لم يندفعْ نحوها. لديه قطع حديد أخرى في النار. أنهى الزمزمية. نجحتُ في إخراجه من الغرفة مع ورقة نقدية من فئة العشرة شلنغات ووعدٍ بأننا سنلتقي على الغداء الأسبوع القادم.

على الباب، مع السيدة ليماس التي بذلتْ جهداً حقيقياً كي لا تختلس السمع، كانت هناك لحظة صدق واحدة. نظر إليّ ويليم من الكُرَتين المحتقنتين بالدم لعينيه الكهلتين وقال فجأة بهدوء: "كنتُ مغفّلاً. أنا آسف". تمتمتُ شيئاً قائلاً بأنه لا حاجة كي يعتذر على أي شيء. ثم تمالك نفسه وقال بابتسامة شجاعة: "ستتغيّر الأمور. سأتغيّر. سترى". صافحني، وقال كم كان رائعاً أن يرى ولده، وقال ثانية: "سأتغيّر". قالها بقوّة، بقناعة، كما لو أن قولها كان كافياً لجعلها حقيقية.

حين ذهبَ فكّرتُ بزيارته. لم يفاجئني أنه لم يسألني عن أمي. كان ويليم يشعر بالخطيئة. ولكنه لم يسأل سؤالاً واحداً أيضاً عن نجاحي الأكاديمي أو مستقبلي وخططي. وليس حتى عن الحرب التي شاركتُ فيها. كان منشغلاً جداً بتمويه فشله الخاص، عني وعن نفسه. تناولت كتاباً لكلارندون على الرف، فتحته عشوائياً وقرأت عن الدسائس في بلاط تشارلز الأول في أوكسفورد.

في يوم موعد غدائنا، وفيما كنتُ أرتدي سترتي وأفحص الفكّة في جيبي من أجل أجرة الباص، خطر على بالي فجأة: ما الذي أفعله؟ لماذا يجب أن أقابل هذا الرجل؟ بالكاد أعرفه ولا أحب القليل الذي أعرفه، لا شيء مشترك بيننا، لا شيء نقوله.

غادرتُ المنزل ولكنني مشيتُ عابراً موقف الباص وبعيداً حتى أنجل حيث ذهبت إلى قناة ريجنت، متوجّهاً شرقاً إلى حديقة فكتوريا. هناك جلستُ عند البوابات المقفلة وراقبت البط والزوارق في الماء. صارت الأمور مختلفة الآن ـ قلتُ لنفسي ـ كنتُ مختلفاً. كنت في الخامسة والعشرين من عمري وبعد ثلاث سنوات تقريباً في الزيّ الرسمي صرتُ على عتبة حياة أخرى. تمت الموافقة على موضوع شهادتي للدكتوراه: "التأثير السياسي لتضخم الأسعار في إنكلترة في القرن السادس عشر". قمتُ بزياراتي الأولى لمكتب السجل العام، وكنت أعثر على طريقي في أرشيف خزانة الدولة ومكتب المحفوظات، وأتعلم فك شفرة خط تيودور. وكمثل رجل يقذف علبة سجائره الأخيرة بعيداً كي يبرهن أنه جدي حيال التوقف عن التدخين واجهتُ والدي كي أعلن قطيعة نهائية مع تفاهة وكآبة حياة سابقة. سأتحرر من بلفاست. سأتحرر من حزن وألم عائلتي.

غادرتُ منزل السيدة ليماس في نهاية الأسبوع، وانتقلتُ إلى غرفة مستأجرة جديدة في كلابهام. لم أترك عنواناً ولا أعرف إن حاول ويليم العثور عليّ. في مكان ما في رأسي أتصوّره على العتبة يواجه السيدة العجوز، منذهلاً وعابساً ومتألّماً. أتخيّله وهو يشكرها ويعتذر على إزعاجها، ويستدير مبتعداً. لا أشعر بالذنب على هذا. لم أره بعد ذلك أبداً.

* * *

رأيتُ الصور. كانت نوالا فتاة شابة جميلة. كانت صغيرة ونحيلة، بشعر بني كثيف كانت ترفعه إلى الأعلى كما درجت الموضة في ذلك الوقت. كانت الأكبر بين تسعة أطفال ـ كان هناك اثنان توفيا أثناء الطفولة ـ وتركت المدرسة في الثانية عشرة من عمرها كي تعمل في مصنع خيوط الكتان قرب شارع ألبرت. وُلد أبوها في مقاطعة أنتريم ولكنه انتقل إلى بلفاست بحثاً عن عمل. كان رجلاً هادئاً يحبّ أن يلعب الشطرنج ويدخن الغليون. توفيّت أمّها في مشفى الحمّى في سن الرابعة والأربعين، بعد ستة أسابيع من إنجاب ولدها الأخير، الذي يعاني من تشوّه خلقي في القدمين.

حين تزوّجتْ من ابن تاجر الأجواخ في ديري، كان للوالا أحلام بأمور أروع. لم تستطع الأوساخ أن تخمد أوهام شبابها. كانت ذكية. نجحت في الخروج من المصنع إلى مكتب السنترال، ومن هناك وضعت عينها على وظيفة في التمريض. لم تتوقف قراءتها على بوابات المصنع. كانت دوماً تخفض رأسها فوق كتاب. أحبت الأوبرا. كان بوسعها أن تغنّي الألحان من أوبرا "لابوهيم". كانت مرعوبة من فكرة التعقيد. لم يبق اليوم سوى لمسات قليلة من تلك الادعاءات الحلمية المبكرة؛ على الرغم من أنها في الحقيقة رجعت إلى سلوكها العادي كامرأة من بلفاست، وُلدت في فولس رودز. هذا ما هي عليه؛ ولكنّها لم تتوقع أن مغازلتها المتهورة ستقود إلى ما قادتْ إليه.

اعتقدتْ أن ويليم سينقلها إلى حياة مختلفة، إلى عالم تخيّلتْه عبْر الروايات والأفلام. هذا الرجل الذي أحبّته بإخلاص وعمق أجد من المستحيل فهمه، سيأخذها إلى ذلك العالم. سيكون هناك منزل رائع، وأصدقاء أذكياء، وحديث ذكي ومسلّ، وحفلات رائعة.

ما الذي حصل عليه من الزواج؟ زوجة جميلة، نعم. الإخلاص، نعم، الهيام. وأمور أخرى. كان بروتستانتياً في وقت بدأ

فيه يصبح موضة أن يكون المرء كاثوليكياً في الدوائر التي تاق أن يُقبل فيها، أو بصيغة أفضل، أن يرتد.

كان لديها إيمان بسيط كالصخرة، النوع الذي يراه بعضهم ساذجاً، وآخرون عميقاً. بالنسبة لوالدي، منح الإيمان زوجته فتنة آسرة وطبيعية، وأيضاً نوعاً من التصوّف المغري. في كوينز كان له اهتمام خاص بشعراء ما وراء الطبيعة.

ما الشيء الآخر الذي حصل عليه ويليم؟ كانت مرحة وسعيدة، تحبّ الرقص ولها صوت قالت شقيقاتها فيما بعد إنه كان سيأخذها إلى قاعة الحفلات لو كان هناك نقود للتدريب. كان منزلها كله ضجة وصخباً. كان منزله صامتاً ومخيفاً. كان والد ويليم متعصّباً غاضباً وكانت خطواته ثقيلة. كرّس المستشار مساءاته في جيلدهول للقتال ضد روما وعبيدها ذوي الأدمغة المغسولة في أحياء الصفيح تحت أسوار المدينة. حقّق مجده في قصر بنكنغهام بعد سنوات حين تلقى عضويته في نظام الإمبراطورية البريطانية. أفكّر بصور المناسبة ـ التي أرْسَلَتْها إليّ أرملته ـ فأرى رجلاً مغروراً محباً لنفسه، ومختاراً، ومقتنعاً على نحو تعصّبي بخلاصه. شجبَ الزواج. ولم يتحدث مع ويليم بعد ارتداده، ومنع ذكر اسمه في المنزل. أمتلك ذكرى غامضة عن الزيارة التي قام بها بعد أن عدتُ أنا وأمي وأختي من إنكلترة. كنا نعيش في منزل والدها في ذلك الوقت. ظهر المستشار الذي يملك تجارة في بلفاست في ذلك اليوم في الردهة. كان متصلّباً، وكان خداه الهزيلان محمرّين من الغضب وسوداوين من ظل اللحية. كان سالفاه محلوقين حتى الصدغين. أُغلقَ الباب، ولكن شتائمه لم تخفت. بعد أن ذهب، تاركاً ورقة من فئة الخمسة جنيهات، رأيتُ أمي تبكي وهي جالسة على الكرسي. تجمّعتْ شقيقاتها حولها كستارة حول مريض في سرير مشفى.

عادت العلاقة بين أبي وأمي. رجل وزوجة، كاثوليكية ومرتد. جاءا سوية. ولكن ليس لوقت طويل. ففي إنكلترة، صادف خيباته الأولى. كان ريفياً من سكان الأقاليم. ضحك زملاؤه من لكنته التي فعل ما بوسعه كي يخفّفها، ضحكوا من كلمات ديري التي استخدمها والتي حاول جاهداً أن يتخلص منها، ولأنه كان إيرلندياً كانت الشهرة كلَّ شيء. متألماً ومحتاراً بذلَ المزيد من الجهد كي يحظى بالقبول. اشترى المشروبات، ودفع فاتورة المطعم، أقرضَ مبالغ صغيرة وبتلويحة يد لامبالية كان يلغيها متى حان تسديدها. أقام هو وأمي حفلات لم يأت إليها أحد.

اكتشف أن الحصول على زوجة لم يكن في حد ذاته مصدر إحراج، ولكن هذه الزوجة كانت المصدر. لم تكن متألقة والشيء الذي أطراها أكثر ـ بساطتها ـ أُفسدَ بوعيها لتعقيد لم تستطع تحقيقه أبداً، والذي لم تفهمه بشكل كامل على نحو صحيح. كانت ترتبك من الفطنة الذكية الحكيمة والساخرة وتُروّع من عروض التعلم التنافسية. وفي ألبوم العائلة هناك صورة لنوالا في إحدى المناسبات الاجتماعية في المدرسة، في إحدى يديها سيجارة في مشرب، وفي الأخرى كأس نبيذ. بكيتُ في المرة الأولى التي رأيتُها فيها، على الرغم من أنها تبدو سعيدة بما يكفي. أستطيع أن أرى التلهف من أجل القبول، وغياب الأمان. يمتلك الرجال أخيلة عن أنفسهم كمخلّصين؛ لا نستطيع مقاومة ذلك. فالقصص التي نسمعها تتحوّل إلى واجبات نتخيّلها: آنسة في محنة، فارس في درع. ومهما كانت عيوبنا فإنّنا نلحُّ على رؤية أنفسنا هكذا. كان خيالي هو أن أدخل الصورة وأنتزع مشرب السيجارة من يد أمي، ثم، متحدّياً، آخذها بعيداً عن الناس الذين حولها. سيكون عملنا بطوليّاً، لأننا تصرفنا باستقامة، وبكرامة، متجنّبين زيفهم؛ وسنُجعل أكثر بطولية بسبب التحديقات والعداوة التي أثرناها.

ماذا حدث بعد ذلك؟ إن هذه في الحقيقة فنتازيا. ففي النهاية لا شيء. أعتقد أن أبي، حين نظر لأول مرة إلى أمي في بلفاست، إلى الوجه الصادق والجميل، لا بد أنه كانت لديه فنتازيا مشابهة. خذها بعيداً، خذها بعيداً ... تزوّجا بعد ستة أشهر من لقائهما.

ولكن في وجه المزيد من خيبات الأمل فقد الخيال سحره. مثقلاً الآن بالصراخ، بولد وزوجة متطلّبين، ساءت وظيفة ويليم. انهارت ثقته بنفسه. بدأ أصدقاؤه يتهامسون عليه، شكا الفتيان لآبائهم. مرضت شقيقتي شيبان؛ وكانت هناك زيارات إلى الطبيب وفواتير.

وفي ذلك العالم الجديد كان عليه أن يبعد نفسه عن العالم القديم. كان العالم القديم أمي وولاءاتها البسيطة. بدأ ويليم علاقة. اكتشف أنه جيد فيها. بدأ أخرى، ثم أخرى.

لم يكن أبي رجلاً متوحّشاً. كان ابن العائلة، أفسدته أمٌّ شغوف به. كان في شبابه هادئاً ويحبُّ الكتب، وفي المناسبات التي واجهه العنف فيها اهتزّ ورُوِّعَ. تجنّب خدمة العلم أثناء الحرب الكبرى. غير أنه كي يظهر لأصدقائه الجدد، أو لنفسه، أنه يدير حياته المنزلية وأن تنظيمها وإعادة تنظيمها يعودان إليه، فإن قسوته غير المحسوبة تحوّلت إلى عنف. ذهبت أمي إلى المستشفى.

بقيا معاً أربعة أعوام على ما أظنّ. كان رجلاً ضعيفاً لا سيئاً، ومرت أوقات اجتاحه فيها الإحساس بالخطيئة. كان هناك أيام من الرقة وممارسة الحب.

جاءت النهاية في عيد ميلادي الثالث. كانت ذكراي الأولى.

كنا نعيش في منزل صغير في بانبري، وقد دُعينا من أجل حفلة عيد ميلادي إلى المنزل الأكبر للذين كانا مسؤولين عن عمادتي، وهما كاثوليكيان بريطانيان من أوكسفورد. كان لديهما مرج طويل

ومسطح بحدود أنيقة تنحدر نحو بركة صغيرة، وقد لعب معي أبي في الحديقة مما سبّب لي متعة عظيمة. لعبنا كرة القدم بالبوالين. كنت سعيداً على نحو أنانيّ. نامت شيبان في عربتها في ظلّ شجرة حور باكية. كانت الشمس مشرقة والسماء زرقاء. ضحكتُ كثيراً. حملني والدي ووضعني على كتفيه. حملني هناك تحت الشمس ورمى البوالين في الجو. ركضْنا خلفها، وأنا من مكاني الذي أجثم فيه، حاولتُ أن أمسك الكرات التي تصرّ بين ذراعيّ. أنزلني والدي. أخذ سترته عن كرسي الحديقة، رفعها إلى كتفيه، ارتدى نظارته الشمسية وابتسم لي. راقبْتهُ وهو يقترب من النوافذ الفرنسية التي رأيتُ خلفها أمي، والشخصين المسؤولين عن عمادتي. وقف أبي في هذا الجانب من النافذة، فردَ أصابعه على الزجاج ورحل. تدفّقت الدموع على خدّيْ أمي. أستطيع أن أراها الآن في فستانها الصيفيّ وصنْدلها، تبكي ببؤس. مدّ المسؤول عن عمادتي، والذي لم يكن العرض العاطفي بالنسبة له سهلاً أبداً، يده ولمس ذراعها. عملَ فمهُ، تحركتْ شفتاه في تلعثمٍ، ولكنه لم يستطع العثور على كلمات يقولها.

كانت من مكان لم يكن فيه شيء مثل عدم معرفة أيّ شخص. لم تستطع تحمّل الوحدة في إنكلترة. أتذكر بصعوبة الليلة التي جلسنا فيها في غرفة الانتظار في مرفأ ليفربول. كان الزورق سيقلّنا إلى بلفاست. سرتْ البرودة في ساقيَّ وقدميَّ. وكان الجو ضبابياً؛ وربما تم تأخير الرحلة، إذ بدا لي أننا انتظرنا طويلاً. جلستُ أنا وشيبان على جانبي أمي في معطفين من جلد الغزال، مقتربين منها تلمّساً للدفء، ومتاع الأسرة مكوّم أمامنا.

على الأقل لم يكن هناك وحدة في بلفاست. جاءت من أسرة مرحة، على الرغم من أنها مقيّدة بالحدود التي عاشت فيها ولم تنشد أبداً أن توسّعها. كانت عودة أمي محطمة القلب بالنسبة لأخوتها وأخواتها كما اعتقدت، موضوع درس في البقاء مع ما تعرفه. فقد

انتهكتْ قاعدة غير مدوّنة في عالمها الصغير، وتحركت بطريقة تجاوزتْ فيها حدودها، ودفعتْ الثمن. والآن هي بلا رجل، وهذا وضع غير عاديّ في ذلك المكان في تلك الأيام إلا إذا جاء الأمر عبر العنوسة أو الترمّل. شعرتْ بالأمر بذكاء. تحطّمتْ ثقتُها، ولم تَشْفَ في الحقيقة بعد ذلك. صارت مرعوبة من قول أو فعل الشيء الخطأ. قلقتْ من التقاليد والمظاهر. "لا تجعليهم يعرفون أنك تعيشين في منزل الشركة"، قالت لشيبان، التي دعتها زميلاتها في المدرسة إلى حفلة. وقلقت على النقود، حول ما الذي سيحصل لنا.

حين كنتُ في العاشرة أو الحادية عشرة حدثتْ مصالحة. ظهر ويليم على عتبة الباب في أحد الأيام. قدّمَ لها باقة من الزنابق. أرسلتني أمي أنا وشيبان كي نلعب في الخارج وفي الوقت الذي دخلنا فيه لتناول الشاي أخذته إلى الخلف. استمر الأمر سنتين. كان يائساً وقاسياً عليها كالعادة. بعد مشادّة تبعها إلى المطبخ، حيث كنتُ أنا وشيبان نرتجف عند المدفأة، وشدّها من أذنها. بعد أن خرج من المنزل بتهوّر طلبتْ أمي منا أن نحضر جاراً. أخذها بالسيارة إلى المستشفى وذهب والدي للقيام برحلات "عمل". كان يأتي أحياناً إلى المنزل بأزهار وهدايا، ويدعو أمي إلى العشاء. ولكن الرحلات صارت أكثر تباعداً. في إحدى الأيام ذهب دون رجعة.

ليس من العاطفيّ القول إنه لم يعثر على امرأة تحلُّ مكان أمي. حين عرف كيف يصل إلى غرفتي في إسلينغتون وروى قصصه الطويلة لم أتحداه. ربما كان يجب أن أفعل هذا. ولكن من الصعب تعرية الرجل، حتى الرجل الأكثر احتقاراً وضعفاً، وعرضه أمام الجميع كي يروه ويسخروا منه. أعتقد أن الجميع يحتاجون إلى غطاء ما. وهكذا، رغم كل وضوحه لم أتحدَّ غطاءَ ويليم في ذلك اليوم. بل أصغيتُ إلى أكاذيبه بدلاً من ذلك.

***

سارتْ حياتي بعد التخرج بنجاح كبير. كانت لدي دائرة من الأصدقاء الذين أحبوا رفقتي وسُرّوا بوجودي بينهم. كنتُ قادراً في تلك الأيام على لفْتِ انتباه مائدة العشاء بالقصص والمحاكاة. كان بوسعي أن أروي النكات ضد نفسي، وأن أكون مهرّجاً. لم أكترث إن بدوت سخيفاً طالما كنتُ أسلّي الآخرين.

عملتُ على أطروحتي لسنوات. قبلتْ مجلة التاريخ البريطانية والجمعية التاريخية المَلَكية أجزاء للنشر. بدأتُ العمل على دراسةٍ فكرتُها الرئيسية هي أن الأحداث السياسية والدينية الكبيرة في القرن السادس عشر مَدِيْنة قليلاً للإيديولوجيا أو الإيمان العقائدي وكل شيء إلى حاجة دولة تيودور الدائمة للنقد، وقد فاقم تلك الحاجة تأثير تضخم الأسعار في أوربا كلّها. وبروح الشباب المندفع انطلقتُ كي أصنع اسماً لنفسي. أعلنتُ حالتي بشكل تحريضيّ؛ ورفضتُ بقوة آراء فيبر وطوني كاشفاً عدم صحّتها. كان لدي عدو جليّ وقوي في باليول الذي كانت كتبه منقّطة بالمفارقات التاريخية حول "صعود البرجوازية"، و"أنماط الإنتاج الرأسمالية"، وقد قال شيئاً ما عن بؤس التجريبية في صلة مع مقاربتي. ولكن كان لدي مدافعون أيضاً. حصلتُ على وظيفة كمدرس مساعد بينما كنتُ أبحث عن منصب مناسب لوقت كامل.

ثم في ظهيرة متألقة في أحد الأيام غادرتُ مكتب السجل العام بإحساس غامض بالحاجة إلى بعض الإلهاء. فقد كنتُ متخماً من بحثي أثناء عطلة عيد الفصح؛ وكانت أرقام الخزنة العامة تملأني، وشعرتُ بأن ذهني مشوش وغبيّ. سرتُ في تشانسري لين على طول شارع فليت إلى لوكيت، وقرب سينت بول عثرتُ على حانوت كتب يغطيها الغبار حيث، بسبب من فضول كسول، التقطتُ رواية فرنسية من القرن التاسع عشر. كان قد مرَّ وقتٌ طويل لم أقرأ فيه روايات. وقفت على الألواح الأرضية العارية التي تصرّ ونظرتُ إلى الصفحتين

الأوليين باهتمام عابر فحسب، مفكراً في نهاية كل فقرة أن أضعُ الكتاب وأذهب كي أستكشف رفوف التاريخ. بدلاً من ذلك واصلتُ القراءة. بدا لي أنني أعرف الناس في القصة، أعرفهم مباشرة. وكلما تابعتُ القراءة تعرفت على أصواتهم، والطريقة التي يسيرون بها، والمنازل التي يعيشون فيها. عرفت تفاهتهم وادعاءاتهم وأنانيتهم. كان الأمر تقريباً كما لو أنّ خلفية القصة هي عالم طفولتي. لماذا لم أقرأ هذا من قبل؟ لماذا لم يخبرني أحد؟

أنهيتُ الكتاب تلك الليلة. لم أعد إلى مكتب السجل العام لمدة أسبوع تقريباً. بقيتُ في غرفتي وقرأتُ الروايات. راقبتُ بعين واحدة الشخصيات تصعد من الصفحة، وبالأخرى راقبتُ حياتي. بدت متمحورة حول الذات، ولكن القراءة عن الآخرين الخياليين جعلتني فضولياً بشكل مكثّف حيال ذاتي الحقيقية. قبل ذلك كنتُ قد بدأتُ طرح الأسئلة على ذاتي. إذ حالما شرعتُ في القراءة دخلتُ فترة استبطان وفحص للذات؛ ذلك أنّ الروايات عالجت بالنسبة لي أسئلة لم أعرف حتى كيف أصوغها. كان الأمر كمثل أن تُجبر على أن تقف عارياً أمام المرآة في ضوء باهر لا يجامل.

لم يعْجبني الانعكاس الذي ارتدّ عليَّ. رأيت التفاهة والغرور والأهمية الذاتية والجبن، ورأيت انحطاط بواعثي الخاصة. شرعتُ بالكتابة، كما أعتقد، لأنني رأيتُ في الكلمات طريقة كي أغطّي نفسي. وكي أكون منصفاً، لم أحاول أن أجرّب الكتابة كإعادة ابتكار، أو كإعلان، كعلامة أستطيع أن أختبئ خلفها وأقول إنني كنت أفضل مما كنت. بدلاً من ذلك اعتبرتُ كلَّ شيء نوعاً من النكتة الماكرة، بما فيه الشخصيات التي تنفّست عِبْرها. بهذه الطريقة فحسب كنت نكتةً أخرى بين نكات كثيرة، وكانت حالات فشلي غير مرئية. وقبل وقت طويل من محاولاتي الأولى لكتابة الرواية استخدمتُ اسم جيمس بدلاً من شيموس.

في ذلك الوقت التقيتُ بآلن في حفلة عشاء. كان أصغر مني بعام وكان قد حصل لتوه على وظيفته الأولى في عالم النشر. فاجأني في البداية بأنه متباه ومسرور بنفسه؛ أعرف ـ لن يعترف بهذا أبداً ـ أنه ظنّ أنني شائك ومرتبك. ربما كنتُ هكذا. غير أننا نوعاً ما تجاوزنا تحفظاتنا المتبادلة الأولى. بطلب منه أرسلتُ إليه مقاطع غير مترابطة، وقصتين قصيرتين، وقطعة ذكريات. دعاني إلى مكتبه في شارع ويليم الرابع حيث أخبرني أنه أحب كتاباتي. قال إنه أحب التأمل والحياد الأخلاقي والعصبيّة. نصحني: "أبْقِ الأمر هكذا. إن الضمير الشخصي رائع وممتع؛ لكنّ الضمير الاجتماعي ممل لأنه متصلب وقابل للتنبؤ بشكل ثابت". حدّثني عن كاتب ستصدر روايته قريباً. قال: "إنه ممل. ذلك أنّ الرواية ليست مكاناً لعرض معتقداتك السياسية". ذكّرني أن ستاندال قال مرة إن إقحام السياسة في عمل فنّي هو كمثل إطلاق رصاصة في حفلة. ثم اقتطف من أودن: "إنّ الحقيقة الصادقة، يا سادة، هي هذه: إذا لم تُؤَلَّف قصيدة، وإذا لم تُرْسَم لوحة، وإذا لم يُؤلّف شريط موسيقا، فإن تاريخ الإنسان لن يتغيّر مادياً". لقد تراجع على نحو مطّرد عمل الكتاب والفنانين الذين أصرّوا على أن يبرهنوا العكس. هل سبق وقرأت رواية دي لويس نوح والمياه؟ عمله الأسوأ. قال آلن إنه يعرف عدة كتّاب بحساسيات يسارية غامضة الذين، حين تعلّق الأمر برواياتهم، اكتشفوا أنهم مهما حاولوا لن يستطيعوا أن يرفعوا راية للقضية. كان السبب بسيطاً: تتطلب سياسة من هذا النوع إيماناً، أما الرواية فتتطلّب الشك.

بتشجيع من آلن أكملتُ روايتي الأولى في خمسة أشهر. أنهيتُ الثانية في أقل من عام. لا أستطيع أن أكتب أي شيء بهذه السرعة الآن. كانت التَقْدمات صغيرة، ولكن مع المراجعات بين فينة وأخرى، ومقالات المجلات والصحف، وقطعة الإذاعة الغريبة بدأت أكسب رزقي. هجرتُ مهنتي الأكاديمية. إن الملاحظات حول دراستي موجودة في صندوق الشاي في الخزانة حيث وضعتُ مكنستي الكهربائية.

* * *

في بداية مراهقتي كانت الأمور قاسية علينا. قاسية في كل البلدة. كانت المصانع تُغلق أبوابها، وأرصفة الميناء والمسافن هادئة؛ وكان العاطلون عن العمل يقومون بأعمال الشغب، وكانت تهتف لهم شيبان التي انضمت إلى منظمة شيوعية شبابية مما سبب فضيحة للأسرة. وبعد اختفاء ويليم الثاني والنهائي كانت أمي في حيرة حيال تأمين المال. في مساء أحد أيام الجمعة تشبثّت بنا، كي تريح نفسها أكثر مما تريحنا حين صاح جامع الفواتير عبر شقّ البريد في الباب. آنذاك، وفيما نحن نجلس في الظلام حابسين أنفاسنا لاحظتْ إصابتي بالحمّى. وبسبب الذعر ظنّت لوقت وجيز وخطأً بأنني مصاب بمرض السلّ. أُدخلت إلى جناح مستشفى الحمى الذي توفيّت فيه جدّتي. في الصباح التالي لإدخالي رأت أمي، التي كانت تفحص بقلق قوائم الصحف، أنني وُضعتُ بين الإصابات المرضية الخطيرة. أسرعتْ إلى المستشفى ورفضت الخروج بأية طريقة. في تشوّش حواسي شعرتُ بأت الأشباح تعذّبني. كانت في النوافذ وحول سريري. كانوا شياطين وملائكة يتقاتلون عليَّ. وفي الخارج كانت الريح تزأر. ثم بدأ صوتها يأتي عبر همسة معطّرة، وحفيف، وصدى. كان بوسعي أن أشعر بيدي في يدها. حين فتحتُ عينيَّ لم أستطع أن أميّز ملامحها، ذلك أن وجهها كان محاطاً بهالة، وكان الضوء الغريب حولها يتوهّج، مغزولاً، أبيض وضبابيّاً. وكان هناك شيء يتعلّق بحضورها، وكثافته، وإعلانه أن السماء والأرض ستتحركان إذا كان هذا صحيحاً. أنا الذي فهمتُ الحب كطفل أفهمه الآن كشيء يأتي إلى أولئك الجشعين له، شيء ناشئ عن الحق.

فيما بعد، أثناء نقاهتي في المنزل، تلقّت رسالة من ويليم. جلسنا معاً في المطبخ في تلك الليلة. حدّقتْ في نار الموقد. لم تكن تبكي، لكنها كانت بعيدة، في مكان آخر.

سألتها بلطف: "إلى أين ذهبتِ؟"

كنت أتظاهر أنني أكبر مما أنا عليه. التفتتْ إليَّ وابتسمتْ مسرورة، كما أعتقد، وتأثرت من ادعائي وأجابت أنها كانت هنا وليست في مكان آخر.

سألتُها لماذا ما تزال تحبّه.

نظرتْ إليَّ بشكل جدي؛ للمرة الأولى نظرتْ إليَّ ليس كطفل لا يقدر أن يسبر الأشياء ويجب أن يبقى هكذا، ولكن كنوع من الرفيق، كصديق. هدأتْ لبضع لحظات قبل أن تقول: "لإنه إنسان ويستحقُّ أن يُحبّ".

لم يكن الحب متعة لها، لم يكن سعادة. هذه هي الطريقة التي فهمتُ بها الحبّ. ومنذ ذلك اليوم فصاعداً لم أستطع تحمّل أن أكون في جو من الحزن أو مع الناس الحزانى أو القواعد التي صنعت الحزن. كان عليّ أن أهرب.

* * *

سيكون من قبيل المبالغة القول إنه لا شيء نما في قلبي قبل أن ألتقي بإنيس. كانت هناك نساء، وأوقات طيبة، وأوقات سعيدة. كان هناك ولع ولطف. كانت هناك هدايا ورحلات وجميع الأشياء التي تتماشى مع الرجل والمرأة، بما فيه الكلمات الناعمة والتعهدات المستحيلة التي يُشعر بها. ولكن الحقيقة هي أن كل شيء كان بعيداً؛ كنتُ أراقب المشهد دوماً، أراقب نفسي، ومرعوباً من الحزن، من ما استلزمته نهاية الحب، تأكدت من مناعتي مقنعاً نفسي أنني لم أنظر إلى أي شيء بجدية، أن لا شيء استحقّ أن يُنظر إليه على نحو جدّي. إذا حطّمتُ قلباً، ماذا عنه؟ سيصلح نفسه، وعلى أي حال ألم تُحوّل عدم قابليته للتنبؤ الحبَّ الخائب إلى نكتة مبتذلة؟ كانت النماذج مألوفة بشكل مثير للشفقة وكل ما يمكن أن تأمله هو بعض التنوّع كي تقدم بعض التسلية لشخص ما، في مكان ما.

وهكذا دخلتُ في حيوات الآخرين وخرجتُ منها، دائماً بشروطي. وحين كانت الأمور تسير باتجاه الخطأ، وتبدأ المتطلبات والاتكالات، كنتُ أمتلك القدرة على الابتعاد. كان بوسعي أن أمدّ يداً غاضبة فوق الطاولة، كانساً الفوضى مباشرة، حتى لو كانت الكلفة تحطيم الجيد والمفيد مع المُلْهي وما لا قيمة له. تركتُ كلّ شيء خلفي في أكثر من مناسبة، مبتدئاً من جديد، بشكل كامل، غير مرتبط، نظيفاً، باحثاً عن التغيير...

وكنتُ بالطبع واعياً من أين يأتي هذا. استطعتُ أن أرى وجه الرجل الذي ألهمَ أفعالي. كلما تواصل الأمر، ازدادت كراهيتي لما كنتُ أفعله؛ وازدادت كراهيتي له ولي. وكان من الأصعب الحفاظ على الادعاء بأنني كنت أعامل الأشياء التي حولي كنكتة.

حين قدّمتْ إنيس نفسها في حفلة آلن كنتُ في نقطة معيّنة في حياتي. هل لهذا السبب كنتُ مسؤولاً عن جانب كبير من فشل العلاقة؟ "سوف أتغيّر"، هذا ما قاله ويليم، كانت هذه كلماته الأخيرة لي. ولكن لا يوجد شيء يدعى التغيّر في الناس. نعتقد أننا نستطيع أن نتغيّر، ويحاول بعض الناس جاهدين أن يتغيّروا، ونأمل هذا على الدوام. إنه نوع من الجزة الذهبية. أعتقد أنه من طبيعتنا أن نشعر بالاستياء مما نحن وأن نتمسّك بالمعتقد، حتى إلى يوم موتنا، نستطيع بطريقة ما أن نكون أفضل. لا نستطيع أن نتحمّل فكرة أن نبقى كما نحن. يجب أن ننمو، يجب أن ننطلق إلى الأمام. ولكننا نبقى كما نحن، وحتى أكبر الصدمات لن تغيّرنا.

لم يكن من الممكن أن ينجح الأمر أبداً مع إنيس. أعرف هذا الآن.

* * *

الجزء الثالث

"ليوبولدفيل"، تشرين الثاني/نوفمبر 1960

الفصل الأول

أخبرني عقيد من الجيش الوطني الكونغولي أن الأمور ستصبح أفضل الآن بعد أن سيطر موبوتو. فالانقلاب الذي حدث منذ خمسة أسابيع كان شيئاً جيداً جداً. قال إن الأمم المتحدة يجب أن تغادر البلاد، وإن الجيش الوطني الكونغولي الذي أُعيد تنظيمه سينهي تمرد تشومبي الانفصالي في كاتانغا والاقتتال القبلي في كاساي. قال لي سيكون أفضل للجميع لو أنّ لومومبا حُيِّد. حُيِّدَ؟ إنه قيد الإقامة الجبرية في البريماتور. قال العقيد إنه يعني أن يُنفى إلى مصر أو غانا أو الاتحاد السوفييتي إذا كان هذا ما يريده. ولكن كلانا يعرف أن المنفى ليس حلّ العقيد المفضّل. ضحك كما لو أنه من نكتة خاصة، ثم سقط كحجر. في ثانية أتحدث مع شخص حيّ وفي أخرى أنظر إلى كومة دموية على الأرض. إنه على ظهره غافلاً، ومهجوراً، ومنذهلاً، ساقاه مفلطحتان ومرتبكتان، ذراع ملتفة حوله، الأخرى مرمية بطيش نحو الخارج. ثمة ثقب فوق عينه اليسرى.

حدث إطلاق نار ثان، فرقعة جافة عنيفة. عرفتُ بعده أنه حدثَ إطلاق نار أول. جلستُ، بحثتُ بيأس عن مصدر إطلاق النار وحاولت أن أخمّن ما هي أفضل طريقة للهرب من ميدان النار. تبعثر جنود الجيش الوطني الكونغولي حولي كي يحتموا خلف عرباتهم المدرعة، واحد أو

اثنان ردا مطلقين النار في اتجاه السفارة. ولكنني كنتُ أمتلك رؤية ليلية سيئة ولم أستطع أن أقوم بحركتي بسرعة كافية. ازداد إطلاق النار من داخل المجمّع وعرفتُ أنني فقدتُ أفضل لحظة للهرب.

حين أطلق رجال الجيش الوطني الكونغولي النار رميتُ نفسي على الأرض، محصوراً ومكشوفاً، ضغطتُ على الجثة. ما خفتُ عليه هو رأسي، وبشكل أشعرني بالعار وغير بطولي، خشيتُ على مؤخرتي، التي بدتْ معرضة للخطر بشكل غير معقول. التفتُّ كي أفحص إن كانت مرئية قبل التفكير بها بشكل أفضل. آه، آمل ألا أُصاب بطلق ناري هناك، سأفقد كرامتي. ضحكتُ بيني وبين نفسي؛ الأمور التي تخطر في ذهنك... رنّتْ الشظايا على الاسمنت وقدحتْ على معدن ناقلات الجند المصفّحة كشظايا النار من مشعل لحام معدني. أحدهم في مكان ما يئنّ من الألم. الجو مليء بالدخان، والأصوات تسبّب الصمم. ساد الهدوء للحظة وفكّرتُ بالهرب. ولكن في أي اتجاه؟ بدأ إطلاق النار مرة ثانية، بشكل أكثر وحشية. إنه عبثيّ جداً. ليس هذا هجوماً على الموقع المحصّن لجيش معاد. إنها السفارة الغانية. أُعلن السفير بأنه شخص غير مرغوب فيه من قبل النظام الجديد. الآن أستلقي قرب رجل ميت وسط الطريق، أشمُّ عرقه ودماغه والدم الكثيف الأسود الذي ينزّ على الطريق من تحت الهريس الخشن لما كان رأسه مرة.

لا أستطيع أن أرى ستايب. فقد ذهبَ إلى مكانٍ ما قبل أن يطلق حراس السفارة النار. دوّى إطلاق نار آخر مطوّل. أغمضتُ عينيّ. قضيتُ ثلاث سنوات في الجيش لم يقترب الموت مني أثناءها هكذا. أنا واعٍ لخوفي ولكنني واعٍ أيضاً أنه إذا بقيتُ حياً ستكون لدي قصة أرويها. قصة لصحيفة، قصة جيدة، ومخزن من الدِهْن السردي والعاطفي لمؤلف الكتاب كي يعيش عليه لوقت طويل. ضربت

الرصاصات الاسفلت والاسمنت حولي. كانت تقترب. وكان كلٍ ما عليَّ فعله هو أن أنتظر، أنتظر وآمل وأحيا. يجب ألا أُصاب الذُعر. ولكن يا لها من مهزلة دموية. أية مهزلة دموية لعينة! أقترب من الجثة الدافئة. أدخل فيها وأختبئ فيها، أنا في لامكان. لا وجود لهدف في كل هذا! كان الشيء كلّه مهزلة. كان كلّ شيء منذ الاستقلال نكتة مريضة. تزحف الرصاصات حولي. أضحك بصوت مرتفع. أبدأ بالضحك بشكل هستيري. أضحك على ذكرى كل الأمور التي رأيتُها في هذه البلاد غير المعقولة. أضحك على المرشّح الذي شاهدته في كاساي، يركب إلى القرية في ربطة عنقه السوداء وذيل سترته وقفازيه الأبيضين وجلده الذي كالفهد، يطفح بالقسوة والسلطة. أضحك على وعوده الانتخابية: النقود البلجيكية من أجل المحاصيل، زوجات الرجال البيض، منازلهم، سياراتهم. أضحك على المسكين كليوفاس متدلياً دون عضو من شجرة، على قدميه الكبيرين والمفلطحين والمغبرّين والكثيري العقد والكرتونيين. كان هناك الكثير الذي يُضحك عليه. سأقول هذا للكونغو. إن احتمال موتيَ جيّد لضحكة. إن ملك البلجيكيين بودوان جيد من أجل ضحكة. يلبس كبعض أمراء هاسبرغ في زيارة محكوم عليها بالفشل إلى إقليم بلقانيّ، وقد جيء به إلى ليوبولدفيل في سيارة أميركية مكشوفة كبيرة وبيضاء، الحشود مصطفة في الجادة، البيض يهتفون، الكونغوليون مسرورون. الشاب الأسود الوقح الذي اندفع إلى السيارة وانتزع سيف بودوان الاحتفالي. الدرك المرتبكون والغاضبون الذين يطاردونه والكونغوليون الضاحكون الذين يصفّقون له. مهزلة. كان يوم الاستقلال جيداً لضحكة، من خطاب بودوان السخيف الذي مدح عبقرية وكرم ليوبولد. ردّ لومومبا الفظّ. لم نعد وحوشكم، أعلن رئيس الوزراء الجديد. هل كتبتْ إنيس هذا السطر له؟ عليه ختمها. كانت هناك في

ذلك اليوم، في "بالي دو لا ناسيو". تجاهلتْني، بالطبع. كم بدت جيدة، كم بدت جميلة. سمنتْ قليلاً، ما يكفي لملء شكلها. كانت عيناها تومضان. سيقول الناس هذا عن عينيْ شخص، أنهما تومضان، وهما ليستا هكذا أبداً، لكنّ عينيها في ذلك اليوم كانتا أكثر من متألقتين. كانتا تتوهجان ـ الضوء والسعادة والتحقق يلعبون فيهما. حتى شعرها بدا جيداً، أكثر كثافة وتوهّجاً. وعرفتُ آنذاك أنه لا بدّ أن هناك رجلاً. اضحكوا على هذا. لماذا لا؟ إذا كنتُ سأموت يمكن أيضاً أن أموت وأنا أضحك. لماذا لا؟

تتحرك الجثة. الذراع المرمية ترتعش. مرة. مرتان. أشعر بها، أحس بها بدلاً من أن أراها. هل العقيد حي؟ ولكن الرأس مجروح؟ لا أحد يمكن أن ينجو من جرح كهذا. أدير وجهي قليلاً كي أرى جندياً يحتمي بعربة مصفّحة ويلوّح لي بعصبيّة. يصيح شيئاً، ملحّاً وآمراً، ولكنّ هذه ليست لغة فرنسية ولم أفهم عليه. يحدق رفاقه، يجعلونني خائفاً وشكاكاً، كما لو أنهم يعرفون شيئاً ما لا يفيدني ولم أفهمه بعد. يصيح الجندي ثانية، ولكن ماذا من المفترض أن أفعل؟ أركض نحوه؟ تبعد العربة عشرين ياردة. لن أنجح أبداً. لقد قضوا عليّ.

أبقى حيث أنا، لا أتحرك. يكشّر الجندي ويستسلم حيالي، وملتفتاً إلى السفارة يطلق النار عشوائياً من بندقيته. تتحرك الجثة ثانية وهذه المرة أدرك ما الذي يحدث. يتلقى العقيد المزيد من الإصابات. الطلقات ترعد في النسيج والعظام الميتة. فجأة يُصاب حذائي.. أشعر بشيء ساخن يحترق. لا تخبروني أنني أُصبت في قدمي! كم هذا سخيف. أتمتمُ، ليس من الخوف أو الألم ـ لا يوجد ألم، لا يوجد ألم حقيقي، ليس بعد ـ ولكن من الغضب. قدمي يشتعل وأنا غاضب لأن هذا سخيف فحسب. أين ستايب؟ أين هو؟ يستطيع أن يخرجني من هنا. ستايب!

لماذا لم أغادر حين انتشرت الفوضى؟ طلبَ مني ستايب أن أذهب. حذَّرني. في اليوم الذي تمرّد فيه جيش جمهورية لومومبا الجديد، حين تدفّق إلى ليوبولدفيل، محطماً نوافذ الحوانيت وناهباً المخازن. كان وقت خدمة ذاتية غير قانونية وحماسية، وذعر عام. هرب البلجيكيون. حزموا أغراضهم وهربوا. عشرات الآلاف. قال لي ستايب إن الوضع سيسوء، ولكنني بقيت. حتى حين تدفّقتْ وفود اللاجئين المرعوبين إلى ليوبولدفيل، بقيت. وحين كانت أرصفة الميناء العامة تغصّ بالرجال والنساء خارج مدى العقل، بقيت. وضحكت.

وصل إطلاق النار إلى تصعيد يصمّ الأذن. توقّف الاحتراق في قدمي الآن. بدأ الألم. صار إطلاق النار أكثر حدة. لا بدّ أن آلاف الطلقات قد أُطلقت. سقط اثنان آخران من رجال الجيش الوطني الكونغولي. راقبتُ ثالثاً يدور نحو الخلف. استلقى على الطريق صارخاً من الألم. جره اثنان من رفاقه من كاحليه إلى مكان محمي وفسح الصراخ المجال لأنين مقيت مثير للشفقة.

ضحكتُ حين رأيتُ دو شوت وولديه في الحشد في رصيف المرفأ العام. لم أصدّق ذلك. دو شوت من بين كل الناس. لم يَرني. جاء حمال أسود كي يساعدهم في الدخول إلى العبّارة فصرخت جولي بالقرد الأسود القذر أن يتركهم. لم يسمعوا حين صحتُ مودّعاً. الصوت في رؤوسهم، أبيض وعنيد، ينطق تواريخ غريبة، حكايات رهيبة، أزمنة كريهة، استعبدتهم.

ولكنهم على الأقل بقوا على قيد الحياة. ربما فعلوا الصواب. لن أبقى على قيد الحياة. لن تكون هناك لي قصة كي أرويها. ستدخل رصاصة في قمة رأسي، ستدخل رصاصة في مؤخرتي. أضغط نفسي على الاسمنت، على الجثة. كيف يمكن أن تخطئ؟ آه يا يسوع، لا

تتركني أموت. عليّ أن أركض. لا أستطيع البقاء هنا كبطة جالسة. يجب أن أركض إلى أي مكان، في أية جهة، لا يهم، أركض فحسب. أخرج من هنا.

كنتُ على وشك أن أنهض على قدميَّ حين ظهر ستايب قرب العربة المصفحة والمسدس في يده.

صاح: "ابْقَ حيث أنت يا جيمس. ابْقَ حيث أنت".

كما لو أنهم يردّون على ذلك كثّف حرس السفارة من إطلاق النار. صاح ستايب كلمة ما بالليناغالا إلى الجنود، أمرهم، ونظّمهم. لم أعد أستطيع تحمّل ذلك. لا آبه بما يقوله، سوف أهرب. ثم سمعتُ زئير محرّك، والمزيد من الصرخات، وأصوات الفرقعة فيما كان الرصاص القادم من السفارة يصيب العربة المتجهة صوبي.

ـ "جيمس!"

إنه ستايب. يقف على بعد عشرة أقدام. طلب من الجنود أن يحضروا العربة المصفحة إلى منتصف الطريق كي يحميني.

ـ "هيا!"

قفزتُ على قدميّ واندفعت نحوه. احتمينا وراء العربة إلى أن وصلنا إلى أمان الأبنية في الجانب الآخر من الطريق. انهرت على الجدار. نظر إليّ ستايب وابتسم.

تمتمت: "يا يسوع. يا يسوع المسيح".

سأل: "ماذا ستقول لكأس من الشراب؟"

ساعدني على النهوض وتركنا المعركة خلفنا. دخلنا إلى سيارة ستايب وسقنا إلى الريجينا كي نتناول كأساً في جوّ هادئ. إن الأمر

بسيط. إنه بسيط فقط حين أجلس في فسحة وكأس الويسكي في يدي. شعرتُ بالألم في قدمي. قلتُ لستايب أعتقد أنني أُصبتُ بطلق ناريّ. نظر إلى حذائي المحطّم. ثمة لطخة خفيفة من الدم.

قال بلامبالاة: "لا يبدو سيئاً. تناولْ كأساً آخر وسآخذك إلى الطبيب".

شعرتُ بالهدوء بشكل مفاجئ. لم أخف حتى من الجرح. شعرتُ بأنني مسرور من نفسي. لدي قصتي، لدي دِهْني. لدي نوع الأصالة الذي تمنحه تجربة كهذه. شعرتُ بأنني الصحفيّ المقدام.

حين عاد ستايب بالويسكي مزحتُ معه: "لا بدّ أنك مسرور من كيفية جريان الأمور. إن موبوتو جيد للأميركيين".

أجاب بغمزة: "جيد للكونغو".

- "كم تعتقد أن موبوتو يستطيع أن يبقي لومومبا قيد الإقامة الجبرية؟"

- "ليس فترة أطول. يحتاج إلى العثور على حل دائم لمشكلة لومومبا".

قلت: "كان العقيد يقول لي شيئاً على نفس الخطوط قبل أن ينفجر رأسه. ماذا سيكون هذا الحل الدائم؟"

- "إنّ غيزنغا في ستانليفيل ولكنه لا يملك أتباعاً أو كاريزما باتريك. بدون لومومبا، سينتهي التمرد في أورينتيل. ولكن إذا انضم باتريس إليه فإنه سيقسم البلاد إلى اثنتين. ستنشب حرب أهلية شاملة".

- "ماذا سيحصل للومومبا إذا قدر عليه موبوتو؟"

بعد أن وُضع لومومبا قيد الإقامة الجبرية، نشرتْ الأمم المتحدة نطاقاً من الجند من أجل حمايته حول البريماتور، مكان إقامة رئيس الوزراء في غومبي، وهو قريب جداً من منزلي. شكّ موبوتو بأن الأمم المتحدة يمكن أن تسمح للومومبا بالهرب، وهكذا نشر نطاقاً من جنود الجيش الوطني الكونغولي حول النطاق الخاص بالأمم المتحدة.

قال ستايب ببساطة: "إذا عبر رجال موبوتو نطاق جنود الأمم المتحدة، لا أظن أننا سنرى باتريس لومومبا مرة ثانية. وبصراحة، لن تكون هذه خسارة لأحد".

* * *

لم يعترف ستايب، حتى لي، بمدى انخراطه في انقلاب موبوتو. ولكن الأمر لا يتطلب الكثير من الخيال لاستنتاج ذلك. ففي العاشر من أيلول، قام موبوتو رئيس أركان الجيش الوطني الكونغولي الذي عيّنه لومومبا بعرض دفع نقود في مخيّم ليوبولد، مسلّماً بشكل شخصي للجنود الرواتب المتأخرة. كانت حكومة لومومبا مفلسة ـ تأكّد البلجيكيون من هذا ـ وكان عدم انضباط الجنود يعود بشكل رئيسي إلى التأخر في دفع رواتبهم. من أين جاءت النقود لشراء ولاء الجيش؟ لا أحد يعرف، ولكنّ وجود ستايب في معسكر ليوبولد أثار الشكوك.

بعد أربعة أيام كنتُ مع غرانت وروجر في الريجينا حين دخل موبوتو وأعلن أن الجيش استولى على السلطة. لم يستمر منصب لومومبا كرئيس للوزراء أكثر من ثلاثة أشهر. اندفعنا إلى الهواتف ومكاتب البرقيات. فيما بعد في تلك الليلة ذهبتُ للعثور على ستايب فوجدتهُ في مطعم زو يتناول العشاء مع سفيره، تيمبرليك. كانت معنوياتهما جيدة، وكريمين، بحيث دعياني للانضمام إليهما. فاجأني تيمبرليك، الذي لم أقابله سابقاً بأنه فظّ، ومحارب حرب باردة من النمط الأكثر تطرّفاً. بدا صاخباً جداً بحيث لا يصلح أن يكون دبلوماسياً. ربما كان منفتحاً معي لأنه كان يعرف عن صداقتي مع ستايب، أو ربما لأنّ أحداث المساء قد أبهجتهُ. كان يحتفي علانية بالانقلاب. كان كاسافوبو يائساً، كما قال، ومن المستحيل حثّه على الفعل. كان موبوتو مختلفاً تماماً. كان فظاً وفعّالاً وقادراً ومتكلاً وصادقاً وليس معادياً للغرب، على عكس لومومبافيتش ـ هكذا أشار

إلى رئيس الوزراء المطاح به أثناء مقابلتنا ـ الكريه. أصبح شيوعياً أكثر فأكثر. حين قلتُ إنه قومي أفريقي أكثر مما هو شيوعي، رفض تيمبرليك التمييز بأنه بلا معنى. إذا لم يكن لومومبافيتش شيوعياً حقيقياً، فإنه كان يلعب اللعبة الشيوعية. طلب من الاتحاد السوفييتي والصين إرسال المساعدة العسكرية. قبل تحليق طائرات الإليوشن. قبلَ ثمانين شاحنة زيم لقواته التي تقاتل في كاساي، وأدخل الشيوعي غيزنغا في حكومته...

انضمّ إلينا أميركي آخر، وهو رجل صغير متورد الوجه بشعر جميل رقيق وعينين زرقاوين شاحبتين أشار إليه تيمبرليك باسم الدكتور جو من باريس. لم أر الدكتور جو من قبل. لم يبد لي أنه يملك كثيراً من أسلوب الطبيب العام أو الجرّاح ـ الأمر الذي اشتبهتُ به ـ ظننتُ أنه طُردَ من المهنة من أجلِ شيء بغيض. حين سألته كم من الوقت أمضى في ليو قدم لي جواباً غامضاً، وكان مراوغاً حول كل سؤال آخر مباشر طرحته عليه مهما كان عاديّاً. تشكّل لديّ انطباع بأن ستايب غير سعيد من لقائي مع الدكتور جو، وكان هذا انطباعاً تُرجمَ بعد بضع دقائق فيما بعد حين قدم اعتذاراً شفافاً كي يأخذ الدكتور. في غيابهما، أُصيب تيمبرليك بالهذيان: إنّ حلفاء وداعمي لومومبافيتش ـ حتى الموظف الأدنى يتعاطف مع لومومبافيتش ـ سيُقبض عليهم الآن ويُسجنون. من السيء جداً أنّ غيزنغا هربَ إلى ستانليفيل، ولكنهم سيقبضون على الآخرين: أوكيتو، وموليلي، ومبولو، وسميل، و ـ وهذا فاجأني ـ أوغوست.

ذهبت كي أرى ستايب في صباح اليوم التالي كي أناقش معه مسألة المطلوبين من أتباع لومومبا. حين تحدثنا عن أوكيتو وموليلي والآخرين، وعن لومومبا نفسه، كانت نبرة ستايب حيادية، ولكنّ شيئاً قاسياً وشخصيّاً زحف إلى صوته حين جاء ذكر أوغوست. بحسب ستايب،

أمضى أوغوست شهراً في تشيكوسلوفاكيا من أجل تدريب الكادر وترقّع مؤخراً كي يصبح رئيس شباب الحركة الوطنية الكونغولية، التي وصفها بالجناح الإرهابي لحزب لومومبا. كنتُ مرتاباً، ولكن ستايب أكد لي أن كل هذا صحيح. ثم طرح سؤالاً أرعبني.

ـ "هل رأيت إنيس مؤخراً؟"

ـ "كلا، ليس منذ يوم الاستقلال".

ـ "أعرف أن الأمور بينكما صعبة، ولكن إذا رأيتها، يجب أن تحاول إقناعها بالمغادرة بالسرعة الممكنة".

سألت: "ما الذي تعنيه؟"

قال هازّاً كتفيه، دون أن يضيف أيَّ شيء آخر عن الموضوع، على الرغم من أنني ضغطتُ عليه: "يجب أن تغادر حين تستطيع".

ثم، وفيما نحن نفترق، قال لي إن أوغوست وإنيس كانا حبيبين.

نعم، كانت الكونغو جيدة لضحكة. لم أغضب حين نقل ستايب النبأ. في الحقيقة أذكر أنني ضحكتُ في وجه ستايب. لا لأنني لم أصدق أن هذا صحيح. استطعت أن أراه كله بوضوح، وفي الحقيقة اشتبهت بهذا من البداية. كنت أعرف نوع الرجل الذي يثير اهتمام إنيس. رأيت الإشارات الصغيرة حين كنتُ أنا وإنيس ما نزال نعيش معاً. ولكن ـ من باب الاحترام لإنيس، وجزئياً بسبب الخوف من الاعتقاد بأنني أبويّ، أو فظ، أو بشكل أسوأ، غيور ـ لم أعبّر أبداً عن رأيي الحقيقي بأوغوست. إن الحقيقة هي أنني رأيته دوماً كمهرّج. إنه مُقتبس إرازموس، ومحب سقراط، وأفلاطون وجون ستيوارت ميل، وعضو جمعية الطبقات الوسطى الأفريقية ولابس النظارة المزيّفة والقمصان المبهرجة، والرجل الذي كان سيحصل على مكتب محام

في بارك أفينيو مع نصف دزينة من السكرتيرات الجميلات. كيف يمكن أن تنظر إلى رجل كهذا بشكل جديّ؟ كيف يمكن أن تأخذ رجلاً كهذا كعشيق؟ ولكن إنيس ستفعل. سترى فيه أموراً أخرى. سترى فيه المعاناة والصراع، والبطولة والمقاومة، والتضحية بالذات.

ـ هل كنتُ غيوراً من هذا الرجل السخيف؟

ـ كلا.

ـ ليس عن بعد.

كنت غيوراً بشكل جنونيّ يثير الشفقة، وعنيف. في الليلة التي نقل إليَّ فيها ستايب الأنباء ذهبتُ إلى منزل هاوثهوفد في يوجين هنري من أجل أحد مواعيدي الغرامية مع مادلين. لم تهرب مادلين، وعبّرتْ عن احتقارها للذين هربوا. إنها امرأة تملك غرائز عدوانيّة وتأخذ هذه الغرائز معها إلى غرفة النوم. إن ممارسة الجنس معها ليست لطيفة مطلقاً. كانت هناك أوقات عبّرتُ فيها عن احتجاجي ولكنها تساهلتْ معي دوماً. "أريده هكذا" ـ تقول كي تريح ذهني، وتهمس ـ "آلمْني". كانت تعرفني. تعرفني جيّداً. شعرتْ بالكراهية التي تتجمّع فيَّ تلك الليلة. لم تعبّر عن شكوى. وحين انتهى الأمر ابتسمت بشكل عارف، منتصر، كما لو أنني أخيراً دخلتُ مكاناً مظلماً كانت تحاول إغوائي للدخول إليه منذ وقت طويل.

فيما كانت تستحم استلقيتُ على سرير هاوثهوفد، مفكّراً بإنيس، مفكّراً بأوغوست. عرفتُ ما الذي سيحدث لأوغوست إذا أمسك به رجال موبوتو أو إذا عثر عليه ستايب. رأيتُ نتائج عملهم اليدوي. فأثناء القتال في باكوانغا، نشد جنود البالوبا الانتقام في العاصمة من الأعمال الوحشية التي ارتُكبت ضد قبيلتهم على يد قوات لومومبا. في صباح أحد الأيام رأيت مجموعة من الناس عند ملعب الغولف. اقترب

ضابط غانيٌّ من قوات الأمم المتحدة، وهو أحد رجال الجنرال أليكسندر، من الحشد الصغير. ابتعد الرجال جانباً ليكشفوا عن جسد رجل أملس مستلق ووجهه إلى الأعلى. تعرّفتُ على الضحيّة. فقد كنتُ أعرفه جيّداً. كان اسمه جستين وكان مسؤولاً من مستوى أدنى في الحركة الوطنية الكونغولية، وداعماً متحمّساً لرئيس الوزراء وصديقاً لأوغوست.إنه الآن ميت ومقطّع ومجرّح وممزّق. توقّفتُ من أجل نظرة أقرب. رمى الضابط الغانيّ، الجالس كي يفحص الجثة، سيجارة لم يدخن سوى نصفها، ارتمت على الدم الذي بدا كالزيت الأسود قرب ساق جستين اليمنى. كان المتفرجون يتحدثون بصوت منخفض، مسحَ الضابط العرق عن عينيه. طنّ الذباب. توهّج رماد السيجارة التي رُميتْ في بركة اللون القرمزي اللزج قليلاً، ثم بدأ تحلّله اللامبالي.عرفتُ ما الذي سيحدث لأوغوست.

نزلتُ عن السرير وذهبتُ كي أستحمّ. نظرتْ إليَّ مادلين مندهشة. نظرتْ إلى عضوي وابتسمت. "هكذا حالاً؟" قالت، مسرورة. بدون كلمة أخرى، أُدارت لي ظهرها ببطء ووضعتْ راحتي كفيها على الآجر الأبيض كي تسند نفسها. وأنا أضاجعها رأيت وجه أوغوست حيث كان وجه جستين. رأيته ميتاً ومقطّعاً ونازفاً. بدأتُ أقول: "أكرهك، أكرهك، أكرهك". تابعت وتابعت. كنت أصيح على أوغوست، أصيح على إنيس. كانت مادلين تئنّ. كانت منحنية بشكل كامل، محصورة في زاوية، ملتوية، مضغوطة على الآجرّ، يجري العرقُ على ظهرها وكتفيها الواسعين القويين. كان هناك بعض الاهتزازات، حركات التموّج في لحم المؤخرة فيما أدفعه فيها. أكرهك، أكرهك، أكرهك.

هل سيعذني أحد ما من فضلكم عن هذا؟ من حيث أنا الآن. مما أفعله. من كل هذه الكراهية. من نفسي. من فضلكم.

* * *

قال ستايب منهياً كأسه: "هيا. لنأخذك إلى طبيب".

اقترحت أن يأخذني إلى روجر.

سألته: "هل سمعتَ أيّ شيء عن أوغوست؟"

أجاب: "ما يزال مختبأ في المدينة في مكان ما".

ـ "ألا تعتقد أنهم سيعثرون عليه؟"

صرّح بشكل قاطع: "سيعثرون عليه. إنها مسألة وقت فقط".

على الرغم من أنني لم أعلّق على هذا الجواب، كان يعرف أنه يرضيني. شعرتُ جزئياً بالعار من ردي. جزئياً.

* * *

الفصل الثاني

قدّم روجر لستايب مشروباً. شربه بسرعة، ثم قال إنه يجب أن يعود إلى السفارة.

بدأتُ بخجل: "أنت تعرف. لم أعد أحب الميلودراما أكثر منك، ولكنك على الأرجح أنقذتني من الموت".

قام بتنصّلات متواضعة ولكنني لاحظتُ أنه مسرور من اعترافي بما فعله لي. ربتَ على كتفي وقال إنه سيتصل غداً.

نزع روجر حذائي المحطّم والملطّخ بالدم وقصّ الجرابات الدبقة بعناية شديدة.

ـ "إنه خدش وثمة بعض الورم، ليس خطيراً. لكن حذاءك لم تعد له قيمة"، قال بصوت خان أدني تلميح بخيبة الأمل. افترضتُ أن روجر يحب التحدي العرضي مثل جميع المهنيين. أشار إلى قدمي:

ـ "تستطيع أن ترى هنا خدش الرصاصة على طول مشط القدم. سأطهّره وستكون حالاً على ما يرام".

بدأ العمل. سألته كم سيمكث في البلاد. على الرغم من أنه تلقى الكثير من التهديدات بأنّ عليه أن يرحل، فإنّ روجر بدا كأنه غير قادر على إقناع نفسه بالمغادرة.

قال بهدوء: "آه، على أحد ما أن يعتني بالأمور. إنّ المرء لا يحبّ أن يذكر زميله بالسوء، ولكنّ الأطباء البلجيكيين كانوا لا يتمتعون بالمسؤولية. فقد حزموا أغراضهم ورحلوا مثل الجميع. لم يفكّروا أبداً بالمرضى. إن النظام الصحيّ كله فوضى مخيفة".

روجر رجل لطيف وشريف. في كلّ مرة أراه فيها أشعر بالارتباك حول تقييمي السلبي له حين التقينا في حديقة هاوثهوفد لأول مرة. صرنا أصدقاء نوعاً ما إلا أنني شعرتُ بالأسف لأننا لم نصبح أكثر قرباً أبداً، ولم نعرف بعضنا بعضاً بشكل أفضل. كنا نتناول الشراب بين فينة وأخرى، ذلك أن تناول وجبة لم يكن محتملاً. ولكن حتى حين نكون ثملين فإننا لا نتحدث بالفعل. إنه أحد الإنكليز المتحفّظين الذين من السهل أن يحبّهم المرء ولكن من المستحيل معرفتهم.

قال وهو ينظّف جرحي الصغير المثير للشفقة: "إن الأمور تصبح كريهة بشكل رهيب. فالجوّ ليس جيّداً مطلقاً".

قلت: "تأكد لومومبا من هذا يوم الاستقلال".

ـ "لا أعتقد أن من العدل إلقاء كل اللوم على لومومبا"، قال بلطف كاف ولكن بإيمان أدهشني، ذلك أنه لم يقدم أية إشارة حول وجهات نظره السياسية؛ نظرتُ إليه دوماً على أنّه أحد أولئك الرجال الذين يعدّون ما يفعلونه في حجرة الانتخاب خاصاً كالشيء الذي يفعلونه في غرفة النوم، وليس موضوعاً ملائماً لمحادثة متحضّرة. افترضتُ أن سياسته محافظة؛ وشككت إن كان يعتبر ماكميلان شخصاً جيداً.

تابع: "ربما كان خطاب لومومبا يوم الاستقلال متطرّفاً قليلاً، ولكنه قابل للفهم في هذه الظروف. بماذا كان الملك بودوان يفكّر وهو يحاول أن يقول للكونغوليين إنّ ليوبولد أسّس المستعمرة باتفاقيات ووسائل سلمية! لقد ثرثر كثيراً، بصراحة. قدّم للسكان المحليين بعض قطع الملابس وحمولة صندوق من الجنّ مقابل أرضهم. لم يمتلك الزعماء أية فكرة على ماذا كانوا يوافقون. وفي بعض الحالات لم يُمنحوا الفرصة كي يقولوا كلا. هل سبق وأخبرك أحد ما الذي حدث للبايكي؟"

- "لا أظن".

"كان زعيم البايكي رجلاً يُدعى مسيري. كان طاغية مريعاً. عاش في قصر من الطين والقش محاطاً بجاجم مثبّتة على العصي. أراد البلجيكيون اتفاقية لأن أرض البايكي تحتوي على جميع أنواع المعادن. لم يمنحهم مسيري اتفاقية وهكذا أطلقوا عليه النار في مكانه. ثم سألوا ابنه الأكبر إذا كان يريد اتفاقية. أجاب بأنه يريد، لحسن حظه. وضعت الاتفاقية عملياً كاتانغا كلّها تحت حكم ليوبولد مقابل أن يُسمح للابن بأن يبقى زعيماً. هل يؤلمك هذا؟"

قلتُ: "بالكاد".

وضع القطن في الصندوق البلاستيكي، وذهب كي يغسل يديه ويحضّر بعض الضماد والعصابة.

- "أعتقد أن البلجيكيين سيواصلون القول إن الكونغو كانت في وضع مريع حين وصلوا. كان هناك أكلة لحوم بشر، كما تعلم. يوجد هنا عدد أكبر من أي مكان في أفريقيا. إن الناس لا يملكون ما يكفي للطعام فحسب. تنتشر الملاريا أيضاً، والجذام، وداء المثقبيّات، وقروح استوائية، وكل ما تحرص على ذكره. إنه مكان مخيف، حقاً. كانت العبودية هي المشكلة الأكبر، بالطبع. يحسبون أن ثلاثين مليون كونغولي استُعبدوا. كان العرب هم الأسوأ. وكان تيبو تيب صديقاً لستانلي. يا له من وغد رهيب. صنع ثروة من الاسترقاق".

أنهى وضع الضماد. كان محكماً جداً.

- "كيف تشعر؟"

- "جيد".

ذهب إلى المغسلة ونظّف يديه.

"نصّبَ البلجيكيون تيبو تيب حاكماً لستانليفيل وقدموا له راتب 150 دولاراً في الشهر. لم تكن سمعتهم جيدة مع السكان المحليين.

تناول منشفة بيضاء ونشّف يديه.

قال، وهو ذاهب إلى خزانة قرب مكتبه: "أنا لا أقول إننا لم نرتكب أخطاءنا، ولكنني أعتقد أن البريطانيين كانوا سيقومون بالأمر على نحو أفضل. سأعطيك بعض المضادات الحيوية. ليس الجرح خطيراً ولكن يجب أن تنتبه إلى هذه الأشياء في المناطق الاستوائية".

ـ "أنت لطيف جداً".

لوّح لي رافضاً الإطراء وقال: "هل تستطيع أن ترمي ثقلاً على قدمك؟"

نهضتُ عن الكرسي.

ـ "يبدو جيداً؟

نظر إليَّ، كأنه يتردد في قول شيء.

سألته: "ما الأمر؟"

قال: "طُلبَ مني أن أنقل إليك رسالة. لم أقل لك مباشرة لأنني أعرف كيف هي الأمور بينكما أنتما الاثنان".

ـ "من مَن الرسالة؟"

لم تكن هناك حاجة للسؤال. خفقَ قلبي.

ـ "إنيس".

ـ "فهمت".

كان عليَّ أن أجلس.

ـ "اتّصلتْ باكراً. اتصلت مرتين في الحقيقة. اتّصلت بك في المنزل فلم تجدك. ثم فكّرت بي. كتبتُ رقم هاتفها. قالت إن الأمر مهم".

سلّمني قطعة ورق ونظر إليّ بتعاطف.

ـ "هل أنت على ما يرام يا جيمس؟ هل تريد كأساً من الويسكي؟"

ـ "كلا، شكراً. هل أستطيع أن أستخدم هاتفك؟"

ـ "بالطبع. إنه في الصالة".

ارتجفت يدي كثيراً وأخطأت الرقم مرتين. رنّ الهاتف في الطرف الآخر مرة واحدة فقط.

قلت: "إنه أنا.

ـ "أحتاج إلى رؤيتك".

بدت غريبة، كما لو أنه عليها أن تبذل جهداً لمجرد أن تتحدث.

ـ "هل أنت على ما يرام؟"

ليست بخير. عرفتُ هذا من نبرة صوتها.

قالت بشكل قاطع، ولكن غير مقنع: "نعم، بخير. هل أستطيع المجيء إلى منزلك؟"

ـ "بالطبع".

ـ "سأكون هناك بعد ساعة".

ـ "هل تريدين مني أن أحضرك؟"

ـ "كلا. هذا ليس آمناً. أراك بعد ساعة".

كنتُ على وشك أن أقول لها إنني سعيد لسماع صوتها مرة ثانية، إنها لا تعرف كم أنا مشتاق إليها، إنني أحبّها وأفكّر بها طول الوقت... انتهت المكالمة، وأنقذتني من ذلٍّ آخر. ببطء أعدتُ السماعة إلى مكانها. أغمضتُ عينيَّ. حدّبتُ كتفيَّ وجعلتُ من يديّ

قبضتين. يجب أن أكون قوياً. يجب أن أكون قويّاً. ربما قبضوا على أوغوست. ربما مات. ربما تريد العودة إليّ. ليمتْ، من فضلكم ليمت. عودي إليَّ، إلى حيث تنتمين، يا إنيس.

من الخلف سمعتُ روجر يسألني إن كنتُ أودّ أن يوصلني إلى المنزل. أدركت أنني وقفتُ وحيداً في الصالة لعدة دقائق. استدرتُ إليه وأجبرتُ نفسي على ابتسامة عريضة غير مبالية.

أجبته: "نعم. سيكون هذا لطفاً بالغاً".

ثم مزحتُ لاعباً: "لستُ متأكداً كم أستطيع السير بفردة حذاء واحدة".

قال روجر وهو يبتسم لي: "كلا، بالفعل. سأحضر مفاتيحي فحسب".

* * *

ما أن غادرنا المنزل حتى سألني روجر: "هل يتبعنا أحد؟"

استدرتُ كي أنظر خلفي.

قال: "ثمة سيارة ستروين سوداء فيها رجلان غير مريحين. أتساءل إن كانا من الأمن الكونغولي؟"

الطرقات فارغة تقريباً وحضور الستروين مميّز ومثير للشبهة. ولكنني قلت إنني لا أستطيع تخيّل لماذا سيتبعنا أي شخص.

قال روجر شاكاً: "كلا في الحقيقة. ربما يسلكان الطريق نفسه على الأرجح".

عبرنا الحاجز الأول دون كثير من الإزعاج. ولكن في الحاجز التالي كان الجنود في مزاج سيء وأمرونا بالخروج من السيارة. تبيّن أنهم سمعوا عن إطلاق النار على السفارة وموت العقيد، وهو على ما

يبدو ضابط مشهور. وقفنا إلى جانب الطريق المظلم والمهجور في نهاية صف من السود الخائفين الذين ينتظرون أن يحقّق معهم ضابط بعصا أنيقة. توقّفت الستروين في مكان بعيد قليلاً عن الحاجز. ذهب الجنود كي يتحققوا. راقبتُ أنا وروجر راكبَيْ السيارة وهما رجلان أسودان فيما كانا يعرفان عن نفسيهما.

سألتُ روجر: "لماذا سيلاحقنا الأمن؟"

أجاب: "أعتقد أنهم يشتبهون بجميع البيض في هذه الأيام".

اقترب منا جنديّ بدا عدوانياً.

همس روجر: "من الأفضل ألا تخبرهم عن قدمك. لا تعرف كيف يمكن أن يفسّروا الأمر".

اختلقتُ قصة تتعلق بسقوط أسطوانة غاز. صاح بنا الجندي لعدة دقائق. اتهمنا بأننا مقاتلون غير نظاميين، جواسيس. أكّدتُ له أننا لسنا بلجيكيين أو فلمنكيين.

صاح الجندي في وجهي: "أنتَ لي".

أجاب روجر بهدوء: "كلا. نحن بريطانيون ـ بريطانيون".

وضع الجندي بندقيته في صدر روجر.

قال روجر: "ابق هادئاً".

في الأعلى جرَّ ضابطٌ رجلاً من الصف وبدأ الصراخ به. تجمّع الجنود حوله كمثل أسود حول الفريسة. ضربه الضابط على وجهه بالعصا. تمتم الرجل شيئاً. ضربه جندي بكعب البندقية على ظهره فتعثر نحو الأمام كي يتلقى المزيد من الضربات فحسب. رفسه الضابط على عظمي ساقه الكبيرين؛ ووجّه له جندي آخر ضربة وحشية على قفا رأسه.

همس روجر: "أعتقد أننا يجب أن نقول شيئاً ما، أليس كذلك؟

ـ "من الأفضل ألا نفعل".

كلانا يعرف أننا لن نفعل.

تواصل الضرب. الرجل على ركبتيه. الضربات تنهال عليه.

نظر إلينا الجندي التابع للجيش الوطني الكونغولي وابتسم. قال وهو يومئ برأسه نحو الضحية: "من رجال لومومبا" ـ مرر إصبعاً بشكل ميلودرامي على حنجرته ـ "جميع رجال لومومبا يحصلون على هذا".

ألحّيتُ: "لسنا رجال لومومبا".

ـ "ليس بأية طريقة"، أضاف روجر، مصدوماً من فكرة أن أي شخص يمكن أن يخطئ ويعتبره هكذا.

طلب الجندي النقود، وبعد قليل من المساومة أعطيناه بعض الفرنكات. حالما وضعها في جيبه، ربت على ظهرنا ودردش بشكل ودّي. نحن الآن أفضل صديقين، لا مشاعر حادّة، وفيما كان يقودنا إلى السيارة قال لنا بابتهاج إن جميع رجال لومومبا سيُقتلون. سيُقتل الشيوعيون. عندئذ ستُحرَّر الكونغو. انطلقنا في السيارة وتركنا رجل لومومبا على ظهره محاطاً بالضابط والجنود، ضعيفاً وعبثاً يحاول أن يتقي ضرباتهم.

أنزلني روجر على باب منزلي وسألني إن كنت أستطيع أن أتدبّر أمري. أكّدتُ له أنني بخير. ذكّرني بالمضادات الحيوية وطلب مني أن أعرّج عليه غداً كي أغيّر الضماد. شكرتهُ على التوصيلة وانطلق.

فيما كنت أدخل فحصتُ الشارع. لا وجود الآن لسيارة الستروين. إما أنني قمت أنا وروجر باستنتاجات خاطئة وإما أن رجال الأمن قرروا إنهاء مهمتهم.

* * *

الفصل الثالث

عادتْ إليّ. بعد منتصف الليل وصلت؛ تأخّرتْ كثيراً. فتحتُ البوابة في سور الحديقة ورأيتها هناك، صغيرة ومرتجفة. سقطتْ بين ذراعيّ ولم أكترث بالملاريا. فقد صرتُ قوياً مرة أخرى، رغم أنني سأفضّل أن تكون حاجتها من نظام آخر. وضعتُ ذراعاً حولها وساعدتُها على الدخول، متشرّباً كل لحظة من اتصالنا الجسدي. لم تغسل شعرها. فيه روائح الأشياء التي أتخيلها وأخشى أنها تنتمي إلى حياة جديدة مختلفة: المطر والتراب ودخان الخشب وزيت النخيل والتوابل. إنها عادية ولكنها تبدو غريبة بالنسبة لي هذه الأشياء، بعيدة عما أنا وكيف أعيش والطريقة التي تسير بها الأشياء حولي. كانت تتحدى الحمّى ولكنها الآن في نهاية مقاومتها. صوتها خافتٌ وبعيد. أخبرتني أنها عانت من مشكلة في عبور الحواجز وهذا أسوأ وقت ممكن لها أن تكون مريضة. ستحدث أمور. لديها دور تلعبه وهي تخشى من أنها لن تكون قادرة على أن تلعبه، والآن يجب أن أساعدها.

قلت: "لندخل إلى المنزل".

توسّلتْ: "من فضلك. أعرف أن هذا سيكون صعباً عليك، ولكن يجب أن تساعدني".

العاشقة التي تَهْجُر تفضّلُ على العاشق الذي هُجِرَ، تحتفظ بطلبات قابلة للفرض، الأكثر أهمية وإيلاماً بينها الجنسية. تعرف إنيس إن كل ما عليها فعله هي أن تطلب. ماذا أستطيع أن أرفض لها؟ كيف؟ أقول لها إنني سأساعدها وأحملها وآخذها إلى الداخل، إلى غرفة نومي.

* * *

معدتُها تغلي، عيناها صفراوان ودمها يحلم. منذ أن هيمن الهذيان، صارتْ كلماتُها فاقدة للاتجاه أو الهدف، ولكن في الساعات المبكرة، حين نادتْ والدها صرتُ أباً ومراقباً وممرضة لها. صرتُ عاشقاً من نوع ما مرة أخرى. لا أعرف ما الذي رأتْه أو سمعتْهُ حين همستُ اسمها. تؤلمني عظامي، قالت لوالدها الميت. استجبت: "نعم. نعم أعرف يا حبيبتي". ربما كان إيقاع اللغة التي لم تتوقع سماعها، فاحتدت نظرتها وهي تنظر إليَّ للحظة شفّافة بالفضول الصريح والذاهل لطفل. قالت بالإنكليزية: "تؤلمني عظامي". كانت لحظة قصيرة من الوضوح. بدتْ كأنها تبحث في ذهنها عن ذكرى، وصلة: إشارة مصالحة حيث هي الآن مع ما كانتْهُ وما عرفتْهُ وكانت معه. استنفدها الجهد فأغمضت عينيها. قبّلتُ جبينها كما يفعل أبٌ وداعبتُ شعرها المبلل بينما تحت الغطاء عثرتْ يدي على ثدييها. أصدرتْ صوتاً خفيفاً، ظننتُ أنه صوتُ امتنانٍ، قبل أن تُنقل بعيداً مرة أخرى إلى أفران الحمّى. ضيّعتْ ـ مرة على الأقل ـ قضاياها ولكنني عثرتُ عليها.

* * *

كان أوغوست بانتظارها. قالت هناك خطة. بعد ليلتين من الآن ستحط طائرة مصرية في نيجيلي؛ إنّ ناصر صديق للكونغو. سيهرب لومومبا من البريماتور، سيشقّ هو وأفراد الحركة الوطنية الكونغولية الذين ما يزالون في ليو طريقهم إلى المطار ويُنقلون إلى ستانليفيل حيث لا تسود سلطة موبوتو وحيث ما يزال غيزينغا مسيطراً. سيذهب أوغوست معهم، ولكنه يحتاج الآن إلى المساعدة. إنه يختبئ مع صديق سميل، هاري، مهرب الألماس الهندي، لكن ستايب ورجال موبوتو يبحثون عنه في كل مكان والشبكة تقترب. يجب أن أذهب إلى أوغوست وأخبره أن سميل اعتُقل. سيُعذّب السجين وحين يتحدث

سيذهب الجنود إلى كوخ هاري. يجب أن يُنقل أوغوست إلى مكان آمن إلى أن تصل الطائرة. أي إلى منزلي.

قلتُ لها: "إنّ هذا المنزل ليس أكثر أماناً. إنهم يعرفون عني وعنك، ويعرفون عنك وعن أوغوست. سيقومون بالربط، يا إنيس، سيخمّنون".

ألحّت: "لن يشكّوا بك. أنت معروف كصديق لستايب وستايب صديق لموبوتو. أحضرْ أوغوست إلى هنا. أبْقِهِ ليلةً فقط ثم خذْهُ في سيارتك. لن يوقفوك. فقط إلى المطار، إلى نيجيلي. من المفترض أن أخبئه أنا، لكنني الآن لا أستطيع، أوغوست ينتظرني، ولا أستطيع مساعدته".

اعترضتُ. أخبرتها عن سيارة الستروين والحاجز.

كانت الحمى تهيمن عليها إنشاً إنشاً، تطوّقها وتستهلكها. عانت من صعوبة في التركيز، وكان من الأصعب أن تكون عقلانية. من فضلك ساعدْ أوغوست. كان هذا كل ما استطاعتْ قوله.

بيأس مفاجئ قلت: "إنيس، إن الأمور خارج السيطرة الآن، لا شيء تستطيعين فعله هنا. لقد ربحوا. ربح موبوتو والأميركيون. عودي معي إلى لندن. اتركي هذا المكان. سنبني حياة معاً مرة ثانية. ستكون حياة سعيدة، وجيدة. من فضلك ارجعي معي".

شدت يدي قليلاً وقالت هامسة: "يريدون أن يقتلوا أوغوست لأنه يؤمن بحرية بلاده. يريد ستايب قتاله لأنه لا يقبل أن يكون دمية الأميركيين. لا أستطيع المغادرة".

كانت أمنياتي بالمقارنة مع أمنياتها أنانية وتافهة. تحدّثتُ عن السعادة وبناء حياة؛ تحدثتْ عن الصراع وإنقاذ أحدهم من الموت. وكما دائماً هناك تبرير أكبر لما تريده. ربما كان يجب أن أعترف بفضيلة توبيخها. ولكنني لم أفعل. بدلاً من ذلك شعرتُ بالغضب منها

لأنها تورطت في الميلودراما غير الضرورية لكلّ هذا. دعي هؤلاء الناس يستمرون في عداواتهم الدموية. إن الجانبين متعادلان في السوء. ما علاقة هذا بنا؟

سألتُها بنزق مرير: "هل أنت ذاهبة إلى ستانليفيل أيضاً؟"

صارعت كي تقول: "لا أدري. لا أعرف ماذا أفعل. أنا متعبة".

سألتُها دون نفس: "لماذا تثقين بي في هذا الأمر؟ كيف تثقين بي بعد كل تهمك ضدي؟"

قالت بصوت منخفض، غير مسموع تقريباً: "لأنك رجل جيّد".

"إذا كنتُ جيداً هكذا ارجعي معي".

شعرتُ بإصبع ناعمة تتحرك بخفة في راحة كفي. تذبذبتْ عيناها الصفراوان. كانت تغوص في الفراش، تهبط بنيران الحمى المستعرة حولها. بالكاد كنت أسمع ما تقوله: "أثق بك لأنني ما أزال أحبك". ثم انزلقت بعيداً إلى تشوشات الملاريا الغازية.

* * *

لم يكن قد طلع الضوء على نحو كاف في الخامسة وكانت الخفافيش تأوي إلى أوكارها. سمعتُها تحك ألواح الخشب في السقف فوقنا. كان النهر يهدر مندفعاً. وفي الحديقة تجازف أوائل الطيور بأصواتها. أنخفض نحوها، أضع جبيني على جبينها. إلى أين تذهبين في أحلامك الحارقة يا إنيس؟ هل تأتين إليّ، حيث أنتظرك؟ أردّد اسمها مرة بعد أخرى بحيث تعرف أين تجدني، ولكنّ أصواتاً أخرى حارة ومجنونة تتنافس مع صوتي وتغمر توسلاتي ووعودي. أُدْخل الكلوروكوين في فمها بالقوة وأذهب إلى المطبخ، عارجاً قليلاً على قدمي المخدوشة.

آخذ قهوتي إلى الخارج إلى الحديقة المسورة خلف المنزل حيث أجلس إلى الطاولة بين شجرة مانغو والبريق العملاق الأبيض للغابة. أستطيع أن أشمّ العطر الصباحي الخفيف للفرانجيباني، ونباتات الخبازّى والجهنّميّة التي تتبرعم. المنزل كبير يوشك على التداعي، بفناء مسقوف وغرف فسيحة وسقوف مرتفعة. لم أعرف أبداً ترفاً كهذا. للحظة أرى نفسي مع إنيس في مكان كهذا، سعيداً وراضياً، آمناً ومرتاحاً. ثم أضحك على نفسي. كم ستكره الأمر. آمن ومرتاح - لم ترغب أبداً بهذا. ولكن ربما هناك نوع آخر من الحياة معاً ممكن. أقول لنفسي إنه ليس حلماً يائساً. منذ بضع ساعات فحسب كنتُ متأكداً من أننا لن نتحدث ثانية أبداً. الآن تقول لي إنها ما تزال تحبني. الآن تستلقي في سريري. جاءت إليّ في النهاية. اختارتني من بين جميع الناس الذين تعرفهم في ليوبولدفيل كي أساعدها. كلما فكرتُ بهذا أرى كيف يعمل ذهنها: تريد أن تخرج مما دخلت فيه. تريد أن تعود إليّ. إنه التفسير الوحيد. أستطيع أن أحملها الآن، وأضعها على متن الطائرة ويمكن أن نصل إلى لندن غداً.

ثم يعود إحساسي بالواقع. لا شيء في هذا لي. إنها لا تريدني، تريد ما أستطيع فعله لقضيتها، ولعاشقها. يتغلغل الاستياء فيّ. أرتشف القهوة. صارت باردة. سأحملها وآخذها بعيداً. بدلاً من ذلك سأذهب إلى أوغوست، إلى حيث يختبئ. سيكون شكوكاً. سأكون آخر من يتوقع رؤيته، عشيق عشيقته، صديق صديقه السابق، الرجل الذي يريده ميتاً الآن. ولكنه يائس وأنا كل شيء بالنسبة له. سأقول له إن إنيس طلبتْ مني أن أفعل هذا، إنها تثق بي. ولكنني قلق من أنني لا أثق بنفسي. ماذا سأقول، ماذا سأفعل حين أجده؟ هل سأنظر إلى فمه وأرى آثار قُبلها؟ هل سأنظر في عينيه وأرى ما رآه فيما كانت إنيس تنتظره في سريرهما؟ أية أشياء فعلها لها؟ وهيَ له؟ أسمع الشدّ في

صوتها، الطريقة التي تُصدر بها صوتاً حين تبلغ الذروة. أسمعها بوضوح وحيوية. ألتفتُ فجأة لأنني أسمعهما معاً خلفي. أضرب الطاولة. تُسْفَح القهوة في الصحن. لا يوجد شيء بالطبع، فقط خيالي الداخلي المتألّم. لا أثق بنفسي. لا أثق مطلقاً.

أنظر إلى حديقتي ومنزلي كأنني أنظر إليهما للمرة الأخيرة. أراقب خطاً من النمل يتحرك عبر الأعشاب الخشنة من وإلى وكره في التربة الرملية السوداء الناعمة. تتشاجر البلابل على أغصان الأشجار، وتغني أنشودتها الممتعة الرائقة. أعرف أنني حالاً سأتخلى عن هذا المحيط المسالم وكل راحتي غير المستحقة. أخذ هذا الشيء مجراه، وانتهى الفاصل. أنهيتُ روايتي، المخطوط مع آلن في لندن. سأسمع منه في أيّ يوم الآن. سأمتلك الوقت كي أعود إلى حياتي الحقيقية مهما كان حكمه. سأغادر ليوبولدفيل والكونغو. سأودّع ستايب وروجر ومادلين. إن مساعدة أوغوست ستكون عملي الأخير هنا. لن يكون هناك حياة تُعاش مع إنيس. لم أعد أستطيع خداع نفسي. حان وقت الرحيل.

فتح تشارلز، خادم المنزل، البوابة واندفع بدراجته. حيّاني بوقار مستخدماً كلمة عم المعتادة له، وقد مرّ وقت طويل منذ أن توقّفتُ عن محاولة ثنيه عن ذلك. مع منْ كنتُ أمزح على أي حال؟ أنا العمّ الخاص به وتشارلز مرتاح بالحدود المعروفة. وأنا أيضاً.

- "هل تريد قهوة يا عمّ".

- "نعم، المزيد من القهوة، يا تشارلز"، قلت.

زعم أنه لا يتحدث الفرنسية. وقد أُجبرت على تحسين اللينغوالا الخاصة بي.

سند دراجته إلى الحائط ودخل. بعد عشر دقائق عاود الظهور بالصينية. شعره فولاذي ورمادي ويتراجع. وجهه بدون تجاعيد، ذراعاه

عريضان وكثيفا الشرايين. سألته مرة عن عمره لكنه اعتبر السؤال شخصياً جداً. إنه رجل منعزل وغير مبتسم. يمتلك عادة عدم سماع أسئلتي، أو عدم فهمها. أعتقد أنه ربما كان أميّاً. فهو لا ينتبه إلى الملاحظات التي أبديها له. ربما كان في الستين أو الأربعين من عمره. لا ينظر إليّ أبداً في عينيّ ولا أستطيع التخلص من الشعور بأنه يكرهني.

قلتُ وهو يضع الصينية أمامي: "عليّ أن أذهب اليوم. لا أعرف في أية ساعة أعود. فيما بعد، كما أتوقّع. هناك صديقة لي تمكث هنا. هي مريضة".

- "ملاريا؟"

- "ملاريا. سأذهب كي أرتّب مجيء الطبيب الإنكليزي كي يراها، ولكنني أريدك أن تبقى معها حتى أعود. هل ستفعل هذا؟"

- "نعم يا عم".

في الوقت الذي أنهيتُ فيه قهوتي الطازجة قررتُ أن الساعة معقولة بما يكفي للاتصال بروجر. قال إنه سيأتي قبل منتصف النهار.

قلتُ بتردد: "روجر، إذا كنت تتحدث مع ستايب، رجاءً لا تخبره بالأمر".

كانت هناك وقفة في الطرف الثاني من الخط. كرهتُ وضعه في هذا الموقف. إن رجلاً وقوراً كروجر لا يستحق أن يعلق في مشكلات الآخرين.

قال أخيراً: "نادراً ما أرى ستايب".

أنهيتُ ارتداء ملابسي. جلستُ على السرير ونظرتُ إلى إنيس. ستنحسر الحمّى في الحال. ستستيقظ ضعيفة ومحطمة. سيعتني بها روجر.

ذهب تشارلز كي يفتح البوابات. نظرتُ إلى الأعشاب وطلبتُ منه أن يحصدها قبل أن تمطر هذا الأصيل. هزّ رأسه آلياً؛ تعبيره فارغ، كما دوماً، عيناه مدارتان بعيداً. ترددتُ قبل الدخول في السيارة. لم أتحدث أبداً عن الوضع السياسي مع تشارلز ولا أعرف مع من يتعاطف. إنه من الباكونغو وربما داعم لكاسافوبو. كان الرئيس السابق في المنفى منذ انقلاب موبوتو، ولكن يُقال إن العلاقات بين الرجلين جيدة وثمة شائعات بأنّ كاسافوبو سيعود حالاً كي ينضمّ إلى نظام موبوتو. هل سيعرف تشارلز من هي إنيس؟ هل سيعرف أنها صديقة لومومبا؟ إذا كان داعماً لكاسافوبو هل من الأمان تركه معها؟

سألته مفكراً باستكشافه: "هل سمعتَ عن إطلاق النار في السفارة الغانيّة ليلة أمس؟ يريد موبوتو طرد السفير خارج البلاد لأنه صديق للومومبا".

هزّ تشارلز رأسه: "كلا يا عم".

لم يسمع، كما زعم. هذا غير مرجّح. لا بد أن الخبر انتشر في المدينة كلّها.

تابعتُ: "نعم. قتلَ الحراس الغانيّون عقيداً من الجيش الوطني الكونغولي".

لم يُبْدِ أي اهتمام من أي نوع.

ـ "ربما ستستقرّ الأمور حين يتولى موبوتو المسؤولية"، قلتُ في مناورة أخيرة.

ـ "ربما".

نعم، ربما. أستسلم. لن يقول أي شيء عن هذا.

قلتُ: "إن صديقتي مريضة لا تستطيع أن تـرى أحـداً. لا تُـدخل أيّ شخص إلى المنزل عدا الدكتور الإنكليزي. سأعود حالما أستطيع".

- "نعم، سيدي".

بحثتُ في وجهه عن تلميحات حسابات سرية، أو احتمال خيانة. هل أفعل الشيء الصحيح؟ السماء منخفضة ورمادية مبيضّة. لـن تظهـر الشمس اليوم وستحدث عاصفة رعدية فيما بعد. دخلتُ سيارتي، وهي مرسيدس. اشتريتها على رصيف المرفأ في اليـوم الـذي هـرب فيـه دو شوت وولداه. قادها مهندس مذعور خمسمائة ميل من كوكويهاتفـل، ولم يتوقف إلا من أجل الوقود، ووصـل مـع زوجتـه وبناتـه الأربـع، بحاجة للنوم وجائعاً وفي حالة من الهلـع، متوقّعـاً أنـه سيُهجم عليـه وتُقطّع أعضاؤه في أية لحظـة. ألحّ المهنـدس ذو العيـنين المـذعورتين والمرتجف على بيع سيارته بعد اكتشاف أنه لا مكان لها على العبّـارة. لم أرد سيارته لأنني لو بعت كل ما أملكـه في الكونغـو لـن أجمـع مـا يعادل قيمتها. ولكنّ الرجل توسّل. فقد ترك كلّ شيء وراءه، ويحتـاج إلى النقود التي يستطيع الحصول عليها. كان بحاجة إليها علـى الفـور. نظر الحمّالون المسرورون. قدمت إحدى نساء السوق سلة مـن سمـك الكابتن وسمك السلّور. سبّها المهندس فابتعدتْ وهي تضحك. قال إنه سيقبل أي مبلغ أمنحه له في الموقع، لأن آخر ما يفكّر به هو أن يملك أولئك الأوغاد السود والمغتصبون سيارته المرسيدس الثمينة. أفرغـت أنا وروجر جيوبنا ووصل المبلغ إلى 3200 فرنك.

شغّلتُ المحرّك وانطلقتُ خارجاً إلى الشارع. لا أثـر للستروين، لا أثر لأي شخص مهتم بي أو بمجيئي وذهابي. لوّحـتُ لتشارلز وأنـا أنطلق. وكالعـادة تظـاهر بأنـه لا يـراني. إن هـذه الطريقـة، علـى مـا أفترض، تريح كلينا من الإحراج.

قدتُ السيارة عابراً البريماتور. كان الجنود في خطيّ المواجهة ينتظرون يوماً آخر مضجراً. كيف سيهرب لومومبا؟ هل يخطط داعموه لهجوم؟ يمكن أن يهجموا على جنود الجيش الوطني الكونغولي، ولكن هل سيطلقون النار على قوات الأمم المتحدة؟ فكّرتُ بالفشل في السفارة، بالعقيد الميت وأنين الجندي المجروح. هل سيُسفح المزيد من الدماء؟ بعد مسافة قريبة عبرتُ حشداً قليلاً من الناس المتجمّعين على جانب الطريق. كانوا يفحصون جثة جديدة. ما الذي ورّطتُ نفسي فيه؟

* * *

الفصل الرابع

كان القرويّون على وشك أن يتبعثروا حين أوقفتُ السيارة، ولكنّ أوغوست، وبعد نظرة ذعر مؤقتة، أومأ لهم فهدأوا بالتدريج مرة أخرى. وقفتُ على حافة الفسحة بينما استأنف حديثه. مقعياً خارج أحد الأكواخ الطينية، يتحدث باللينغالا، دون اتصال بصري مع المستمعين. كلامه غير تشديدي ويقاطعه بحالات صمت طويلة ينظر أثناءها الناس بغموض إلى الأرض أو السماء أو الأشجار. أحياناً يأخذ ملعقة مليئة بالأرز والفاصولياء من صحن قصديري عند قدميه. يمضغ الطعام بتدبّر كبير ويتبع كلّ لقمة برشفة من زجاجة كوكا كولا. لا يبدو مستعجلاً كي يسمع كل ما جئت كي أقوله، على الرغم من أنه يعرف أن حضوري هنا ينبئ بشيء غير عادي. لا يوجد أبداً أية عجلة في المناطق الاستوائية. أعرف هذا الآن. اهدأ. اهدأ. دوماً. ثمة استقالة وانسحاب. ثمة مراقبة. هناك أحياناً نوع من الكسل التفاؤلي الضعيف. لا توجد ضرورة أبداً، ولا حاجة ملحّة. حتى حين تكون الحيوات معرضة للخطر. دجاجة سوداء مع صوص أصفر وحيد يقف خلفها تنقر التراب حول سيارتي. النهار حار ورطب وكئيب؛ سنصل حالاً إلى فصل ليوبولدفيل الأسوأ.

مرّتْ ساعة قلقة قبل أن ينهض أوغوست ببطء على قدميه ويأتي إليّ، وللمرة الأولى لم تكن هناك ابتسامة جبانة كابتسامة المهرّج. نظرته رزينة وواثقة. لم أره أبداً هكذا. حتى ثيابه رصينة الآن. يرتدي قميصاً أبيض بسيطاً بكمّين قصيرين وياقة مفتوحة. يتدلى فوق بنطلون رمادي داكن. لا توجد مجوهرات.

قال بالإنكليزية: "جيد أن أراك ثانية، يا جيمس. هل أنت بخير؟"

الصوت واثق كالنظرة. الناس الذي يجتمعون خلفه يتمتمون بين أنفسهم ويحدقون بي دون تعبيرات.

قلتُ له إنني جيد، وإن إنيس في منزلي، مصابة بالملاريا. هزّ رأسه ببطء متلقياً أنبائي. لم يصدر إشارة تدلّ على الذعر أو الخوف أو عدم الراحة من كونه وجهاً لوجه مع الرجل الذي سرق منه حبيبته. نظرتُ إليه بتمعّن. كان طوله مثل طولي، ربما أقصر بإنش، ولكنه أصغر وأنحف؛ لا توجد أوقية من اللحم الزائد. ظهره مستقيم وكتفاه قويّان. إنه عضلات وعظام، رجل عضليّ تام. بشرته تامّة. بحثتُ عن عيوب فيه كي أشعر بالتحسّن فلم أجد أيّاً منها؛ لاحظتُ للمرة الأولى أنه شاب جميل. كم شعرتُ بالدناءة. كم شعرتُ بالسأم والمرارة. أخذتُ نفساً عميقاً. يجب أن أفعل ما أنا هنا كي أفعله. أخبرته أن إنيس خائفة من أن سميل سيُعذّب ويفصح عن مخبأه، وأن بوسعه أن يبقى في منزلي إلى أن تصل الطائرة المصرية.

نظرَ أوغوست في عينيّ. هل سألَ نفسه إن كان يستطيع الثقة بي؟ انتظر وقتاً طويلاً قبل أن يقول أيّ شيء؛ ثم قال ببساطة: "سأحضر أشياءنا".

أشياءنا.

فيما كان القرويون يراقبوننا سرنا معاً إلى السيارة وقدتُها على الطريق الرديء. رأيتُ هاري يعتني بحديقة صغيرة من الفاصولياء في أحد جوانب الكوخ. نظر إلينا حين توقّفْنا، تمتم شيئاً لأوغوست، تجاهلني، وعاد إلى عمله. صعدتُ الدرجات إلى الشرفة البسيطة المبنية على ما يبدو من ألواح خشبية مكسورة من النوع الذي يُرمى على أرصفة المرفأ وفي المستودعات في ليو، ودخلتُ إلى كوخ مهرّب الألماس الخانق والقذر المؤلف من غرفتين.

يهيمن سرير حديدي نقال على غرفة النوم في المؤخرة. أدركتُ أن إنيس كانت تعيش هنا مع أوغوست. هذا هو السرير الذي ناما فيه. أشياؤها ـ أشياؤهما ـ مبعثرة. حقيبتها، آلتها الكاتبة، بعض الثياب القديمة، بعض الكتب والنشرات. نظرتُ إلى العناوين: أصل العائلة، الملكية الخاصة والدولة؛ ضد دوهرنغ؛ الدور الذي لعبه العمل في الانتقال من القرد إلى الإنسان؛ كان إنجلز دوماً مفضّلاً أكثر من غيره بالنسبة لها، ومقروءاً أكثر من ماركس، كما اعتادت أن تقول. ثمة نسخة من دفاتر السجن لغرامشي، وعلى صندوق من الخشب الخام في جانب السرير، تاريخ الحزب الشيوعي الإيطالي في ظل الفاشية. وضع أوغوست الحقيبة على السرير وبدأ بجمع مقتنياتهما. رفع عن كرسي فستاناً من الحرير الثقيل، وردياً ومغبراً. كان المفضّل لدى إنيس، واحتفظتْ به للمناسبات القليلة حين كان عليها أن تبدو ذكية. كنتُ سأصرخ به: أبعدْ يدكَ عنه. فقد اشتريته لها. أنا! لا تعرف شيئاً عنه، لا تملك الحق في لمسه... لكنه لا يسمع الرعد الذي أريد أن أصعقه به، لا يرى الغضب في عينيّ. وضع الفستان على السرير ببطء وحرص ومحبة وطواه بيديه اللطيفتين الرائعتين. أسود على قرنفلي. بدا ضائعاً في ذكرى، تذكرها وشعر بها عبر المادة. لم أستطع تحمّل أنه يمتلك الحقّ في لمسها، هكذا عرضياً، كما لو أنهما معاً دائماً، كما لو أنني كنتُ أنا الغريب. عليّ أن أهرب. أذكر اليوم الذي اشتريتُ فيه الفستان. أذكره جيداً. ذهبتُ لرؤية آلن في هايكيت وكنتُ في طريق عودتي إلى المنزل حين مررتُ قرب حانوت للثياب المستعملة في كامدين. في النافذة كانت هناك دمية الخيّاط التي ترتدي الفستان. لستُ جيداً في شراء الملابس، لا أملك عيناً لها، ولكنني عرفتُ في الحال أنه لها. اشتريتهُ وأخذتهُ إلى المنزل. قالت كلاماً غير مفهوم حين ارتدته. قالت إنها لا تستطيع الخروج بفستان كهذا، ولكنها كانت مثارة بشكل كبير. وحين توقفتْ أمام المرآة ورأت لونه وملاءمته لها

وتفصيلته، وأنّ كلّ شيء فيه تام هدأتْ فجأة. وأنا أيضاً. تغيّر شيء في الغرفة وصار كل شيء بيننا أكثر حميمية وكثافة. حين استدارت إليّ كانت هناك دموع في عينيها. "إنه فستان، مجرد فستان"، قلتُ حين ضمّتني. بكتْ على صدري وأجبرتُ نفسي على ضحك خفيف ورويت نكات غير مضحكة. ولكن الحقيقة هي أن عينيّ كانتا مبلّلتين. فستان، فستان بسيط. جعلها سعيدة جداً. لماذا لم أشتر لها مائة؟ ألف؟ ما الذي يعرفه أوغوست عن هذا؟ لا شيء. أنظر ثانية إلى السرير. ما الأشياء التي فعلها لإنيس هنا؟ كيف فعلها جيداً؟

ـ "هل أنت على ما يرام، يا جيمس؟"

بالكاد أسمعه.

ـ "جيمس؟"

ينظر إليّ لكنّه لا يرى. أقاتل الإلحاح بأن أقول له اذهبْ إلى الجحيم، أو اهربْ بدون مساعدتي. كي أخبئ مشاعري تناولتُ كتاب تاريخ الحزب الشيوعي الإيطالي عن قطعة خشب قرب الطاولة وفتحته حيث هو معلّم. الورق رخيص ورقيق ومبقّع باللون البنيّ. فاحتْ منه رائحة عفونة، خفيفة كرائحة إبرة الراعي. علّمتْ تحت مقطع. كنتُ دائماً مروّعاً من عادتها في الكتابة على صفحات ما تقرأه، ولكنها أصرّت أن الكتب ليست حليّاً وأن ظهور الكتب المكسورة والأغلفة الممزّقة والمغبرّة والحواشي تُبرهن أن عمل المؤلّف قد قُدِّرَ. قرأتُ الأسطر التي علّمتْ تحتها. إنه مقتطف من شخص ما يُدعى يوجينيو كوريل: "إن التأثير الرئيسي للفاشية في إيطاليا هو ريبية لانهائية، قتلت الإيمان الممكن بأي مثال، وهزأتْ من تضحيات الفرد من أجل رفاهية الجماعة. إن هذا، في العمق، التأثير الأكثر وضوحاً الذي ولّدتْهُ الفاشيّة وسيبقى إرثها الأكثر مرارة". كان هذا ما تقرأه إنيس في الفراش.

قلتُ مشيراً إلى الكتب: "أفترض أننا يجب أن نأخذها".

قال: "نعم. ستحتاج إنيس إليها حين نصل إلى ستانليفيل".

ـ "أهيَ ذاهبة بالتحديد إلى ستانليفيل؟"، سألتُ بلامبالاة مدروسة وأنا أجمع الكتب والنشرات سوية.

أخبرتْني أنها لا تعرف إن كانت ستذهب. أكانت هذه حيلة لإقناعي بمساعدتها فحسب؟ أم هل أعرف شيئاً لا يعرفه أوغوست؟

ـ "نعم ستأتي إنيس إلى ستانليفيل. إنها أكثر أماناً".

سألتُ بحدّة: "هل ستذهب؟ أعني أنها ستكون آمنة لك، ولكن هل ستكون آمنة لإنيس؟"

أجاب بهدوء: "لم أقلِ إنها ستكون آمنة لإنيس، يا جيمس، قلتُ إنها ستكون أكثر أماناً من هنا. في ستانليفيل سيعاود باتريس تنظيم الحركة كي تقاتل موبوتو والديكتاتورية العسكرية".

صحتُ به: "سألتُ إن كانت ستكون آمنة لإنيس. لا آبه بأي شيء آخر" ـ جمعتُ حفنة من ثياب إنيس ورميتها بغضب في الحقيبة ـ "لا يهمني باتريس ولا موبوتو، وبصراحة لا تهمّني أنت. إن هذا الشيء كله خطأ وسيكون خطأ سواء استولى أيّ طرف غير كفؤ وماكر منكما على السلطة".

وضعتُ الكتب على الثياب في الحقيبة. كان أوغوست يقف صامتاً في الجانب الآخر من السرير وينظر إليّ بهدوء. زاد صمته المتأثر من غضبي.

ـ "مع من تعتقد أنك تمزح، يا أوغوست؟ أنت ثوريّ. منذ ستة أشهر كنتَ فخوراً بكونك عضواً في جمعية الطبقات الوسطى الأفريقية. أتذكر؟ أتذكر أنك كنت ستصبح محامياً في بارك أفينيو؟

أتذكر أنك كنت ستملك مكتباً مليئاً بالسكرتيرات الجميلات؟ يمكنك أن تلعب دور رجل الشعب مع القرويين البسطاء يا أوغوست ولكن ليس معي".

نظرُ إليَّ دون ردّ.

جمعتُ ما تبقى من أشياء إنيس. لعنتُها في ذهني. هل تمتلك الحق كي تطلب مني مساعدة رجل أخذها مني؟ إن أوغوست الآن في خطر مهلك ولكن لا علاقة لي بهذا. هذه مسؤوليتها. إنها تضعه في هذا الموقع. إنها من أقنعه أن العالم مكان أي شيء فيه ممكن إذا تجاهلتَ القواعد التي وضعوها لك، إذا كنتَ شجاعاً بما يكفي كي تزدري الحدود. ولكنّ الحدود موجودة، يا إنيس، الحدود موجودة. حدود على الخريطة، حدود بين الناس، وبين الأفراد، وبين الرجال والنساء، وبين اللون والطبقة والمهنة والمعتقد. إنها هناك، حتى في السماء. لا تستطيعين أن تتفاوضي معها، واحداً واحداً، يمكنك أن تجتازيها أحياناً، ولكنك لا تستطيعين التصرف وكأنها لا توجد. إن الخطر الذي يحدقُ بأوغوست ناجم عن خطأك، أقنعتيه أنه لا توجد حدود إلا تلك التي وضعها البلجيكيون في الخيال. وبسبب خطأكِ كُشفت أخطائي كلّها. كل تفاهتي وغيرتي. ليس هذا عادلاً، يا إنيس.

حملتُ الآلة الكاتبة، وتركتهُ كي يحضر الحقيبة التي تختلط فيها ثيابهما.

قلتُ: "لنذهب قبل أن يصل الجنود إلى هنا".

سرتُ إلى الشرفة المتداعية. هناك، أمام المنزل، بدا كأن القرية كلّها اجتمعت. كان هاري يعمل في حديقته الصغيرة كما لو أنه لا يحدث شيء خارج العادة. أبقى رأسه منخفضاً، متجاهلاً الحشد، ومتجاهلاً وجودي. أية قدرة لانهائية يمتلكها البشر على تجاهل ما لا

يريدون أن يكونوا جزءاً منه، حتى حين يجري خارج منازلهم. ظهر أوغوست خلفي وصدرتْ تمتمة عن القرويين. امرأة بتنورة ذات لون أزرق قويّ برسوم من هواتف ذهبية تحمل طفلاً وكأنها تريد أن يباركه أوغوست. حين نزلنا تجمّع القرويون حولنا، مادين أيديهم كي يلمسوا وجه أوغوست، وظهره. وضع الحقيبة وأمسكوا بيديه. وقف بينهم كنبيّ بين أتباعه المخلصين، بعينين هادئتين، ونبوئيتين ولطيفتين. وقفتْ أمامه فتاة بشعر قصير وعقد من الأحجار الصغيرة الزرقاء والبيضاء وابتسمتْ بخجل.

- "قد تصبح إحدى السكرتيرات في مكتبك في بارك أفينيو".

نظر إليّ نظرة قصيرة. ثمة صفحٌ غاضب في عينيه.

قلتُ ضجراً من هذا ومغتاظاً: "هيا. قل للمؤمنين الحقيقيين إن عشيقتك تنتظر".

لكنه لا يستعجل. ما الذي قاله، ما الذي فعله كي يعامله هؤلاء الناس بهذه الطريقة؟ ما الذي حثّ على هذا الحبّ الشديد؟ كانت مغادرة طويلة وبطيئة. اقترب القرويون كثيراً حين دخل السيارة إلى جانبي. دخلتْ الأيدي من النافذة من أجل لمسة أخيرة لرائيهم. أدرتُ المحرّك.

قلتُ بمكر ونحن نبتعد: "ما الذي قلتهُ لهم؟ هل قلتَ إنّ أقرباءهم الموتى سينبعثون من القبر حين يعود لومومبا إلى السلطة؟ إنهم سيجدون النقود البلجيكية تنمو في حقولهم؟"

حدق نحو الخلف إلى القرويين. لوّحوا له مودّعين.

قال حين تركنا الكوخ والقرية وراءنا: "اعتقد الناس أنك من الرجال البيض حاملي الضوء".

- "ماذا يعني هذا؟"

ـ "اعتاد العجائز أن يسمّوا البلجيكيين الرجال البيض حاملي الضوء".

ـ "لماذا دعوهم هكذا؟"

ـ "حين جاء البلجيكيون إلى القرى، كان الرجال يختبئون في الغابات. وهكذا كان البلجيكيون يعتقلون النساء والأطفال كرهائن ويغتصبون الفتيات ويهددون بقتل الجميع إذا لم يعد الرجال. حين يعود الرجال يأخذهم البلجيكيون بعيداً إلى العمل في مزارع المطاط وسكك الحديد. يعملون مقيدين بحلقات فولاذية حول أعناقهم بسلاسل تربطهم ببعضهم بعضاً. كانوا يُجلدون ويُضربون. وكانت أيديهم تُقطع كعقوبة على عدم إنتاج ما يكفي من المطاط أو العاج. وهكذا في المرة التالية التي جاء فيها البلجيكيون إلى القرية، هرب الجميع ـ قبائل بأكملها ـ إلى الغابة لينجوا من عمليات البتر والاغتصابات. عندئذ أرسل البلجيكيون الشرطة إلى الغابات في الليل بأضواء فلاشات قوية وهكذا سموهم الناس الرجال البيض حاملي الأضواء. اعتقد كثير من الناس أن البيض كانوا عفاريت يحملون مصابيح سحرية".

بدأ المطر يضرب الزجاج الأمامي وينقر السقف.

واصل أوغوست: "كنتُ أقول للناس إن البيض ليسوا أعداءنا".

سألته: "هل حقاً تؤمن بهذا؟"

أجاب: "هناك كثيرون يؤمنون، ولكنك لست واحداً منهم".

قلتُ: "لستُ صديقاً ولا عدواً".

ـ "إذا لم تكن صديق الشعب، لماذا تساعد؟"

ـ "لا يتعلق هذا أبداً بتعاطفي معك أو مع لومومبا أو الحركة الوطنية الكونغولية"، أجبتُ بألم.

ـ "قالت إنيس إنك لستَ منفصلاً إلى هذا الحد".

ـ "هذا يبرهن تماماً أنك تستطيع أن تعيش مع شخص لسنوات ولا تعرفه أبداً".

ـ "ربما لا تستطيع أن ترى ما هي دوافعك الحقيقية".

ـ "آه، كان لي دوماً وجهة نظر جيدة بدوافعي، يا أوغوست. ولكن أعتقد أنك ربما في الظلام حيال دوافعك".

ـ "هل تعتقد أنه من الخطأ تحقيق العدالة والمساواة؟"

ـ "هذه ليست دوافع، بل كلمات فحسب، كلمات مستنفدة ".

ـ "لا أوافقك الرأي".

ـ "ليست الكلمات هي التي تحفّزني، أو أي شخص أعرفه".

ـ "إنها تحفّز الناس الذين أعرفهم".

ـ "من الواضح أننا نتحرك في دوائر مختلفة".

اتجهنا نحو البلدة عبر المطر المدرار.

قلتُ لأوغوست: "ثمة حاجز على بعد كيلومتر من هنا. من الأفضل أن تختبئ في الخلف".

حين دخل إلى الصندوق وانتظرني كي أغلقه أدركنا أننا نفكر بالأمر نفسه.

قلت: "هل تعرف شعوري ناحيتك؟"

اضطرب.

ـ "هل فكّرْتَ حتى لثانية واحدة ماذا تسبّب لي حين أشاهدك؟"

لم يفكّر. لم يخطر بباله أبداً أن يكوّن فكرةً عنّي. إن أحد امتيازات الحب هي أننا نعذر العاشق من القيام بالواجبات المعتادة اليومية والاستجابات. نسمح للجديد في الحب بإعفاءات معيّنة. نسامحه، على الأقل مرة واحدة، على أنانيته. ولكنّ هذا لا يجعل عدم التفكير سهل التحمل. نظرتُ إليه بازدراء. كلانا يعرف أنه تحت سلطتي تماماً. أستطيع أن أسلّمه للجنود على الحاجز، أو إلى ستايب، أن أختلق قصة لإنيس. أستطيع التخلص من خصمي إلى الأبد. أُغلقُ الصندوق. كلانا يعرف أنني قادر على هذا. كلانا يعرف أنني لن أفعل. أعرف دوافعي بشكل أفضل منه. تقودني في اتجاه واحد. إنه في أمان معي أكثر مما يمكنه التصوّر.

* * *

الفصل الخامس

حين عبْرنا الريجينا خطر لي أن أقوم باتصال هاتفيّ احترازيّ. صففتُ السيّارة في جادة مولاريت وقلتُ لأوغوست، الذي كان مختبئاً في صندوق السيّارة، إنني سأغيب خمس دقائق. مرّت العاصفة وخفّ المطر قليلاً، لكنه ما يزال ثقيلاً. غادرت السيارة وذهبتُ إلى الفندق. في الداخل شاهدتُ غرانت يتحدث مع جورج، المسؤول الصحفيّ للأمين العام للأمم المتحدة. صاحا مرحّبين وطلبا مني الانضمام إليهما لتناول كأس. اعتذرتُ وذهبتُ مباشرة إلى الهواتف العامة. دققتُ رقمي. لا يوجد إحساس بكوني هاو في هذا الأمر، ثمة أمور كثيرة معرضة للخطر. رنّ الهاتف مرتين.

- "مرحبا؟"

إنه روجر.

- "هذا أنا. كل شيء على ما يرام؟"

- "آه، جيمس. أنا سعيد أنك اتصلت. أنا خائف لأنه كان هناك بعض النشاط. زارك البعض".

دقّ قلبي في صدري.

- "نعم؟"

- "الجيش".

- قلت وصوتي غير متيقّن: "أفهم. هل كلّ شيء على ما يرام؟"

- "أعتقد".

ـ "هل قالوا ماذا يريدون؟"

ـ ليس بكلمات كثيرة، بل بالأحرى كانوا أذكياء بالقدوم".

ـ "هل إنيس بخير؟"

قال بقوة: "نعم. لا تقلق. أخرجتهم بحزم. وطلبتُ منهم ألا يعودوا إلا إذا كان معهم مذكرة".

ضحكتُ بارتياح. تخيّلتُ المشهد: روجر يواجه مجموعة مسلحة من جنود الجيش الوطني الكونغولي دون أي شيء سوى الإيمان الذي لا يتزعزع للطبقات الوسطى الإنكليزية بأنّ السلطات يجب أن تعمل دوماً قانونيّاً وعلى نحو صحيح. ولن يدهشني أن أسمع أنه أورد ميثاق الحرية دعماً لرفضه السماح للجنود بالدخول.

تابع: "على أي حال أعتقد أنها ليست فكرة جيدة أن تمضي إنيس فترة أطول هنا. ينتابني شعور بأنهم يمكن أن يعودوا".

ـ "هل هي قادرة على السفر؟"

ـ "مسافة قصيرة فقط. إنها أفضل بقليل، ولكنها ما تزال ضعيفة".

صمتُّ، محاولاً الوصول إلى حل لهذا التعقيد الأخير. أنا غير متأكد كم أستطيع أن أطلب من روجر.

قبل أن أستطيع قول أي شيء تحدّث ثانية: "أستطيع أن آخذها إلى منزلي، إذا أحببت. إن الشاطئ يبدو رائقاً الآن".

تدفقت الراحة والامتنان في صوتي حين شكرته. وخطر لي أنهم يمكن أن يغيروا على منزل روجر وقد رأوه في بيتي. لم أشعر بالراحة كي أطلب منه أن يستقبل أوغوست أيضاً. تعرّقتُ بغزارة على الرغم من التكييف في الفندق. نظرتُ حولي، محاولاً أن أرتّب أفكاري. غرانت وجورج يشربان كأسيهما إلى طاولة بيضاء قرب المسبح.

شعرتُ بتعب رهيب وبالدبق. قدماي حارتـان ومنتفختـان. تمنّيـتُ لـو أستطيع خلع حذائي وثيـابي والغـوص في المـسبح. تمنّيـت لـو كنـتُ أستطيع العـوم ووجهـي إلى أعلـى وعينـاي مغمـضتان وأذنـاي تحـت سطح الماء. تمنّيتُ لو أستطيع أن أستلقي. فكّرتُ بمادلين. كانت هنا، إلى جانب المسبح، غازلتْني وغازلتُها.

ـ "جيمس؟ هل أنت هناك؟"

مادلين. جاءني الحل.

ـ "نعم ـ نعم، ما أزال هنا. فقد فكّرت بشيء".

أعطيتهُ عنوان منزل هاوثهوفد في يوجين هنري.

وأضفت: "روجر، لا تجعلْ أحداً يرى أن لديك راكباً معك".

قال إنه يتفهّم الأمر. سيضع إنيس في المقعد الخلفي ويغطّيها بشرشف.

في طريق خروجي صادفتُ ستايب يتحدث مع اثنين من مسؤولي الأمم المتحدة عند الحـشد. بـدا مختلفـاً، وأكثـر بـرودة معـي، كأنـه يعرف شيئاً ما. قلتُ لنفسي إنني سخيف، إنه بالطبع لا يعرف، إنه في الغالب هكذا حين "يعمل"، إنّ ذهني مـشغول فحـسب. ولكـن حـتى حين سأل عن قـدمي كـان هنـاك قـسوة في صـوته. قلـتُ إنـه خـدش فحسب مبتسماً بإفراط. لا شيء يدعو للقلق. حين تحـرك المـسؤولون رأيتُ شخصاً متجهاً نحونا.

قلتُ، متلهفاً لفرصة كي أحرف انتباهه: "أليس هذا الـدكتور هـو جو الذي من باريس؟"

اسودَّ وجه ستايب وأشار إلى الدكتور جو كي ينتظرَ لحظة. توقّف الرجل الصغير الغريب وحاول أن يبدو غامضاً.

قال بخفة: "أحد أصدقائك الأكثر ظليّة".

قال: "إنه مجرد شخص هو هنا من أجل وظيفة".

ـ "أية وظيفة هذه؟"

نظر إليّ ستايب بعينين صغيرتين قاسيتين.

ـ "لن تحاول أن تخذلني يا جيمس، أليس كذلك؟"

ـ "ماذا؟" قلتُ، مصدوماً من السؤال والنبرة.

حدّق بي.

واصل: "فقط هناك شائعات".

ـ "أية شائعات؟"

"إن متعاطفين معيّنين مع الحركة الوطنية الكونغولية والناس الذين كانوا تحت المراقبة اختفوا عن الأنظار. تركوا منازلهم، ووظائفهم. سُمع أشخاص آخرون على الهواتف يحرصون على ما يقولونه، على ما يبدو يتحدثون بالشفرة. شيء ما يجري".

مزحتُ بودّ: "سوف تخبرني، أليس كذلك، مهما كان؟ أنت تعرف أنني لا أريد أن أفقد القصص. ستظنّ الصحيفة أنني لا أقوم بعملي".

نظر إليّ كأب يشتبه بأن ابنه يكذب، ولكن ـ مجرداً من اعتراف كامل ـ لا يستطيع أن يبرهن ذلك. عرفتُ أن كل ما عليّ فعله هو أن أغلق فمي، ولكن جزءاً مني متلهف للاعتراف.

قال: "أعرف كمسألة مبدأ أنك لا تحب أن تتورط. ليس هذا وقت تغيير عادة فترة حياة".

ـ "خسرتني، أخشى ذلك".

ـ "هل خسرتك؟"

قلت، مصارعاً كي أؤكد فعلي: "كثيراً".

انشدّ فمه. قال: "آمل هذا. في الواقع آمل. لن أخذلك. إن إنيس تواجه مشكلات كثيرة".

شعرتُ بالدم يجفّ من وجهي. كنتُ كمثل سكّير يصارع كي يبقى واقفاً، مركّزاً على المحافظة على محتويات معدتي حيث هي.

ـ "إذا جاءت إليك..."

قلتُ بسرعة: "سأكون آخر شخص تأتي إليه".

ربما بسرعة كبيرة. حدّق بي ببرود.

كرّر ببطء: "إذا جاءت إليك يمكن أن تؤدي لها معروفاً كبيراً".

سألته: "وما هو؟"

ـ "يمكنك أن تقول لي أين هي".

ـ "لماذا سيكون هذا معروفاً لها؟"

ـ "لأنني سأحاول إبقاءها على قيد الحياة".

أصدرتُ ضحكة عصبية قصيرة.

قلت بخفة قدر استطاعتي: "إن هذا ميلودرامي بشكل مريع".

حدّق بي.

ـ "هل تظنّ أن فكرة دخول إنيس إلى زنزانة تعذيب في السجن المركزي مسلية؟"

ـ "هل سيفعلون هذا لصحفي أجنبي؟ هل سيعذبون امرأة بيضاء؟"

نخرَ ستايب، منذهلاً من سذاجتي. نظر إليّ متفحّصاً.

ـ "هل حقاً لا تعرف أين إنيس؟ هل تخبرني الحقيقة؟"

ـ "أنا أخبرك الحقيقة".

- "اتصلْ بي إذا حاولت الاتصال بك. أستطيع مساعدتها. أستطيع مساعدتك، أيضاً، لأنها إذا جرّتك إلى هذا ستحتاج إلى المساعدة".

هزّ رأسه للدكتور جو الذي اقترب. إنِ ذقن الرجل الصغير خشن بشعر خشن أشقر مائل إلى البني. صدرت عنه رائحة كرائحة البيض الفاسد. تجنّب النظر إليّ في عينيّ.

قال ستايب: "لنتناول كأساً في القريب العاجل".

غادر هو والطبيب جو. خرجتُ بعدهما. توقف المطر. راقبْتهما وهما يمرّان قرب سيارتي المرسيدس إلى سيارتهما.

ارتجفتُ وأنا أجلس وراء المقود. لم أدر المحرّك فوراً. جلستُ وأنا أفكّر بعرض ستايب للمساعدة. هل كان صادقاً معي؟ هل سيساعد إنيس؟ وإذا فعل، ماذا سيكون الثمن؟ الثمن الكلي؟ ربما كان تسليم أوغوست مجرد دفعة قليلة فقط. ربما يريد من إنيس أكثر من هذا لكنّها لن تقدم له أي شيء. رأيتُ شيفروليت ستايب تنعطفُ إلى اليمين متجهة إلى جادة ألبرت. فكرت بأن أتبعه وأوقفه وأعترف بكل شيء. راقبته حين توقفت السيارة في أسفل الشارع، أشار ضوءها إلى اليسار، انتظرتُ قليلاً، ثم انطلقتْ واختفتْ.

سألتُ أوغوست: "هل أنت بخير؟"

ثمة تمتمةُ جوابٍ من الصندوق. أدرتُ المحرك وشغّلْتُ السيارة.

* * *

أغلقتُ البوابات ورائي تاركاً أوغوست مقفلاً عليه في الصندوق، الأمر الذي منحني حماساً ماكراً قليلاً. سرتُ إلى خلفية المنزل حيث نوافذ غرفة الغسيل غير مغلقة. رفعتُ حجراً من الحديقة، نظرتُ حولي كي أتأكد من أن لا أحد يراني، ثم كسرتُ الزجاج.

كنتُ خارجاً من الباب الأمامي حين سمعتُ سيارة تتوقف في الشارع. أسرعتُ كي أفتح من جديد البوابات كي يمرّ روجر. ساعدْنا معاً إنيس على الدخول. تلاشتْ الحمى ولكنّها مستنفدة. أدخلناها إلى غرفة النوم الرئيسية وأجلسْناها على كرسيّ بينما رتّبتُ السرير الذي أمضيتُ فيه أنا ومادلين كثيراً من الأصائل والليالي.

قالت إنيس هامسة: "أوغوست؟"

قلتُ لها: "لا تقلقي. إنه آمن. كل شيء سيكون على ما يرام".

سألتُ روجر إن كان يعتقد أنهما كانا مُراقبين.

قال وهو يفحص الغرفة: "ليس على حد علمي. مكان ظريف".

قلتُ: "إنه لهاوثهوفد".

رفع روجر حاجباً.

ـ "لا تقلق. لن يفكروا أبداً بالمجيء إلى هنا. إن هاوثهوفد في كاتانغا وهناك شخص واحد فقط يستخدم المنزل".

ـ "ماذا إذا جاء؟"

ـ "لن تجيء. سأتأكد من هذا".

تركتُ روجر كي يعتني بإنيس وذهبْتُ إلى المرسيدس. مدّد أوغوست أعضاءه وحك كتفه حين أخرجته من الصندوق. أعطيته الحقيبة وحملتُ الآلة الكاتبة. حين دخلنا المنزل سأل عن إنيس.

قلتُ بحدة فيما كان روجر يخرج من غرفة النوم: "إنها هنا".

ذهب أوغوست إليها.

قال روجر، الذي كان محرجاً قليلاً من هذا الموقف الذي لم يواجهه من قبل أبداً، وكأنه يتفوّه بحقيقة:

ـ "بالمناسبة، آمل ألا تمانع، ولكنني صرفتُ الخادم يوماً من المنزل. بقي محتجاً بأنه سيقص العشب، ولكنني لم أعتقد أنها فكرة سديدة أن نبقيه في المنزل، بسبب العسكر وما إلى هنالك".

ـ "هذا صحيح".

قال، وهو ينظر إلى ساعته: "حسناً، أعتقد أنني يجب أن أذهب. سألعب التنس مع أحد شبان الأمم المتحدة. أميركي. إنه شخص رزين جداً. يمكن أن نتناول العشاء في مطعم زو إذا استطعنا الدخول".

قلت: "لا أعرف كيف أشكرك".

ـ "لا تفكّر بالأمر"، قال بسرعة، كأنه يريد أن يعرقل عرضاً محرجاً من قبلي.

فحص حقيبته وربت على جيبه ليتأكد من وجود المفاتيح.

قال وهو خارج: "لا يحقُّ لي التصويت بالطبع، ولكن إذا كان يحقُّ لي فإنني لن أصوِّت للومومبا أبداً. هذا غير مرجّح. إنه عنيد جداً بالنسبة لذوقي. ولكن النقطة هي أنه فاز بالانتخابات. أعرف أننا جميعاً يجب أن نكون ممتنين لموبوتو لاستعادة النظام، ولكنّ هناك مبدأ في الحقيقة هنا".

ـ "نعم، بالفعل"، قلتُ، وكأنني لم أفهم أي مبدأ يتصوره روجر في ذهنه.

واصلَ: "دائماً يصل الطغاة بأعذار. كان لموسوليني عذره وكذلك هتلر وفرانكو. لكنّ الحقيقة هي أن المرء يجب ألا يقوم بأي تعامل معهم. هذا خطأ".

قلت: "نعم".

تـأثّرتُ علـى نحـو سـخيف بمبـادئ روجـر، خاصـة لأن هنـاك مجازفات لا يبدو أنه واعٍ لوجودها. أوجزتُ له ما قالـه لي سـتايب في الريجينا فلم يبال بالأمر.

قال: "لا تقلق عليّ. أنا صديق شخصيّ للسفير. إذا حاولوا القيـام بأي عمل قذر معي سيكتشفون في الحال مع من يتعاملون. الأمر نفـسه ينطبق عليك. أنت مواطن بريطاني".

كان تهوّره معدياً. شعرْتُ فجأة وكأن ثقلاً كـبيراً قـد أُزيـح عنّـي. غمرتْني الثقة. استطعْتُ أن أرى تهديدات ستايب في منظور. سنمرُّ في هذا. مددتُ يدي وحين وضع يده فيها ضـغطتُ معبّـراً عـن مـودّتي، ممتنّاً ليس فقط لمساعدته العملية بل للدفع الذي قدّمـه لمعنويـاتي. لم يبد أنه فهم شيئاً من هذا. بدا متجاهلاً بشكل كامل للامتنـان والعاطفـة وراء إيماءتي. قال فقط إنه ترك المزيد من الكلوروكـوين لإنـيس علـى الطاولة قرب السرير. خرجتُ كي أفتح له البوابة. هزّ رأسه بـاحترام لي وهو يقود السيارة إلى لعبة التنس وما يفتح شهيته وعشاءه. حين ذهـب شعرتُ بأنني فقدت صديقاً موثوقاً.

سرتُ إلى باب غرفة النوم. في الداخل كان أوغوست راكعاً علـى ركبتيه إلى جانب السرير. يمسك يد إنيس في يده ويهمس لهـا. تُـصدرُ أصواتاً خفيفة مستجيبة. يداعب جبينها. لم أعد أستطيع التحمّل.

ذهبـتُ إلى المطـبخ وصـببتُ لنفـسي كأسـاً مـن الجـنّ. الـساعة تجاوزتْ الثالثة، ولكنني شعرتُ بالإرهاق فجأة. تـذكّرتُ أنـني لم أنم ليلة أمس. لم آكل طول النهار. سأذهب إلى المنزل. أسـتحم ثم أتـصل بمادلين. سأقترح أن تأتي إلى منزلي بدلاً مـن مقابلتـها هنـا كالمعتـاد. ستوافق على هذا. لم أوجّـه لهـا دعـوة إلى مـنزلي مـن قبـل. سـتكون فضولية، ربما ستعتقد أن الدعوة تنـذر بتطـور جديـد مـا في علاقتنـا. على أي حال ستأتي.

سمعتُ ضجة خلفي. إنه أوغوست.

قلت: "يجب أن تكون هادئاً قدر الإمكان هنا. ثمة بعض المعلبات في الخزانة وبعض زجاجات البيرة في البراد. سأطفئ الأضواء. ربما ستلفتُ انتباهاً غير مرغوب. من الأفضل النوم باكراً. سأعود غداً في المساء كي آخذكما. في أي وقت يجب أن آتي إلى هنا؟

أُفرغُ ما تبقّى من الكأس.

قلت: "صادفتُ ستايب في الريجينا".

لا يشي وجه أوغوست بأي رد فعل.

أضفتُ: "يبدو أنه فقد حس الفكاهة. كان في غاية الجدية".

- "كان ستايب دوماً في غاية الجدية".

- "اعتدت أن أجده أكثر سخرية".

- "أعتقد أنك أسأت قراءته، يا جيمس. حين تسير الأمور لصالح ستايب فإنه يستطيع التظاهر أنه لا ينظر إلى أي شيء بجدية كبيرة. ولكن في اللحظة التي تنقلب فيها الأمور ضده وضد مصالحه، فإن الرجل الحقيقي يُظهر نفسه. لا تشعر بالسوء أنك أسأت فهم هذا. هذا ما حصل لي".

غسلتُ الكأس وتركْته على لوح التجفيف.

قال أوغوست: "كان يخطط لاغتيال باتريس".

ضحكت. "أظن أن هذه مبالغة - حتى بالنسبة لستايب الجديد".

- "إن الأميركيين متورّطون في الأمر. فقد أحضروا عالماً إلى ليوبولدفيل. إنه مُسمِّم".

ضحكتُ ثانية. بدت هذا كمأساة انتقام يعقوبية مفرطة.

واصل أوغوست: "يسمونه الدكتور جو ولكن اسمه هو غوتلييب. إن المهمة الموكلة إليه هي قتل باتريس بسمّ خاص".

لدى ذكر الدكتور جو نهضتُ.

سألته: "كيف تعرف هذا؟"

- "إن الأميركيين ليسوا الجواسيس الوحيدين في ليوبولدفيل".

هذا عبثيٌّ جداً. غير أنني لا أضحك. فكّرتُ بالرجل الصغير السخيف المظهر الذي يعدو بسرعة مع ستايب. أعرف أن ستايب يريد أن يخرج لومومبا من المشهد. ولكن هل سيذهب في الأمر إلى هذا الحد؟ ارتعش عمودي الفقري. وتلاشى الإحساس بالمعنويات القوية الذي ولّده روجر. رنّتْ تهديدات ستايب في أذني وثانية فكّرتُ بالذهاب إليه.

ألقيتُ نظرة أخيرة على إنيس. كانت أكثر راحة الآن. خصّتني بابتسامة شاحبة حين جلستُ على السرير.

قالت بصوت منخفض: "إن الطائرة مساء غد هي الفرصة الأخيرة للهرب من هنا".

قلتُ: "أعرف".

- "نحن نعتمد عليك. إذا لم تأت لأخذنا، لا فرصة لدينا".

- "هل هذا يعني أنك ذاهبة إلى ستانليفيل أيضاً؟"

لم تقل أي شيء.

قلت حين عرفتُ ما هو الجواب: "سآتي إليك. يمكنك الاعتماد عليّ".

ثمة الكثير لقوله، ولا شيء لقوله مطلقاً.

* * *

أوقفتُ السيارة أمام منزلي، واستخدمتُ البوق قبل أن أتذكر أنّ روجر صرف تشارلي إلى منزله. حالما خرجتُ من السيارة كي أفتح البوابات اندفعتْ سيارتا جيب تابعتان للجيش الوطني الكونغولي وهما تزأران. توقّفتُ كي أنظر إليهما وهما تعبران. لكنهما لم تعبرا. بدلاً من ذلك توقفتا وترجّلتْ زمرة من الجنود يقودها نقيب وأحاطتْ بي. كان النقيب رجلاً ضخماً بعينين واسعتين ووجه مسطّح. وكانت أسنانه متباعدة، مجرّد بقايا فقدت ألوانها. سألني إن كنتُ جيمس جيليسباي. قلتُ بترفع وكأنه لا يحق له التدخل إنني هو. قال إنني يجب أن آتي معهم إلى السجن المركزي من أجل الاستجواب. مفكّراً بمثال روجر، طلبتُ أن أرى مذكرته. كان ردّ فعل النقيب فورياً وفي الوقت نفسه غير مستعجل، كان فاتراً تقريباً. التفتَ ببساطة إلى الجندي الذي يليه، أخذ بندقيته وبعقبها ناولني ضربة على جانب رأسي. ما شعرتُ به في البداية لم يكن ألماً بل غثياناً، حاجة هائلة للتقيؤ. إنها تجربة جديدة بالنسبة لي: غثيان ليس من المعدة بل من الرأس. حين تقيّأتُ، حاولتُ أن أنحني إلى الأمام ولكن العالم لم يعد منظّماً بالطريقة التي أعرفها. السماء والأرض تتحركان، إنهما في أمكنة متغيّرة. قفز الأفق إلى وجهي، ثم ابتعد ثانية. استسلمتْ ساقاي، انزلقتُ إلى الأسفل. زاغت عيناي، نظرتُ إلى الأدمغة المتجمّعة للغيوم الرمادية البيضاء في الأعلى. كانت تدور وشعرتُ بالغثيان ثانية. تقيأت واختنقتُ حين تجمّع القيء في حنجرتي. كنت أتنفس بصعوبة. انحنى النقيب فوقي. عيناي لا تعملان كما يجب. إنه في مدى الرؤية لمدة ثانية، تأرجح مبتعداً، أتى إلى مدى البصر. فتلَ رأسي.

قال: "أين أوغوست كيلوندو".

سمعتهُ بوضوح. أذناي تعملان في النهاية.

"أين كيلوندو؟"

حاولتُ أن أتحدث، ولكن لم يخرج شيء. لم أكن متأكداً مما أريد قوله: أن أقول له إنني لا أعرف أين أوغوست أو أنني أعرف. ركزتُ على إخراج بعض الكلمات. سببتْ محاولة النهوض موجة من الغثيان. أغمضتُ عينيّ. كان الشيء التالي الذي شعرتُ به هو ضربة على معدتي وفجأة رئتاي بدون هواء. أطلقتُ أنيناً ولهثتُ من أجل نَفَس. شعرتُ بألم حادّ في صدغي. ربما رفسني أحدهم على الرأس ولكنني لم أستطع التأكد. هيمن عليّ الذعر. فكرتُ بالأذى الدماغيّ والأعضاء الداخلية الممزّقة. خفتُ من أن يذهبوا بعيداً، أن يقتلوني قبل أن أصل إلى السجن المركزي. رغبتُ بأن أصيح أنني سأخبرهم كل شيء.

شعرتُ بأنني جُررت. أعتقد أنني بلتُ تحتي. ضحك النقيب بفمه الوتديّ الملوّث.

* * *

الفصل السادس

تكوّرتُ على نفسي، وضغطَ طرفُ وجهي على الأرضية المزيّتة والمضلّعة لسيارة الجيب. كان النقيب الذي يجلس واضعاً قدميه على الجزء الضيّق من ظهري يجأر ويصرخ بين فينة وأخرى ثم يضربني بكعب البندقية على جانبي أو يرفسني. لم تكن الرفسات قوية. ذلك أن بوطه كان مقيّداً بسبب ضيق المكان. أبقيتُ عينيَّ مُغمضتين أو تظاهرتُ بأنني لا أسمع أو أشعر. كلّ ما أردتهُ هو السواد، أن أعانق الخدر، وأنطوي على اللاشيء، أن أثق بالآخرين: السفير وناشري وآلن وستايب وغرانت وجورج الذي يعمل كمسؤول صحفي للأمم المتحدة، بروجر، أي شخص. سيفعلون أشياء. لا أستطيع فعل أي شيء. لا أريد أن أفعل أيّ شيء. أريد فقط أن أستلقي هنا مكسواً في شرنقة ألمي. لا أريد أن يتغيّر أيّ شيء. إذا تغيّرت الأمور ستسوء. من الأفضل عدم التفكير. لا أريد حتى أن أسيطر على خوفي. المحاولة كبيرة جداً. من الأسهل الاستسلام، وترك الأمور تأخذ مجراها، أن أُقاد، حتى ولو إلى غرفة التعذيب. أن أفكّر هو أن أخلق في الحاضر رعب ما سيأتي فقط.

انحنى النقيب إلى الأمام ووضع فمه على أذني. صاح بصوت مرتفع بحيث لم أستطع سماع الكلمات الأخيرة. انتصب ثانية، متمتماً بشيء لرجاله بنبرة احتقار، و ـ تقريباً كما لو بعد تفكير تلويٍّ ـ صفع أذني بيده المفتوحة. رفع يدي اليسرى وانتزع الساعة. شخص آخر فتّش في جيوبي. بصقَ النقيبُ عليَّ وشعرتُ بملمس بَلْغمه ينزلق على رقبتي. رفسَ مؤخرتي. سببتْ الضربات لساقيّ ارتعاشاً عصبياً لاإرادياً، وشعرتُ بالرطوبة. لقد بلْتُ تحتي.

شعرتُ بالإحراج. لا أريد أن أكون هنا، لا أريد أن يحدث هذا. دعوني أذهب، لا شيء يتعلق بي. إذا اتّصلتم بستايب سيشرح لكم كلّ شيء. سيخبركم أنني لستُ من جماعة لومومبا. فأنا لا أقف معهم، ولا أقف في جانب أحد. أرى جميع الجوانب. ذلك أنّ صنْعتي تتطلّب هذا. أنا ضد الأشياء، نعم، أقرّ بهذا. أشياء التعصّب واللاتحرّر. أنا ضد العقائد القطعية واليقين والإيديولوجيا وكل الأشياء التي تغلق خياراتنا. أنا ضد. لست مع. أنا مع لا شيء. لا يمكن أن أكون. أنا قلم. أعيش من أجل الكلمات، حياتي في الكلمات. يجب أن تفهموا. كلمات فحسب، والكلمات لا يمكن أن تكون "مع" لأنها تصف كلّ شيء. تعرف كل شيء، تعرف إلى أين يقود كلّ شيء. إنها تهدمُ وتعرّي وتقف منفصلة وترفض أن تنحاز. إنها غير ملتزمة وأنا غير ملتزم. ليس بأيّ شيء. أنا قلم.

رفسني النقيب على رأسي.

لا فائدة من هذا. أعرف. لن تعمل تبريراتي. يجب أن أفكّر. إذا كان يجب أن أبقى على قيد الحياة يجب أن أُجبر نفسي على التفكير.

اهتزّتْ الجيب بعنف. خبط رأسي على المعدن. على الأقل انحسر الغثيان. عاد وعيي على نحو متقطّع. مرّرتُ لساني المنتفخ على أسناني. كانت كلّها هناك. كان هناك دم، كثيف ومالح وحلو. عثرتُ على المصدر، كان جرحاً بليغاً على شفتي السفلى.

أمتصُّ الدم بقوّة لأنّ السائل الساخن هو أنا؛ أنا آخذ نفسي نحو الداخل، أنا أُطمئن نفسي، أحبُّ نفسي، أذكّر نفسي بنفسي. أنا حقيقيٌّ. دمي يجعلني حقيقياً وأستحقُّ البقاء. يجب أن أفكّر. يجب أن أخترع قصّة عن الأحداث أرويها لهم. ستستغرق الرحلة إلى السجن المركزي من 15 إلى 20 دقيقة. حالما أدخل زنزانة الاستجواب لن يكون هناك وقت كي أخترع قصة. يجب أن أخترع واحدة الآن، شيئاً قابلاً للتصديق. يجب أن أستخدم هذه الدقائق الثمينة المرتجفة.

* * *

ماذا يعرفون؟ ابدأ من هنا. ماذا يعرفون؟ فكِّرْ. فكِّرْ. سيارة السيتروين السوداء. السيارة التي بدتْ كأنها تتبعنا ليلة أمس حين أوصلني روجر إلى البيت. هل كان هذا الأمن العام؟ هل كانوا يتبعوننا، يراقبوننا؟ لو كان هذا صحيحاً لكانوا يعرفون كلّ شيء، وأنّ إنيس جاءت إليّ بعد أن أوصلني روجر، وأنني ذهبتُ بسيارتي إلى كوخ هاري في الصباح التالي، هذا الصباح؛ عصور مرّتْ. سيعرفون أنني ذهبتُ إلى منزل هاوثهوفد، أن روجر انضمّ إليّ هناك فيما بعد مع إنيس. سيعرفون أن أوغوست هناك أيضاً.

لكنّهم لا يعرفون. انتصار! نعم! لا يعرفون أين أوغوست. وهذا يعني أنني لم أُراقب، على الأقل ليس طول الوقت. إذاً لماذا اعتقلوني؟ فكِّرْ. فَكِّرْ.

إنهم يتبعون حسّهم الباطني. هذا هو الأمر. يعرفون عني وعن إنيس، وعن إنيس وأوغوست. يفعلون ما يقوم به المحقّقون في أيّ مكان. يعتقلون زميلَ رجلٍ مطلوبٍ للاستجواب. ليس لديهم شيء محدّد ضدي.

بدأتْ الثقة تسلّلها البطيء إلى رأسي. ربما ليس هذا الموقف مستحيلاً كما يبدو. أستطيع أن أنكر كلّ شيء بما فيه الفعل الأكثر مساومةً من الكل، الشيء الذي بدأ كلّ هذا: أستطيع أن أنكر أن إنيس كانت في منزلي. تلقّيتُ ضربة على ركبتي. كلّهم يرفسونني الآن، من الأمام والخلف ويبصقون. ثمة كدماتٌ في عيني وأنفي وذقني وشعري. لا يهم. أستطيع أن أعالج هذا. أنا في حالة صحو. أستطيع إنكار كلّ شيء.

أستطيع إنكار كل شيء.

نعم.

بالتأكيد كل شيء.

تشارلز.

آه كلا. من فضلك كلا.

تشارلز.

فكِّر.

هل أخبرهم الخادم بكلّ شيء؟ لماذا لـن يفعـل؟ لا يملـك ولاء لي، فقد ورثْتهُ مع المنزل كجزء من البضائع والأثاث. حافظـتُ عليـه. حاولتُ على الأقل أن أكون ربّ عمل معقـولاً، وأن أدفـع أعلـى مـن الراتب السائد بقليل، كنت مرناً حيال سـاعاته، ولكنّـه رفـض جميـع محاولاتي للاقتراب منه. فهو لا يحبّني. لماذا لن يخبرهم عـن إنـيس؟ إنه من قبيلة باكونغو، وهم لا يحبون لومومبا. ربما أخـبرهم مـن قبـل أنه كانت هناك امرأة بيضاء في فراش "العم" حين وصلتُ للعمـل هـذا الصباح، امرأة بيضاء صغيرة كانت مريضة. طلب مني ألا أُدخلَ أحـداً لرؤيتها عدا الطبيب الإنكليزي.

سيخمّنون هوية المرأة على الفور.

ماذا يعني هذا لي؟

لا شيء جيداً، لا شيء جيداً.

إنه يائس، بلا فائدة، يائس.

الطبيب الإنكليزي.

الأمر يسوء. سيذهبون إلى روجر. لمـاذا ورّطْتـهُ؟ إن المـساعدين يخونون دائماً. إلى متى ستصمد مبادئ روجر الرفيعة؟ ليس طويلاً. إنّ روجر رجل يتكيّف مع القوانين، وهؤلاء الناس سيقنعونه حـالاً بـأنهم

هم القانون. قد يحتجّ، قد يُلقي محاضرة معبّراً عن استيائه، ولكنّ الاحتجاج لن يدوم طويلاً، وستكون المحاضرة موجزة، ستكون شكليّة فحسب.

ثم سيخبرهم.

لكنني أستطيع أن أنكر.

لماذا لا؟

كلمته ضدي.

ماذا لو فتّشوا المنزل وعثروا على شيء لها؟ هل يوجد شيء لها يمكن العثور عليه؟ ربما قطعة من ثيابها. حسناً، إذاً هناك قطعة لباس لامرأة ولكنّ هذا لا يعني أنها لإنيس. أو أنها تركتها هناك ليلة أمس. لن يصدقوني.

لا بد أنّكَ قرب السجن الآن. على بعد دقيقة أو دقيقتين.

لن يصدّقوني. كنتُ مخطئاً لأنني بدأتُ بالتفكير. لماذا لم أبْقَ في رحم ألمي وكدماتي؟

الوقت ينفذ. يجب أن أدخل إلى قصتي مباشرة.

اتّخذتُ قراري. سأنكر أن إنيس كانت في منزلي. سأقول إنني لم أرها منذ ـ متى كانت آخر مرة؟ ـ يوم الاستقلال. رأيتها في باليه دو لا ناسيون يوم الاستقلال. 30 حزيران. في صالة التمارين الرياضية. تقريباً منذ خمسة أشهر.

وأغوست؟

لم أر أوغوست أيضاً، منذ عدة شهور. أكيد أنني لن أساعده، بأية طريقة. أستطيع أن أستخدم سرقته لإنيس مني كي أمنح هذا

التصريح ثقلاً زائداً، سأحافظ على هذا كاحتياطي. إنها ورقة رابحة؛ لن ألعبها حالاً. سيفهمون كونهم رجالاً. لماذا سأساعد الرجل الذي أطْلع لي قرنين؟

ماذا غير هذا؟ يجب أن أعمل عبر نتائج إنكاراتي.

رأيت روجر ليلة أمس لأنني أُصبت بجرح في إطلاق النار المتبادل خارج مقر إقامة السفير الغانيّ. لم أتحدث معه منذ ذلك الوقت. ليقلْ ما يقوله. لا تعقِّدْ الأمر.

ماذا عن تحركاتي هذا الصباح؟

أين أستطيع أن أقول إنني كنت؟ لا أقدر أن أجازف بمنحهم اسم طرف ثالث. ستُكشف الكذبة بسهولة.

ذهبت في نزهة بالسيارة.

ذهبتُ في نزهة بالسيارة كي أبحث عن "موضوع" لمقالة. أنا صحفيّ. نعم، نزهة حول ليو. أنا راصد، مراقب، أجمع التفاصيل لمقالة، كلا، سيبدو هذا كالتجسس. وإذا كنتَ جاسوساً فأنت بلجيكي وإذا كنت بلجيكياً فأنت مقاتل غير نظاميّ. أبحثُ عن موضوع لرواية. أنا قلم. لا شيء آخر، لا شيء آخر.

اهتزّتْ الجيب وكأنها تمرّ على طريق منحدر. لقد وصلنا، لم أستطع إيقاف نفسي عن الارتجاف. توقّفنا. سمعتُ صوت بوابة ثقيلة تُغلق خلفنا، أبواط الجنود تضرب الاسمنت. على الأقل رتّبتُ قصتي. تمتلك فائدة كونها سلاسل بسيطة من الإنكارات؛ لها مساوئ كونها كاذبة.

حملني الجنود وقذفوني خارج الجيب.

* * *

نحن في ما يشبه الساحة. هناك سور وبوابة رئيسية في جانب، وحاجز اسمنتي منخفض ورمادي في الجانب الآخر. ثلاثة رجال في ثياب عسكرية رثة يقفون عند مدخل الحاجز، باب فولاذي بلون الصدأ. ينظرون إليّ دونما اكتراث، على الرغم من أنهم لم يروا الكثير من الرجال البيض هنا. ربما كنت الأول. ثم تذكّرتُ أن سميل اعتُقل. ربما ما يزال هنا.

دفعني النقيب من الخلف وأجبرني الجنود على السير إلى الأمام نحو الحاجز. فتح الباب الفولاذي رجلٌ يرتدي ثياباً رثّة. تبادل نكتة مع أصدقائه فيما كنتُ أدخل.

* * *

تكوّن لديّ انطباع بأن النقيب قد يكون مجنوناً. ففي الأنفاق المظلمة تحت السجن صرخ وضحك على نحو هستيري. لا أعتقد أنه تظاهر بأنه ليس هو. الجنديان اللذان رافقانا هدآ الآن وكانا يتجنّبان عينيه. كان يتحدث أحياناً، كما مع نفسه، كلاماً غير مترابط.

في نهاية ممر طويل مظلم وصلنا إلى بوابة مخطّطة، إلى جانبها رجل في ثياب رمادية مدنية متسخة يجلس إلى مكتب. أمامه سجلٌ ضخم، كسجلّ فندق. دفعني النقيب إلى الأمام فارتميتُ على البوابة. رفعني الجنديان ودفعاني إلى الخلف إلى حائط. أمر النقيب الرجل الذي في الثياب المدنية أن يفسح مجالاً. ثمة تبادل باللينغالا. فهمتُ ما يكفي كي أعرف أن المدني سأل عن تفاصيل السجين: الاسم والعمر والجنسية ونوعيّة الجرم به. صاح النقيب غاضباً. أصرّ المدنيّ. بدا أيضاً أنه يريد توقيع النقيب. رفض النقيب التوقيع وواصل تخريفه. حاول المدني بنبرة هادئة أن يقاطعه ولكن لا شيء يمكن أن يوقف النقيب. تابع دون توقف.

استخدمتُ الإلهاء كي أراجع قصتي. سأنكر كلَّ شيء. لم تأتِ إنيس إلى المنزل. لم أر أوغوست. لا أعرف أين يختبئ.

ثمة نقطة ضعف. ثمة خلل كبير في حساباتي.

إن أوغوست وإنيس في منزل هاوثهوفد. ماذا لو ذهبت مادلين إلى هناك الليلة؟ ماذا لو أحضرتْ عاشقاً آخر إلى السرير الذي يستلقي فيه أوغوست وإنيس الآن؟ كانت خطتي هي أن ألهيها ولكنني لا أستطيع الآن. سترغب بالذهاب إلى المنزل. ستتصل بي وحين لا تعثر عليَّ ستتصل بشخص آخر. ستفتح الباب وتدرك على الفور أن هناك خطأً ما. حواسّها مُرْهَفة. تعرف الروائح. ستشم حضوراً آخر، ستشم رائحة امرأة، ستشم الملاريا. ستشم رائحة "القرد". يمكن أن تهاجمهما. قد تكون مسلّحة. تحمل مادلين دوماً مسدّساً، وتعرف كيف تستخدمه.

ضاع كلّ شيء. كنتُ مصيباً. هذا لا أمل فيه. كان يجب ألا أحضر أوغوست أبداً إلى منزل هاوثهوفد. بماذا كنتُ أفكّر؟ اعتقدتُ بأنني ذكيّ ولكنني قدتُ نفسي إلى مصيدة.

واصل النقيب تخريفه. بقي المدنيُّ منعدم المشاعر وغير متأثّر.

أنزلتُ رأسي. انحنيتُ ووضعتُ يديَّ على ركبتيَّ كي أستريح. شعرتُ بالكآبة واليأس يطبقان عليّ. ساقاي ضعيفتان. رأسي دائخ. ثم - بالوضوح المفاجئ والصاعق لوحي ديني - فهمتُ أنني محميّ. لا يستطيعون أن يفعلوا معي شيئاً. شعرتُ باليأس ينجلي فوراً. لدي حماية أكثر مما يستطيع تقديمه أي سفير وناشر صديق أو سياسيّ. إن معرفتي هي حاميتي. يجب ألا أخضع للتعذيب، يجب ألا أموت. ليس عليّ حتى أن أكون هنا. أستطيع أن أخبرهم ماذا أعرف. لماذا يجب أن أساعد أوغوست؟ أكرهه. هناك أوقات يمكن أن أقتله بنفسي

فيها. أسأل نفسي إن كنتُ أستطيع العيش مع معرفة أنني خنتُ أوغوست؟ أتصوّر نفسي في لندن، في شقتي، بعد عشر سنوات من الآن، بعد عشرين. هل سأنام الليل؟ هل ستعذّبني مشاعر الخطيئة؟ هل سأنظر داخل نفسي ولا أرى إلا السواد والضعف والأنانية والكراهية؟ أعرف الجواب. في الداخل أنا أعتذر مسبقاً لإنيس. ليس الأمرُ صعباً، فقد خذلتُ كثيراً من الناس على مرّ الأعوام لأنني أحمل أعذاري معي دوماً. مع ذلك، جزء مني يعنيها هذه المرة. أنا آسف يا إنيس، حيال كلّ ما فعلتهُ، حيال كلّ ما سأفعله.

نظر إليّ النقيب الذي ما يزال قرب المكتب مع المدني وصاح شيئاً، أمراً، تهديداً. رفعني الجنود ودفعوني إلى الخلف على الحائط. أمرني النقيب بأن أقف منتصباً لا أن أنحني. تجاهلتُه. لستُ خائفاً. يجب أن أتحدث مع ستايب. إن إخبار النقيب لن يضمن لي أي شيء. صحْتُ بأنني أريد أن أتحدث مع مارك ستايب في السفارة الأميركية. كررت رقم الهاتف والاسم بصوت مرتفع: مارك ستايب، مارك ستايب.

أمرني النقيب أن أهدأ.

أخذتُ نفساً وواصلتُ: أريد أن أتحدث مع مارك ستايب في السفارة الأميركية. إنه صديق موبوتو. إنه صديقي. يريد أن يعرف أنني هنا ويريد أن يتحدث معي. لدي معلومات مهمة لمارك ستايب. فقط لمارك ستايب.

خطا النقيب نحوي. صفعني بقسوة على وجهي، أمسكَ شعري وخبط رأسي على الحائط. بيده الأخرى أمسكني من حنجرتي وصرخ في وجهي. أنا مسحور بأسنانه. لا أفهم أيّ شيء مما يقوله.

استدار بسرعة وسار عائداً نحو المكتب. قال المدني شيئاً، رمى النقيب السجل عن المكتب إلى الأرض وحدق بي. فتح المدني ببطء درجاً وأخرج مجموعة من المفاتيح. دفع كرسيّه إلى الخلف، ونهض كي يفتح البوابة. قال النقيب شيئاً ساخراً، ثم أومأ لجنوده.

مررْنا في ردهة بأبواب زنزانات صلبة على الجانبين. هل سميل هنا؟ فاحتْ رائحة البراز من المكان. ثمة لطخ على الحيطان الاسمنتية. في الطرف البعيد، على الجانب اليساري، باب مفتوح. دفعوني إلى الأمام. لم أُسجن طيلة حياتي. لا أريد الدخول.

قلتُ بسرعة، باذلاً ما بوسعي كي أبقي صوتي سليماً: "أريد أن أتحدث مع مارك ستايب. معاً نستطيع أن نساعدك. نستطيع أن نساعدك للعثور على أوغوست".

لم ينجح هذا إلا في إثارة بعض الصرخات من النقيب، التي أثارت صرخات شخص آخر. ثار المكان كلّه. الصراخ المجنون من الزنزانات جعل عمودي الفقري يرتجف.

يجب ألا أعترف أين أوغوست، لأنّ النقيب سيتصرّف وحده. يجب أن أعذّبه. يجب أن أجعله يفهم أنه لن يحصل على ما يريده إلا في حضور ستايب.

قلتُ ونحن نقترب من الزنزانة المفتوحة: "انظرْ. أعرف أنك تريد العثور على أوغوست وأريد أن أساعدك، ولكن يجب أن أتحدث مع ستايب".

للمرة الأولى لم يردّ النقيب بصرخات وتهديدات. نحن على عتبة الزنزانة. نظرتُ في الداخل. يجب أن أمنع هذا الباب من الانغلاق خلفي مهما كانت التكلفة.

قلتُ بشكل منطقي، مفكراً نحو الأمام: " ثمة سوء فهم، ولكن إذا أحضرتَ ستايب إلى هنا أنا متأكد من أننا نستطيع توضيح الأمر بسرعة وثم نذهب جميعاً إلى منازلنا".

لم يصرخ. حتى الصراخ من الزنزانات توقّف. ثمة صمت مطبق. نظر إليّ النقيب بعينيه الواسعتين. انفتح فمه قليلاً، كمثل ملاكم دائخ. ثم بدأ بالضحك. لم يكن صوتاً ظريفاً.

قال بالفرنسية: "لقد كذبتَ على الأميركي. لم يعد ستايب صديقك".

"أنت مخطئ. ستايب صديقي، صديقي الجيد جداً. سيود أن يعرف أنني هنا. سيأتي لرؤيَتي".

طال ضحك النقيب وتحوّل إلى ضحكة رقيقة وغريبة. نظر الجنديان إلى بعضهما بعضاً. كانا يريدان الخروج من هنا.

قال النقيب: "يعرف ستايب أنك هنا، ولا يريد أن يراك".

وضع يداً مربّعة على صدري ودفعني إلى الداخل. خبط الباب مغلقاً، أنا وحيد في الظلام الحالك.

أمدّ يديَّ. أصدم جداراً. أستدير، أضع راحتي كفيّ منبسطتين على الاسمنت وأنزلق كي أستريح على ركبتيَّ. ثمة رائحة بول. لا أستطيع أن أرى أي شيء. قد أكون جالساً على البول. أضع يداً في الأسفل. الأرضية جافّة، والرائحة مقزّزة للنفس. ثم أدرك أنني المصدر. أمدّ يدي داخل بنطلوني وأخرج المادة. الجلد واخز ومهتاج. أحتاج أن أرى. ربما هناك ضوء. أقف بهدوء، الألم يطغى على كلّ شيء، في ساقيَّ وخاصرتيّ وصدري ومعدتي ورأسي، وكرجل أعمى أمررّ يدي على الجدران الأربعة. لا يوجد مفتاح. أنزلق على الأرض ثانية.

ستايب. هل كان النقيب يكذب؟ أكيد أنه كان يكذب. أفكّر بكل الأوقات التي أمضيتُها أنا وستايب معاً. تَشَارَكْنا في أمور كثيرة. من البداية أظهر العلامات الصلبة للصداقة. تحدّثْنا عن الكتب والكتّاب والمفارقة والنساء. أخبرني عن ريتا، حبيبته من الكلية. أخبرني عن ريتا، الزوجة التي لم تعد تحبّه. أخبرته عن إنيس وولْدنتها. تشاطرنا الوجبات والمشروبات. زرْنا أمكنة معاً. أعطاني المادة وكتبتُ المقالات. ليلة أمس أنقذ حياتي. كنا أصدقاء. نحن أصدقاء.

أفهم. إنه الأمر نفسه مع أوغوست. ستايب صديق كريم. وهو رجلٌ محتاج بطريقته الخاصة. إنه قوي وصاحب سلطة، يعرف ماذا يريد، ولكنّه يحتاج إلى أن يُحبّ. يمنح، ربما بقليل من المباهاة، ولكن بكرم، ولا يطلب أيّ شيء بالمقابل سوى الولاء الذي يستحقه صديق جيد. أولاً خانه أوغوست. ثم أنا. بالطبع هو متألم، بالطبع هو غاضب. منذ بضع ساعات فحسب في الريجينا قال إنه يقدر على مساعدتي لو أخبرته منذ البداية. لقد خذلته. والآن هو يخذلني.

تمددتُ على الأرض. لا يهمني على ماذا أستلقي. لا أعرف ما يمكن أن يزحفَ عليّ. لا يهمني أيّ شيء.

* * *

الفصل السابع

يجب أن أنام. لا أعرف كيف. الأرضية قاسية وكل جزء من جسدي يؤلمني وذهني لم يعرف أبداً من قبل تشوّشاً وفوضى كهذين. مع ذلك نمتُ. لا أعرف كم من الوقت. لم أمتلك فكرة عن الوقت. حين اعتقلوني لم تكن قد بلغت الرابعة بعد. استغرقَ الأمر نصف ساعة، ثلاثة أرباع الساعة كحد أقصى للوصول إلى الزنزانة. ربما نمتُ لدقائق فحسب. يمكن ألا تكون حتى الساعة الخامسة. ربما ما يزال روجر يلعب التنس مع رجل الأمم المتحدة. ربما مادلين في حمّامها، تحضّر لمساء مع عاشق. أضحك من فكرة عثورها على "قرد" في الفراش الذي تستخدمه. لن تحبّ هذا مطلقاً.

إنيس. آه يا إنيس، كيف وصل الأمر إلى هنا؟ أتذبذبُ بين حبّي وكراهيتي لك. أتمنى لو أستطيع التحرر منك. ولكن لم يسبق أن أثار أحد ما أثرْتِيه فيَّ. فقد اكتشفتيني، ثم تخلّصْتِ منّي. هذا يحدث. ليس شيئاً غير عاديّ. إنه من المسائل اليومية. أعتقد أنه كان بوسعي أن أتعامل مع الأمر لو فقط تصرّفْتِ بشكل أفضل. لو قلتِ لي في صباح أحد الأيام، برقّة، كما لو أنّ الأمر يهمّك، إنك كنت ستؤذينني، لو مددتِ يدكِ ولَمسْتِ وجهي وقلتِ لي إنّ الأمور قد تغيّرتْ، وإن مشاعركِ تبدّلتْ، وإنك آسفة... ولكن لم يحدث أيّ من هذا. لم يكن هناك لطف، ولا احترام. لم يكن هناك إلا فقدان صبر، وبرودة واحتقار. أعرف أنني جعلتُ الأمر أكثر قسوة عليك بطلبي للتطمينات. ولكنني أظنّ أنني أستحقّ أفضل من هذا. ليس لأنني كنتُ جيّداً أو لا أستحق اللوم أو ... لا أستطيع أن أفكّر بشيء آخر أقوله. أستطيع أن

أقول فحسب إنني أستحق أفضل من هذا لسبب بسيط وهو أنني أحببتكِ وكنتُ محتاراً وحزيناً. إنّ للحب مسؤوليات يتعلّق آخرها ـ ربما الأكثر إرهاقاً ـ بنهاية الحب، حين يمتلك الحب المرفوض الحقّ كي يطالب بالمساعدة، وقد تجاهلتِ هذه المسؤولية. ذَهَبْتِ إلى أشيائك الأعلى دون اعتبار لي.

لا أستطيع أن أساعد نفسي الآن. عليّ أن أقول لهم ما أعرفه، إنّ هذا ليس انتقاماً، على الأقل أنا لا أظنّ أنه هكذا. سيأتي ستايب إلى هنا، ولكن ليس الآن. إن المسألة الآن مسألة بقاء على قيد الحياة. وأنا آسف. أنا في الحقيقة آسف. أستطيع أن أسمع الأنين مرة ثانية. آه يا إنيس. تعالي، وضمّيني.

* * *

انفتح الباب. أعتقد أنني نمتُ ثانية ولكنني غير قادر على التأكّد. لا أستطيع تذكر إغماض عينيّ، أو فتحهما. لا أذكر أحلاماً.

الضوء من الردهة ليس قوياً، ولكن ما تزال عيناي ترفّا. أضع يدي على تورّم بين عينيّ. أسمع صوتاً. إنه ليس صوت النقيب. كان أكثر هدوءاً وتهذيباً، ولكنه ما يزال آمراً.

ـ "انهضْ".

فعلتُ ما قاله لي.

ـ "أين أوغوست كيلوندو".

أجبتُ فوراً: "لا أعرف".

أجهلُ لماذا فعلتُ هذا. ربما لأنني كنت أردّد العبارة منذ أن جاؤوا لاعتقالي وهي متضمنة في رأسي، لأنني قمت بحساب سريع عن الفائدة المحتملة لي من قول هذا لهم في هذه النقطة.

ـ "هيّا".

لم تكن الحركة سهلة. أثناء الليل ـ إذا كان هذا ليلاً ـ توتّر جسدي. وتمرّد جزء مني عند كلّ خطوة.

عضّ الصوت: "هيّا. تحرّك".

قلت: "أريد ماء".

لا يردّ زائري.

خافضاً عينيّ، عرجْتُ إلى الرواق. وحالما صرتُ هناك، أمسكني أحدهم من ذراعي وسيّرني إلى البوابة المخطّطة. ارتجفتُ من الألم والتصلّب. لم يَعْنِ هذا شيئاً لحرّاسي بالطبع. حظيتُ بنظرة. كان هناك ثلاثة منهم، يرتدون ثياباً مدنية، ولهم منظر رجال شرطة، ضجرون ومُرْتوون وشباعٌ. وحين خرجْنا من منطقة الزنزانات ذهب أحدهم إلى المكتب. كان الرجل نفسه ما يزال في عمله. لم يزعج نفسه بالنظر إليّ. وقّع رجل الشرطة في السجلّ، استدارَ وأشارَ إلى رفيقيه وانطلقْنا. دخلْنا إلى اليمين إلى ممر آخر. وصلْنا إلى درج. صعدنا. دخلْنا من باب إلى ممر قصير. دخلْنا من باب آخر. خرجْنا إلى ضوء النهار الذي يُعمي. ظلّلتُ عينيَّ بيدي الحرة. قادوني وجرّوني في آن عبر الساحة نحو بناء آخر، وباب آخر. كان الضوء حارقاً، وصل إلى قفا دماغي وحرقني. رفّتْ عيناي، دوّرْتهما. رأيتُ الصور الظلّيّة لحراس مسلّحين يقفون أمام الباب الجديد. حين اقتربْنا بدأتُ بترتيب تفاصيل صغيرة، شعرتُ ببعض الراحة، رأيت بعض اللون. فتح أحد رجال الشرطة الباب. دُفعتُ إلى الأمام. لمحتُ الحراس ونحن نمرّ. بدا أحدهم أبيض. عبرتهُ بضع إنشات. كان أبيض بشكل واضح.

همستُ بصوت خشن: "مارك؟"

ستايب ـ إذا كان هذا ستايب ـ فإنه لم يردّ.

ـ "مارك؟ هل هذا أنت؟ ساعدني، يا مارك؟"

لم يصدر شيء عن الرجل الأبيض. وقبل أن أستطيع قول أي شيء دفعني رجال الشرطة وأغلقوا الباب خلفنا.

جروني عبر رواق آخر. في نهايته باب مفتوح يقود إلى غرفة نوم. غرفة نوم؟ كان هناك رجل يستلقي على السرير، ويبدو نائماً. تكيّفتْ عيناي مع الضوء. توضّحت ملامح الرجل الذي في السرير، الذي لم يكن سريراً بل طاولة مكتب. دفعوني إلى الغرفة بعنف بحيث كان عليَّ أن أمد يدي كي أحمي نفسي من السقوط. لمستُ الرجل النائم. كان بارداً ودبقاً وناعماً. نزعتُ يدي بعيداً. لم يكن الرجل نائماً. نظرتُ حولي في الغرفة. كان النقيب في إحدى الزوايا، يبتسم لنفسه.

نظرتُ ثانية إلى الجسد. الرأس منتفخ بشكل مخيف. الكدمات حادة وواسعة الانتشار بحيث أنه من غير السهل رؤية أن الجسد أبيض في البداية. إنه سميل. خصيتاه بحجم كرات الكريكيت. ثمة دم على رأس قضيبه القصير والثخين.

ـ "أين أوغوست كيلوندو؟"

أتى الصوت من الخلف. سمعتُ الصوت ولكن بسبب صدمتي لم أفهم ما يتطلبه الجواب. أدارني أحد رجال الشرطة.

ـ "أين أوغوست كيلوندو؟"

لا صوت لي.

قال رجل الشرطة: "سنتركك هنا مع صديقك القديم، النقيب إلا إذا قلتَ لنا الآن أين يختبئ أوغوست".

قلت: "أشعر بالظمأ. أريد بعض الماء. أريد أيضاً أن أرى السفير البريطاني".

وجّه رجل الشرطة لكمة إلى جانب وجهي. كانت الضربة قاسية لكنها لم تكن كافية لإسقاطي. وقعتُ كي أتفادى المزيد من الضربات. رفسني الثلاثة. نهض النقيب كي ينضم إليهم. كان يحمل عصا ثقيلة. غطّيتُ رأسي بيديّ كي أحميه. ضربني على العنق والكتفين. كانت الغرفة صغيرة ووقفوا في طريق بعضهم بعضاً. عثرْتُ على بعض الحماية تحت طاولة سميل. أمسك أحدهم كاحلي وبدأ بشدي من تحت الطاولة فتشبّثْتُ بسيقانها. انهالتْ الضربات على الجزء المكشوف من ساقيّ وجذعي الأسفل. ركلني أحدهم. تمسكتُ بالطاولة وحاولتُ أن أسحب نفسي إلى تحتها. تحركت. تابعوا الشدّ. تحركتْ الطاولة، انزلقتْ على الأرض، وانقلبت. استقلى سميل فوقي. فجأة توقّف الضرب. قال أحد رجال الشرطة شيئاً. بعد بضع لحظات انغلق الباب وساد صمت مطبق. لقد تركوني وحدي.

استلقيتُ هادئاً. استلقيتُ تحت جسم سميل، ووجهي منضغط على عرق الموت البارد في صدره. عندئذ، كما لو أنني في تلك اللحظة فحسب فهمتُ هول موقفي أُصبْتُ بالذّعر وحاولتُ تحرير نفسي من تحته. حررتُ ساقيَّ وحين حرّرتُ نفسي نظرتُ باشمئزاز إلى الجثة. زحفتُ إلى الزاوية الأبعد. مسحتُ وجهي وذراعي العاريين، وبشرتي المكشوفة كي أطهرها من ملمسه ورائحته. الجوّ عفن. أخذتُ نفساً عميقاً. ركّزتُ، وأحصيتُ، وتنفّستُ. اهدأْ، اهدأْ، كن هادئاً... لدي قصة أخرى. قصة خيالية، أفضل من قتل عقيد الجيش الوطني الكونغولي. زبير سميل، تاجر الألماس المولود في لبنان، العضو في الحزب الشيوعي، الزميل المقرّب من رئيس الوزراء باتريس لومومبا الذي أُطيح به، والذي انتشرت شائعات على نطاق

واسع بأنه نظّم وسهّل التمويل السوفييتي السريّ للحركة الوطنية الكونغولية، قتلتْه شرطة موبوتو السرية. قصة شاهد عيان على جسد معذّب في السجن المركزي في ليوبولدفيل. أستطيع أن أستخدم كلّ هذا، بما فيه اعتقالي وضربي، للروايات والقصص والمسرحيات. يمكن أن يكون هذا الأساس الدراماتيكي الذي يدور حوله عملي. أستطيع أن أعقد صفقة مع ستايب. إذا مات رجل عند قدميك، فإن عملك ليس أن تساعده، بل أن تلاحظ لون شفتيه. يجب أن أجمّع قواي العقلية. يجب أن ألاحظ لون شفتيه.

أصغِ إليّ.

ثمة رجل ميت ـ ليس صديقاً، بل رجل كنتُ قد عرفتهُ ـ يستلقي في كومة مثيرة للشفقة لا يبعد عني أكثر من عشرة أقدام وأنا أفكّر بفائدتي. أشعر فجأة بالمقت، بالقرف الشديد، بقسوة قلبي. هل هذا ما كنتهُ دائماً؟ مراقباً أنانياً؟ أطلقتُ أنيناً. دفنتُ وجهي بين يديّ وبدأتُ بالبكاء، من الخوف، ومن اليأس، ومن مقت نفسي. لم أقل أبداً إنني كنتُ شجاعاً أو مثالياً، ولكنني أخفيتُ ضعفي عن نفسي... وقد نجحتُ دوماً في فعل هذا.

* * *

هذا أنذا أتحدث الآن. لا خدع، لا حيلة، لا إعلانات كاتب. ما من اتهام للذات مزيّف سيجعلني أبدو جيداً. ما من شيء مخبأ أو معقّد أو عميق أو شكاك. أنا تافه وخادم لنفسي. هذه هي الحقيقة. فقد قنّعتُ نفسي بالكلمات: كلمات رواية، كلمات كذبة خُدع آخرون بها ولكن ليس كلهم، ولكنني لم أعد مخدوعاً بنفسي. مرة جعلتني كلمات الرواية أشعر بالتحسن، ولكن ليس بعد الآن. إنها تخدم الكذّاب الذي يرتّبها، والمؤمن بنفسه الذي يصمّم تأثيرها، والأناني

الذي يموّه تلميحاتها الخبيثة غير الظريفة ويمرّر النحاس على أنه ذهب. أشخاص آخرون؟ حيوات أخرى؟ متى يصل الآخرون إلى هذا؟ أي مجال موجود في هذا، في ما أفعله، للآخرين؟ كل فكرة مستيقظة لدي تتحول ضدّي. أنا على الخط الأمامي لخيالي. الآخرون، بقدر ما يوجدون، يدورون حول شمسي. يعيشون في ضوئي وظلمتي. تحت نزوتي. لم يكن لدي أبداً أي اهتمام حقيقيّ، صادق، بكائن بشري آخر. لم أكن صادقاً أبداً. لم أتخلّ مرة واحدة أبداً عن أي شيء لشخص آخر. هذه ليست مبالغة. أنا لا أجعل نفسي أبدو سيئاً كي أجعل نفسي أبدو جيداً. وقد واصلتُ هذا حتى الآن لأنني كالمجرم الذكيّ لا أترك بصمات أصابعي على مشاهد جرائمي وأنا حريص دائماً على أن أذهب مقنّعاً. المسكين سميل. كم يبدو صغيراً في الموت، كم هو مختزل. سأمدده وأعيده إلى الطاولة. زحفتُ عائداً إليه. حيث يخلو الجلد من الكدمات بدا أزرق. إنه الدم الأزرق في عروق العجائز، الرجال والنساء ذوي الجلد الشاحب الرقيق الذين ينتظرون الموت في غرف تفوح منها عجينة السمك والنفتلين. سأضعه على طاولته. إنه ثقيل ولستُ قويّاً. حملْته واضعاً يدي تحت ذراعيه وكدحتُ في التعامل مع الوزن. تدلى رأسه الدموي المنتفخ نحو الأمام. صارعتُ وشددتُ ورفعتُ لكنني لم أفلح. حاولت ثانية ولكنني لم أستطع أن أضع الجزء العلوي من جسمه على الطاولة. أنزلتهُ بلطف. دحرجته على مقدمته، ساحقاً خصيتيه الكبيرتين المكدّمتين تحته. قلتُ بصوت مرتفع: آسف، آسف. وقفْتُ عليه. أطراف أصابعه سوداء، كما لو أنهما تأذّتا من الصقيع. انحنيْتُ وحملته من خصره. سحبتهُ بكل قوتي. إنه منثنٍ، منحنٍ في الوسط، الرأس على الأرض، الركب والأقدام على الأرض. متعرّقاً من الجهد قذفته على الطاولة. انزلق من بين أصابعي. أطلقتُ أنّة وأنا أقوم

بمحاولة نهائية لرفعه بضعة إنشات أخرى، لإمساك جزء منه، أي جزء، على الطاولة. عجزتُ عن فعل ذلك. لم أرد أن أسقطه، لكنه انزلق مني. سقط عند قدميّ.

فُتح الباب. إنه ستايب. بالكاد نظر إلى سميل.

قال محدقاً بي: "إنك تتحسّن".

ـ "انظرْ ماذا فعلوا لسميل. انظرْ ماذا فعلوا".

نظرَ إلى الجثة لثانية. لم يسجّل وجهه أي انطباع. الضجر ربما. أعرف عمله الآن. أكرهه.

ـ "دعنا نركّز عليك الآن".

صحتُ به: "لا، دعْنا نركّز عليك. دعنا نركّز على ما تفعله هنا..."

ـ "طلبتَ أن تراني".

ـ "... هنا في هذه البلاد".

هزّ كتفيه. قال: "أنا أحاول أن أجعل هذه البلاد مكاناً آمناً".

ـ "آمناً لمن؟"

ـ "لناس من أمثالك".

ـ "اتركني خارج هذا".

قال بازدراء: "تريد دوماً أن تُستثنى من الأشياء يا جيليسباي ولكنك متورّط في هذا ليس لأن لك صلات مع أشخاص نبحث عنهم فحسب. أنت متورط بالطريقة نفسها التي نحن متورطون بها. إن أشخاصاً مثلك لا يحبّون الألعاب القذرة التي يلعبها أشخاص مثلي، ولكنك تستفيد في كل مرة نلعب ونربح. وأنت لن تقرّ بهذا، ربما ستنكر هذا حتى لنفسك، غير أنك تريدني أن أفوز، لأنني إذا خسرتُ

ستخسر أنتَ أيضاً، ستفقد كلّ شيء، جميع امتيازاتك، الكتابة والنشر والصحافة، إذا ذكرنا فقط الأشياء التي تهمك بشكل خاص، إنها ممكنة فحسب في سياق معيّن، ووظيفتي هي التأكد من استمرارية السياق. أحياناً يعني هذا أشياء غير سارّة، أحياناً يعني الارتباط بأشخاص غير سارّين".

ـ "مثل الدكتور جو من باريس؟ أو الدكتور غوتلييب، كما أعتقد أنه يُدعى".

اضطربَ ستايب. فهذه المرة فاجأتهُ.

قلتُ ضاغطاً عليه بينما هو فاقد للتوازن الآن: "خبير سموم؟ هذا أكثر من غير مقبول، يا ستايب".

ـ "هناك كثيرون أسوأ من الدكتور جو. ليسوا من النوع الذي تشعر بالراحة إذا دعوتهم إلى بيتك للعشاء. ولكنك تفعل. عليك أن تفعل. يأتون ويجلسون إلى طاولتك ويمكن أن يكون من الصعب جداً ابتلاع طعامك في رفقتهم، ولكنّك تبذل الجهد. تتناول العشاء، تحتسي النبيذ لأنك تعرف أنك إذا لم تفعل، فإن سياقنا، سياقنا الثمين، سيتفكك".

توقف. نظر إلى الأرض، إلى سميل.

تابع التحديق بالجثة وواصل كلامه: "ما الذي أفعله هنا في هذه البلاد؟ أنا أعمل كي لا تقع أكبر وأغنى بلاد في أفريقيا الوسطى، والتي تملك أهمية استراتيجية كبيرة، في أيدي الناس الذين يريدون تدمير سياقنا".

ـ "احفظْ هذا يا مارك. ستقول لي حالاً من الأفضل أن تكون ميتاً بدلاً من أن تكون شيوعياً".

قال: "كلا. إنه شيء يتعلّق أكثر بهوبز بالنسبة لي. أن تُقاد أفضل

من أن تموت. فقد كنتُ على الدوام مؤمناً بالقيادة القوية. آمنتُ دوماً بفعل ما هو ضروري. إنه الشيء الوحيد الذي أشترك فيه مع إنيس، على ما أفترض. كيف هي إنيس؟"

أعادني ذكر اسمها إلى حقيقة مأزقي.

ـ "لا أعرف".

هزّ رأسه ببطء: "ألم ترها؟"

أجبتُ بسرعة وبشكل لا لبس فيه: "كلا. قلتُ لك إنني لم أشاهدها منذ يوم الاستقلال".

"ليس حتى في البلدة؟ في المؤتمرات الصحفية؟"

"كنا نتحرك في دوائر مختلفة، وأنت تعرف إنيس: تعتقد أن المؤتمرات الصحفية تُعقد كي لا يحصل الصحفيون على القصة".

ابتسم ستايب ابتسامة رقيقة تبعها صمت طويل.

قال بهدوء: "هكذا لا يوجد سوء فهم، إذا لم تخبرني أين أوغوست فإنك ستبدو تماماً مثل سميل حين يخيّم المساء ولا أستطيع أن أفعل شيئاً حيال هذا".

أجبتُ بقوة، غير خائف من تهديده: "هذه كذبة، يا مارك. تستطيع أن تفعل كل شيء حيال الأمر. تستطيع الذهاب إلى سفيرك وسفيرك سيطلب من موبوتو إصدار أمر بإطلاق سراحي وسأكون خارج هذا المكان في عشرين دقيقة".

قال بابتسامة صغيرة، مقراً بنقطتي: "حسناً. لنقل إنه لا ميل لديّ لفعل ذلك".

ـ "لا أستطيع أن أخبرك أين أوغوست".

ـ "فكِّر بالأمر، يا جيليسباي".

ـ "لا أستطيع إخبارك لأنني لا أعرف".

نظر إليّ وبادلته النظر. لم أقنعه، ولكن ربما ولّدتُ بداية شك.

سألني: "ما الذي فعلْتهُ بعد أن تركتك عند روجر؟"

"نظّف روجر قدمي وأوصلني بسيارته إلى المنزل. تناولتُ كأساً ونمت".

ـ "هل رأيت روجر أمس؟"

ـ تمسكتُ بقصتي: "كلا".

ـ "هل تحدثت معه؟"

ـ "كلا".

توقف قبل أن يتابع، وازناً أجوبتي. كانت مباشرة، غير مبهمة، وواثقة. هل ولّدتُ شكوكاً لديه؟"

قلتُ متحدياً: "اسألْ روجر إذا كنت لا تصدّقني". هذا كل ما استطعتُ قوله. كان التحدي المنطقي للرجل البريء. لا معنى له، بالطبع، لأنه سيكون قد وضع خططاً مسبقة للتحدث مع روجر. ماذا سيقول روجر؟ لا أستطيع التفكير بهذا. عليَّ أن آمل. ولا يوجد سبب للأمل، كما أدرك. إنه النهار. مرّ ليلٌ. هذا يعني أن مادلين لم تكتشف مكان اختباء أوغوست. ربما لم تذهب في النهاية. ربما لا يوجد عاشق آخر. ربما أنا العاشق الوحيد. أشعر بجاذبية رقيقة نحوها.

سألني ستايب: "ماذا فعلتَ البارحة؟"

ـ "البارحة؟ لم يكن لدي الكثير".

ـ "ماذا فعلتَ بالضبط؟"

"استيقظتُ، قمت بالأمور المعتادة. تناولت القهوة في الحديقة. لم يكن لدي أي شيء كي أرسله، أنهيت الرواية، وهكذا ذهبتُ في نزهة، فقط لألقي نظرة".

ـ "إلى أين ذهبت؟"

ـ "رصيف المرفأ، على طول الجادة، لم أذهب إلى مكان خاص. دخلتُ إلى الريجينا كي أتناول كأساً، وصادفتكَ هناك. أنت والدكتور جو، خبير السموم، أتذكر؟"

ـ "أين خادمك؟"

ـ "تشارلز؟ لا أعرف. أليس في المنزل؟"

ـ "لم يظهر هذا الصباح. أتعرف أين يعيش؟"

ـ "في مكان ما في المدينة الحديثة. لا أعرف العنوان".

درسني عن كثب. فقد أجبتُ على أسئلته دون تردد، مصدقاً أكاذيبي تقريباً. ولكنني على بعد إنش من الانهيار. عليّ أن أركّز كي لا أرتجف. إذا ضغط أكثر سأنهار. كي ألهيه قمت بالمبادرة.

ـ "ما الذي يجعلك تعتقد أنني أعرف مكان أوغوست؟"

ـ "لقد اختبأ منذ بداية الانقلاب. ثم، منذ أسبوع، اختفتْ إنيس عن الأنظار. توقّفتْ عن الذهاب إلى مكتبها قرب سوق المحليين وتركتْ المكان الذي كانت تمكث فيه في شارع دو لا تشوابا. إنّ تخميني هو أنها التحقت بأوغوست ولدي سبب جيد كي أعتقد أنها تحاول مساعدته في الهرب. من المنطقي أن تتصل بك".

ـ "ليس هذا منطقياً مطلقاً. ليس بعد ما حدث بيننا".

استدار بعيداً ووضع يداً على فمه. شدّ على شفته السفلى كأستاذ غارق في التفكير.

ـ "كنت أقصد أن أسألك يا جيليسباي ماذا يدور في رأسك حين تفكّر بإنيس وأوغوست معاً. أعني أنك يجب أن تفكّر بالأمر، أليس هذا صحيحاً؟"

قلت: "أحاول ألا أفعل".

عرفتُ إلى أين سيؤدي هذا...

قال بلطف ملغوم: "هذا حكيم. حكيم جداً. لا معنى لتعذيب نفسك بالمقارنات. أعني أنها ليست بالضبط مطرية".

... ولكنني لا أستطيع أن أوقف نفسي. أستطيع أن أرى أمام عينيّ...

"أنت رجل متوسط العمر أمضى معظم حياته خلف مكتب من نوع أو آخر. أنت ناعم. ثمة عبء على حزامك، انتفاخاتك بارزة".

... الأشياء التي يسخر مني بسببها...

ـ "تجاوزْتَ أوج قوتك منذ وقت طويل ولكنّ أوغوست فتى في أوج قوته. وأي أوج نتحدث عنه! رأيتُ الرجل، كما تعلم، الرجل الكامل، إذا كنت تفهمني، و..." ـ يضحك ـ "هذا مؤثر. مؤثر جداً. تنظر إلى الأمر وتفكّر بأن هذا ليس عادلاً. أتفهم ما أقوله؟ أعني إنه ضخم" ـ يضحك ـ "ماذا تظنّ أن إنيس تفكّر حين تنظر إليه؟ أراهن أنه يجعلها فتاة سعيدة جداً".

إنه مثير للشفقة أن شخصاً فظّاً يمكن أن يفعل هذا بي، ولكنّ الانهيار قادم. في الداخل، الأمور تستسلم. أغمضتُ عينيَّ ولكنني لم أستطع أن أتخلّص من كلماتي.

تابعَ: "هل تعلم أنّ أوغوست كان دائماً منفتحاً معي حين يتعلّق الأمر بالنساء. تبادلْنا أحاديث طويلة. هؤلاء الأشخاص يضاجعون طول الليل. بوسعك أن تسمع إنيس تئنّ. أليس كذلك؟"

يجب أن أكون قادراً على تجاهل هذا، أن أرفض ما هو. هناك دموع ساخنة على خديّ.

ـ "أحبُّ ذلك الصوت، ألا تحبّه أنت؟ ذلك الصوت الذي تصدره امرأة حين يتم إمتاعها. كنتُ في غرفة فندق في ماناغوا مرة. كانت الحيطان رقيقة جداً. سمعتُ رجلاً وامرأة يمارسان كل ليلة. لا أستطيع أن أصف لك الأصوات والأنات الخفيفة والصرخات التي كانت تصدرها المرأة. دفعتْني إلى الجنون. فكِّر فحسب. أحد ما في مكان ما في هذه المدينة يصغي لإنيس في هذه اللحظة. هل تستطيع سماعها يا جيليسباي؟ أتستطيع سماعها الآن؟ أصْغِ. هذه هي، إنها في طريقها، إنها تبدأ بالوصول إلى الذروة".

أستطيع سماعها. سار ستايب نحوي.

ـ "هل تعرف ماذا قال لي أوغوست؟ ماذا يحبُّ أكثر؟"

وضع فمه على أذني. فاحت من نَفَسه رائحة الكعك والبسكويت.

"في المؤخرة. فكّر بهذا، يا جيليسباي. أوغوست الماهر يقلب إنيس، يبصق على أصابعه، يرطّبها، يدخل إصبعاً في الداخل وهي تنتظر. تعرف ماذا سيأتي. يحمل عضوه في يده، إنه جاهز. يدفعه في مؤخرتها. فكّر بهذا. فكر بالأصوات التي تصدرها الآن. هل تستطيع أن تتخيل إن كان هناك صور لهذا؟"

أستطيع أن أراها.

"كيف يبدو لون وجهها حين يفعل هذا لها؟ ماذا تقول حين تصل إلى الذروة، يا جيليسباي؟ ماذا تقول؟"

تقول: يا حبّي. يا حبّي. إنها كلماتي، إنها كلماتٌ لي، ليست لأوغوست، ليست لأي شخص آخر، لي، لي. أنا. كلماتها. كلماتي.

"ماذا تقول؟ لأنها تقوله الآن. هل تستطيع أن تسمعها؟ أستطيع. ويستطيع أوغوست. يستطيع أوغوست أن يسمعها جيداً جداً".

أنا ضائع في دموعي.

صحتُ: "اتركني وحدي".

"ما هو شعورك حيال أوغوست؟"

أمقته.

أحتقره، أكرهه...

"قل لي أين أوغوست".

... لو كان معي سكّين لطعنتهُ في قلبه.

"أخبرني. سيكون كلُّ شيء على ما يرام. نستطيع أن نرتّب الأمر بحيث لا تعرف إنيس أبداً أنّك فعلْتَ هذا. نقدر حتى أن نرتّبه بحيث تبدو بطلاً، وأنت تعرف كيف يجذبها الأبطال. أنتما الاثنان تناسبان بعضكما بعضاً. أنت تعرف هذا. بوسعكما أن تكونا معاً. يمكنكما العودة إلى لندن أو روما أو بولونا أو إيرلندة. تستطيعان أن تؤسسا عائلة. أعرف أنها عاقر، ولكن يمكن أن تتزوّجا وتتبنيّا أطفالاً. وإذا كانت لديكما أية مشاكل في هذا، أستطيع أن أساعدك أيضاً. ثقْ بي. ثقْ بي، يا جيمس. أستطيع أن أعيد إنيس إليك. أنت تصدّقني، أليس كذلك؟"

هززتُ رأسي كطفل أمام والده.

ـ "وأنت تريد هذا، أليس كذلك؟ أكثر من أي شيء آخر في العالم".

هززتُ رأسي ثانية.

ـ "إذاً، أين أوغوست؟"

أعولْتُ، ذرفْتُ آخر الدموع في عينيّ.

ـ "أين أوغوست؟"

ـ "لا أعرف".

صفعني على وجهي بقفا يده.

ـ "أنت تكذب عليّ. أنت تلعب معي".

أطلقتُ تنهيدة طويلة.

قلتُ بالهدوء الذي يأتي من الهزيمة الكاملة: "مارك. سأقدّمه لك. صدِّقْني. لو كنتُ أعرف أين هو لأخذتك باليد وإذا أعطيتني مسدّساً قد أقتله بنفسي. ولكن لا أعرف أين هو ولا شيء تستطيع فعله أنت والآخرون يمكن أن يجعلني أخبرك ما لا أعرفه".

نظر إليّ باحتقار في عينيه. وجهه أحمر والشريان الكثيف المتفرّع ينبض في جبينه.

صاح: "كنتُ في غاية الغباء وسوف تأسف كثيراً".

خرج مغلقاً الباب خلفه.

نظرتُ إلى الأسفل إلى سميل، إلى جراحه كلّها. لم أعرفه جيّداً. بالكاد عرفته. كان صديقاً لإنيس، عضواً في الحزب. أشك لو أنني عرفته بشكل أفضل إن كنا سنبني أي نوع من الصداقة. كان مؤمناً، مثل إنيس، وباستثناء واحد فحسب لم أكن أبداً على ما يرام مع المؤمنين. ولكن لا أحد يستحقّ الموت هكذا. كيف كانت ساعاته الأخيرة؟ دقائقه الأخيرة؟ ربما سأعرف حالاً. سنتوحّد في هذا على الأقل. ركعتُ قربه. دحرجتهُ على جانبه، رفعْتُ ذراعاً. دفعْتُ يدي

الأخرى تحت ركبتيه، توقّفْتُ كي ألتقط أنفاسي وأستجمع قواي، متمايلاً تحت الوزن، على قدمي. قفز قلبي في صدري وظننتُ أنني سأفقد وعيي. خطوتُ نحو الطاولة ووضعْتهُ بلطف قدر الإمكان. ثم جفّ كلّ شيء مني. لم أسقط. سقطتُ وأغمضتُ عينيّ.

فُتح الباب. دخل رجلا شرطة. قالا: هيّا. لا شيء آخر حيال الأمر. تبعْتُهما دون شكوى. عدْنا من الطريق نفسه إلى الزنزانة. أقفلا عليّ. لم أخْشَ الظلام. أنا غير خائف. لا آبه إن حقق ستايب مع روجر واكتشف أنني أكذب. لا آبه إن ظهر تشارلز وأخبرهم عن إنيس. لا يهمني ما يحدث لي. أشعر بالطمأنينة، مستعداً لأي شيء.

* * *

لم يحدث استجواب. في الخامسة إلا خمس دقائق أطلقوا سراحي. عرفتُ الوقت لأنّ الرجل الجالس إلى المكتب دوّنه في سجلّه. رافقني شرطي واحد عبر الأنفاق وإلى الساحة في الخارج. فتح حارسٌ البوابة وخرجتُ منها. لم يقل أحد أيّ شيء. لم يذكر لي أحد أيَّ سبب لإطلاق سراحي. في الخارج هناك ثلاثون أو أربعون امرأة وطفلاً. كان بعضهم واقفاً، ومعظمهم جالسين في ما يبدو أسرّة مرتجلة على الرصيف. نظروا إليّ دون تعابير. كانوا زوجات وأمهات وشقيقات وأطفالاً لرجال في الداخل. انغلقتْ البوابة خلفي. نظرتُ نحو أعلى وأسفل الشارع كي أحدد الاتجاهات وأفكر أين يمكن أن أعثر على تاكسي.

قبل أن أستطيع القيام بحركة سمعْتُ صوتاً لطيفاً ناداني باسمي. إنه ستايب.

قال: "هيا جيمس. سأوصلك".

ـ "أفضّل أن آخذ تاكسياً".

ـ "انظرْ إلى نفسك. أي سائق سيوصلك؟ هيا".

قادني إلى سيارته، فتح الباب وساعدني في الدخول. تساءل عن أضلاعي. مع كل نَفَس شعرتُ بألم يطعن في جانبي.

قال ستايب وهو يقود السيارة إلى غومبي: "هل حقّاً لا تعرف أين أوغوست؟"

ـ "في الحقيقة لا أعرف".

"إن روجر في برازافيل. يبدو أن لديه مريضاً هناك. قاطعتُ لعبة في نادي التنس كي أذهب وأراه. هل كنت تعرف أنه لديه مريضاً في برازافيل؟"

ـ "لا أعرف الكثير عن مهنة روجر".

ـ "كانوا يتحدثون عنك، على ما يبدو، في نادي التنس. إنها بلدة صغيرة، يا ليو. لا تقدر أن تخفي الأمور طويلاً. إنّ شريكه في التنس يعمل خارج المكتب الصحفي للأمم المتحدة. يبدو أنه سمع شائعات عن اعتقالك. ذكر ذلك لروجر لأنه كان يعرف أنك وروجر صديقان".

لم أقل أيّ شيء. اشتبهتُ، كما يمكن أن يفعل ستايب، بأن روجر قرر بعد أن سمع بنبأ اعتقالي أن يستقل المعديّة عبر النهر وينتظر التطورات في برّ الأمان.

ـ "هل أنتَ من أخرجني؟"

ـ "نعم".

ـ "شكراً".

واصل ستايب: "آمل أنني حين أتحدث مع روجر أن يتطابق ما يقوله لي مع ما قلته لي".

ـ "إذا كنت ستهدّدني يا مارك، فإنني أفضّل السير طول الطريق".

ـ "أنا لا أهدّدك".

ـ "أخبرتك أنني لا أعرف أين أوغوست".

نظر ستايب مباشرة أمامه. أنا متأكد من أنني أقنعته.

حين اقتربنا من المنزل، قال: "أنا آسف حيال ما قلته، أعني عن أوغوست وإنيس. يجب أن أحاول. هل تفهم هذا؟"

"أفهم".

ـ "كرهتُ اضطراري لفعل ذلك يا جيمس. جعلني هذا أشعر بأنني مريض في الداخل. أنا آسف".

قلت: "أستطيع القول إن قلبك لم يكن في الأمر".

وضع يداً على ذراعي وربت بعطف.

صفّ خارج منزلي.

قال: "لدي بعض الأنباء التي لا تحبّ سماعها على الأرجح. إن الشيء الأول غداً هو أنك ستتلقى في الصباح مذكرة رسمية بأن حضورك في الكونغو لم يعد مرحّباً به. سيمنحونك ثلاثة أيام لتنهي شؤونك. هذا للأفضل يا جيمس، صدّقني".

ـ "ليس عليك أن تقنعني. كنت سأغادر بأية حال".

ـ "يجب أن نحضر لك طبيباً".

"نعم. أحضر الدكتور جو. أودّ أن أتبادل حديثاً معه".

نظرتُ إليه بحدّة.

قال: "تذكّرْ ما قلته عن المحافظة على السياق".

ـ "كيف أنسى؟"

ـ "لنتناول كأساً في الريجينا قبل أن تغادر. سيكون على حسابي".

ـ "سيكون هذا ظريفاً".

ـ "اتصل بي".

أطلق بوق السيارة ولوّح لي بمودّة وهو يبتعد. بدا كأنه يوصلني إلى المنزل من العمل. لماذا لا؟ بالنسبة له كان يوماً عادياً، على ما أفترض.

كان المنزل مُفَتّشاً. كانت ثيابي وأوراقي وكتبي مبعثرة وممزقة ومحطّمة. هذا ليس مهماً. لا يوجد شيء له قيمة هنا. لن أحتاج إلى ثلاثة أيام. أية شؤون عليّ ترتيبها؟

ذهبتُ إلى الحمّام ونظرتُ في المرآة. أصدرتُ صوت اشمئزاز مرحٍ على انعكاسي الكريه. كان أصيلاً على الأقل، نتيجة تجربة حقيقية. يوماً ما سأعود إلى هذه الجراح والكدمات والرعب والألم الناجمين عنهم. استحممت ونقعت نفسي بالماء لمدة ساعة. بدا الألم أكثر سوءاً حين خرجت. أنزلت المنشفة ووقفت عارياً أمام المرآة. لمستُ اللحم على بطني وجوانبي. ما قاله عني ستايب صحيح. أنا عجوز ومترهّل.

يجب أن أعرف بشكل أفضل، كان نصفي سليماً فقط. جففتُ نفسي بعناية كي أتجنّب الأماكن الأكثر حساسية حول أضلاعي. وضعتُ مرهماً على الجراح وتناولتُ أربع حبات مزيلة للألم. كانت شفتي السفلى ممزّقة ومنتفخة بشكل سيء. سأحتاج إلى طبيب.

قدتُ السيارة إلى البلدة، أجفلتُ عند كلِّ تغيير للسرعة، عند كل دورة للمقود. راقبتُ بدقة بالمرآة التي تعكس الخلفية. درتُ عكس السير في الجادة وسقتُ عائداً تقريباً حتى منعطف جادة دو لا غومبي. توقفتُ، متظاهراً بأنني أبحث عن شيء ما باندفاع، ونظرتُ

حولي حين انطلقتُ ثانية. لا أحد خلفي. يجب أن أعرف بشكل أفضل ولكنني اتجهت نحو منزل يوجين هنري بأية حال.

لا أستطيع أن أقرّر إن كنت بطلاً أو سخيفاً. يمكن أن أكون عنيداً ومستاء وأحياناً نشيطاً ومن الصعب أن أنهار. ولكن ليس هذا هو السبب الذي منعني من إخبارهم ما يريدون معرفته في السجن المركزي لأنني لو فعلتُ لكنتُ فقدتُها. ولأنني بقيتُ صامتاً سأفقدها إلى الأبد. يجب أن أعرف بشكل أفضل. هذا متاع المهزلة، لا المأساة. أستطيع أن أرى نفسي على خشبة المسرح، وأنا أضحك.

* * *

الفصل الثامن

يقف لومومبا في مقدمة المركب، تلمع نظارته في آخر ما تبقى من الشمس. خلفه، يوجّه المراكبيّ العجوز المركب عبر النهر. تندفع كتل زنبق الماء عابرة، فيما طائرة المراقبة تدور في الأعلى. رولاند الصغير ينزف ويبكي. أمه ملتهية. إنيس والآخرون في موكبنا، والذين لم يعبروا بعد نهر السانكورو، يسيرون إلى رصيف المرفأ منتشين. لا هم ولا الجنود يستطيعون تصديق أنه يعاود عبور النهر. فقد هرب منهم مرة أخرى. لكنّه الآن يعود، بنفسه. نراقب بصمت مخدّر، كما لو أننا ننظر إلى الأفعال غير القابلة للتفسير لظاهرة طبيعية عادية غريبة. نعرف جميعاً ما يعنيه هذا غير أننا غير قادرين على الفهم. لماذا سيعود هارب كي يواجه موته؟ حين يقترب القارب تصيح إنيس: "كلا يا باتريس، كلا!" لا يقوم بأية إشارة تدل على أنه سمعها. شكله الطويل والنحيل هادئ، ووجهه منحوت وغير هيّاب. حين تلتقي أخشاب المعدية ورصيف المرفأ ويندفع جنود البالوبا إلى الأمام لأخذه يرتجف فحسب. أرى الخوف يتغلغل فيه ثم، رؤية نبويّة. قال لأتباعه هذا الصباح في مانغاي إنه سيُخان ويُعذّب ويُقتل. يبربر الجنود بإثارة وهم يدفعونه نحو الشاحنة. وحين ـ نحن مرافقوه في هذا الهرب الطائش الذي بلا خطة ـ نجتمع حوله، يدفعنا الجنود، بغضب وعنف. يقذفون لومومبا في أوّل شاحنة. يحاول جندي من الجيش الوطني الكونغولي أن يقيّد يديه خلف ظهره ولكن الجنود كانوا قد بدؤوا بضربه. يضربونه ككلب مصفّين الحسابات من أجل المجازر في كاساي. يصارع الجندي بشكل مصمّم ولكنّ دوامة الأعضاء والقبضات تهزمه. غاضباً، يشكو إلى رفاقه. حولي، يستدير الناس

بعيداً، غير قادرين على النظر. أنظر. بالطبع أنظر. إنها طبيعة مهنتي. يتوقّف الجنود عن ضربه كي يسمحوا للجندي أن ينفّذ أوامره ويؤمّن السجين. حالما قُيّدتْ يداه يبدؤون مرة أخرى، كما لو أنّ حَكَماً صفّر. تندفع الشاحنة إلى الأمام. نقف في دخانها المندفع ونراقب إلى أن تختفي من النظر. يضغط علينا الجنود المتبقّون ويضايقوننا، طالبين رؤية أوراقنا، فاحصين بطاقات الهوية. أستدير كي أبحث عن إنيس. إنها إلى جانب سيارة البيجو السماوية مع بولين ورونالد. تحدق عبر النهر. في مكان ما في الجانب الآخر أوغوست يسرع عبر الدغل. تأمل أن يعثر على الأمان. تأمل أن يتوحّدا ثانية. لم تقبّله قبلة الوداع. رحلتْ طائرة المراقبة. إحدى النساء التي تجلس قرب سلال البيض المسلوق والبُلبلهْ وأكوام السمك الفضي الصغير تطوي بعض الأوراق النقدية المتعرّقة وتدفعها بين ثدييها. لقد قامت ببيع بعضها. هناك دوماً وقت يتناول فيه المشاهدون الطعام.

ما كان يجب أن يحدث هذا. كانت الحادثة كلّها مخزية وسخيفة وغير ضرورية. في ثلاثة أيام لم نقطع سوى أربعمائة ميل. كان تصرفاً في غير محلّه. لم تكن الطرق سيئة جداً، والمطر في الجزء الأعظم صدّنا. كان يجب أن نكون قريبين من ستانليفيل الآن. إن فشلنا... دائماً أنزلق بشكل غير مقصود وأستخدم نون الجماعة، ضمير نحن، والسبب هو أنني هنا في هذا المكان مع أولئك الناس؛ فالهدف من وجودي واضح للجميع. ما زلتُ منفصلاً عما يجري. أنا هنا بسبب حادثة، وإهمال، صدفة، نزوة، غباء، حكم سيء... إنّ فشلنا لم يفاجئني. ما رأيتهُ منذ أن غادرنا العاصمة كان مبدّداً للوقت، عدم تنظيم وعدم كفاءة. رأيتُ الفوضى والنهب، والافتقار إلى اتجاه وقيادة. وأحياناً الذعر. كنا باستمرار تحت رحمة الشائعة. لم أر خطة. لم أر أيّ شخص استطاع أن يفكّر بسرعة وهو على قدميه، أن يطرح بدائل صالحة وواقعية حالما بدأت الأمور تسير نحو الخطأ، وسارت

نحو الخطأ مباشرة منذ البداية، حين اقترب الموكب من المطار فقط ليُقال لهم إنه ليست هناك طائرة مصرية. عقدوا أحد اجتماعاتهم الطويلة بلا نهاية، على الرغم من أن هرب لومومبا يمكن أن يُكتشف في أية لحظة (ليس الهرب الكلمة الصحيحة هنا، يجب أن تتضمن الكلمة الدراما والشجاعة حين في الحقيقة كل ما فعله هو الجلوس على أرض السيارة التي غادرت البريماتور وانطلق دون تحد عبر طوقي جنود الأمم المتحدة والجيش الوطني الكونغولي). قال البعض إنهم يجب أن ينتظروا، إنَّ ناصر لن يخذلهم، إن الطائرة ستأتي. قال آخرون إنهم يجب أن يصلوا إلى برازافيل. في النهاية قرروا الذهاب إلى ستانليفيل حيث نظّم غيزنغا جيشاً لمقاتلة موبوتو وحليفه الجديد كاسافوبو. كانوا بحاجة إلى سيارات من أجل الرحلة الطويلة، سيارات جيدة. كان هناك كثير من الأشخاص. احتاجوا إلى سيارتي. كان بوسعي أن أعطيهم المفاتيح بسهولة. كنت سأتخلى عنها في غضون ثلاثة أيام. بدلاً من ذلك ذهبتُ معهم. ذهبتُ بالضبط للأسباب نفسها التي منعتني من أن أتفوّه بأي شيء في السجن المركزي. ذهبت، كلاعب بدور محدود في مهزلة هذا الهرب. كانت رحلة غير مريحة منهكة لجسدي المتألم وعانيتُ من صعوبة في تناول الطعام بسبب شفتي المسحوقة. ولكن كان هناك تعويض، التعويض الذي كنتُ أعتمد عليه. إذ طول ثلاثة أيام كانت إنيس إلى جانبي. لم نكن وحدنا. كان هناك دائماً ثلاثة من رفاقها في الخلف. ولكنَّ أوغوست لم يكن معنا. حالما انطلقنا نُقل إلى سيارة باتريس. على القادة أن يتشاوروا. أعتقد إن إنيس ربما كانت خائبة الأمل قليلاً لأنها لم تُدْعَ إلى المشاركة في قراراتهم. كانت هادئة. ثم صارتْ أكثر تحدّثاً، في البداية مع رفاقها، ثم معي. حين توقّفنا في بولونغو نظّموا اجتماعاً مرتجلاً. كنا نضيّع الوقت، ولكن لم يكن ممكناً إقناعه. جاءتْ إليّ عندئذ ونظرتْ إلى جراحي. إنها شخص يعتني جيّداً ومحبّ. كانت أصغر

إشارة مرض فيَّ تخرج دوماً غريزتها التمريضية. قبّلتْني وضمّتْني، كصديقة، كأخت. طرحتْ أسئلة. لم أُخبرها الكثير. لم أخبرها عن النقيب أو ستايب، ولكنني قلتُ إنني رأيت جثة سميل. اغرورقت عيناها بالدموع، ولكنها حاربتْ الدموع وقالت: "وضعتُ قاعدة: لا مزيد من الدموع". وضعتْ يدها الصغيرة في يدي وأغلقت أصابعي عليها. أصوات خطاب لومومبا والحشد المتمتم جاءت إلينا خافتة في الريح. ذُكِّرتُ بيوم معتدل حين كنتُ فتى في المدرسة وقرّر الأساتذة أن يأخذوا الطلاب كلّهم إلى حقل في الجبال. جلسنا في ضوء الشمس، وحرّك نسيم لطيف صفحات كتبنا. كانت دندنة أساتذتنا والصفوف الأخرى طنيناً منخفضاً في الجو حولنا. كان ذلك اليوم خاصاً ومختلفاً. كان فيه نوع من السحر يجعل الطفل يفكّر بأن الحياة تمتلك إمكانيات أخرى مخبأة، أنها ليست كلّ ما هو على السطح. شعرتُ بمثل هذا مع إنيس. شعرتُ بأنني حالم ودافئ، وحين تحدثتْ عن آمالها وخططها سيطرتُ على استيائي المعتاد وأصغيتُ، سعيداً فقط كي أسمع ذلك الصوت ثانية، أن أترك نفسي أُهدهَد بأغنيتها، أن أُقنع ـ لو للحظة فقط ـ أن هناك طرقاً أخرى لرؤية الأمور، أنه ليس كل شيء على السطح.

* * *

هناك طريقة أخرى لوصف ما حدث في نهر سانكورو. طريقة أخرى لرواية قصة هرب لومومبا من الإقامة الجبرية، والاندفاع إلى المطار، وخيبة الأمل هناك، والرحلة الطويلة التي انتهت في التقاطع قرب مرفأ فرانكوي. قالت إنيس إن طريقتي غير صحيحة. حين سَمعتْها قالت إنها لا تعرف الأحداث التي أصفها. إليكم بالقصة الأخرى.

* * *

كانوا ينظرون إليه كهارب، حتى أولئك الأكثر قرباً منه مثل أوغوست وموليلي وكيمشانغا، ولكنه لم يرَ نفسه هكذا. إنه رئيس الوزراء المنتخب، قائد الكونغو المستقلة، رئيس الدولة، هكذا يرى نفسه. وحالاً يرى الجميع أن هذا ما هو عليه. يرون كرامةَ تحمُّلِهِ. فهو رجل دائم الحركة، دائماً يذهب إلى هنا وإلى هناك، لا يهدأ أبداً. حركاته رشيقة، غير مستعجلة أو متشنّجة. يريح البشر على الفور، إذ على الرغم من أنه رئيس الوزراء، والعالم كلّه يعرف اسمه، لم ينس أبداً معنى أن يكون من الشعب. ففي بولونغو، موقفنا الأول بعد ليلة من قيادة السيارة، ذهب لشراء المؤن من حانوت صغير. تعرّف عليه الناس فوراً، ذلك أن وجهه مدهش وجميل. انتشرت الكلمة وفي الوقت الذي كان فيه مستعداً للرحيل كان القرويون قد تجمّعوا. قالوا له: ابقَ وتحدّثْ معنا، يا باتريس. اشرحْ لنا ما الذي يحدث. أخبرْنا لماذا يرسل البلجيكيون جنودهم كي يحرقوا ويقتلوا. قلْ لنا لماذا أرسلوا الأسلحة إلى تشومبي في كاتانغا. أخبرْنا لماذا جاءت الأمم المتحدة ولماذا ترفض الرحيل. أخبرْنا لماذا ساعد الأميركيون موبوتو وكاسافوبو. يتحدّثُ شارحاً كلَّ شيء. يحضرون لنا الطعام كي نأكل والبيرة كي نشرب. لا يريدونه أن يرحل، يريدون أن يبقى رئيس وزرائهم معهم. يعدهم بأنه لن يهجرهم أبداً، أنه سيعود، أن القضية التي خدمها هو وكثيرون ستنتصر. يقول لهم إن لهم الحق، الذي لا يمكن لأحد أن يحرمهم منه، بحياة كريمة، وكرامة غير ملطّخة، واستقلال بلا حدود. يقول لهم إن البلجيكيين وحلفاءهم أفسدوا بعض أبناء وطنهم ورشوا آخرين، أنهم شوّهوا الحقيقة وألحقوا الخزي بالاستقلال. يقول لهم إن أفعاله هو انتُقِدت، إن البعض قال إنه تحدث بتهور كبير في "بالي دو لا ناسيون" وإنه تحدث بشكل مباشر جداً مرات كثيرة مذاك. ولكن كيف يستطيع أن يتحدث بخلاف ذلك؟ حياً أو ميتاً، حراً أو في السجن، ليس هو من يهم. إنها

الكونغو، إنهم الفقراء الذي حُوِّل الاستقلال بالنسبة لهم إلى قفص. يقول لهم إنه يعرف في قرارة نفسه أنه عاجلاً أم آجلاً سيخلّص الناس أنفسهم من أعدائهم، سينهضون كشخص واحد كي يقولوا كلا لانحطاط وعار الاستعمار، سيستعيدون من جديد كرامتهم في الضوء الواضح للشمس. يقول لهم إنهم ليسوا وحدهم. ففي أفريقيا وآسيا، سيقف الأحرار دوماً إلى جانب ملايين الكونغوليين الذين لن يتخلوا عن الصراع حتى اليوم الذي لا يكون فيه مستعمرون أو مرتزقة في البلاد. يحثّه موليلي ومونغول وأوغوست وبولين على متابعة الطريق قائلين إن الجنود ليسوا بعيدين في الخلف. يقول إنه لا الوحشية ولا القسوة ولا التعذيب سيجبرونه على ترك القضية التي كرّس حياته لها. إذا أسروه، فإنه لن يتوسّل أبداً من أجل رحمتهم. سيفضّل الموت ورأسه مرفوع، وإيمانه راسخ، وثقته عميقة في مصير الكونغو بدلاً من أن يحيا خاضعاً ودون مبادئ. يقول لهم إن التاريخ سيقول كلمته يوماً، ولكنه لن يكون التاريخ الذي يُعَلَّم في بروكسل وباريس وواشنطن أو الأمم المتحدة، بل التاريخ الذي ستكتبه أفريقيا حرة، في شمال وجنوب الصحراء. تاريخ مجيد وعظيم. في النهاية أصعدوه إلى السيارة. ولكن الأمر نفسه تكرّر في بوكولو، وفي مانغاي. قال للناس إن استقلالهم يجب أن يُدافع عنه، أنه سيدافِع عنه، حتى بحياته. تشده بولين، تتوسل إليه أن ينطلق. يقول البعض إن هناك طائرة مراقبة في الجوّ، إن الجنود في أعقابهم. يتحدث بلطف مع زوجته ويداعبها، يحمل طفله الرضيع ويقبّله. إنه الزوج الذي سيكون لطيفاً دوماً، الأب الذي سيكون محبّاً وعادلاً. تتوسّل إليه بولين وسيفعل أيّ شيء لها. نصل إلى حاجز في الجانب الآخر من مانغاي. يحيط به الجنود ويبدؤون بضربه ولكنه يتحدث معهم ويشرح حقيقة ما يجري في الكونغو. وبدلاً من ضربه، يأخذون يديه ويمسكون بهما ويهتفون له في طريقه حين يغادرهم. بعض الجنود يبكون. يصيحون:

تعيش الكونغو! استقلال! استقلال! انظروا ما هذا الرجل. انظروا كم هو محبوب. وعند نهر سانكورو حيث كان بوسعه الهرب، يضحّي بحياته لأنه لن يترك زوجته وطفله خلفه. على الرغم من أن بولين تهزّ رأسها وتتوسل إليه بصمت أن ينقذ نفسه. يخطو إلى القارب ويأمر المراكبيّ العجوز أن يأخذه إلى أعدائه. كيف تستطيع القول إنّ هذه مهزلة؟ أي منا سيقوم بعمل كهذا؟ فقد تخلّى عن حياته لأنه يؤمن بشيء ما.

هكذا ترى إنيس الأمر، والسبب في ذلك أنها تحلم.

* * *

في ليوبولدفيل، بعد يومين، أخبرنا غرانت أنه رأى لومومبا والجنود وهم يصلون. كان عرضاً سيئاً وماكراً. كان موبوتو يقف طاوياً ذراعيه ويراقب الجنود وهم يصفعون سجينهم ويعتدون عليه. انتزعوا شعره وقذفوا نظارته بعيداً. قرأ أحد الجنود بشكل ساخر تصريح لومومبا الذي أكّد فيه أن انقلاب موبوتو غير شرعيّ وأنه هو رئيس الدولة. حين انتهى الجندي، لفّ الورقة في كرة ودحشها في حنجرة لومومبا. لم يجفل لومومبا. صمدَ، متحملاً الإهانات والألم. أُخذَ بعيداً. لم يكن غرانت والصحفيون قادرين على رؤية ما حدث بعد ذلك، ولكنهم سمعوا الصرخات.

ذهبتُ أنا وإنيس إلى غومبي، إلى منزلي. انتظرتْ فيما كنتُ أحزم أغراضي. انتهيتُ في أقلّ من ساعة. ثم قدنا السيارة إلى المرفأ واستقلّينا المعدية إلى برازافيل.

* * *

الفصل التاسع

كان كلانا ينتظر. كانت هي تنتظر كلمة من أوغوست، وأنا... ماذا كنتُ أنتظر؟ النهاية، اللحظة الأخيرة من قصتي. ما تزال تسمّيها هكذا. قصتنا، علاقتنا. لم أصحّح لها. لم أصحّح أبداً. فقد انتهت علاقتنا، ولكنّ قصّتنا ستستمر فترة أطول، إلى اليوم الذي تصل فيه رسالة أو رسول. عندئذ سيحين وقت ذهابها، والوقت بالنسبة لي كي أقبل ما قالته لي.

ليست برازافيل سيئة. فالشوارع القذرة والفوضوية تعج بالصخب والحياة والمصادفات. وحين عبرنا النهر عثرنا على فندق رخيص وأمضينا الأسبوع الأول في غرفة مزدوجة مطلّة على السوق. نمنا في سرير مزدوج، ولكنّها كانت بعيدة عني. أخذتني لزيارة طبيب، ربط أضلاعي وخاط الجرح في شفتي السفلى. وعثرنا على منزل للاستئجار مطلّ على النهر. فيه حديقة، ولم يكن كبيراً كالذي استأجرناه في غومبي، غير أنه مسوّر ومعزول وهادئ. أحبّ أن أراقب الطيور في الصباح. البلابل تتشاحن في الأغصان و طيور الكناري الجميلة السماوية والبنية والليلكية تأتي كي تحطّ على أسلاك التلغراف.

تحدّثتُ أنا وإنيس كثيراً جداً. تحدّثْنا عن الكونغو، وعن الاستقلال والطريقة التي أفرغ بها البلجيكيون الخزنة وأفلسوا البلاد وفعلوا ما بوسعهم لتخريب خطط باتريس. تحدثنا عن دو شوت والمستعمرين الذين هربوا. تحدثنا عن موبوتو وكاسافوبو والأمم المتحدة وتشومبي وكاتانغا. تحدثنا عن ستايب وهاوثهوفد والمقالات التي كتبتُها. تحدّثنا حتى عن مادلين وأوغوست. لم تكن هناك حدّة،

أو لوم. كانت هذه مراجعة لماض مشترك، وتنقيحاً لأثر قديم، متعاطفاً وحزيناً، من قِبَل شخصين كانا منفصلين ولكنّهما، بطريقة غير مؤكدة، ومتقطّعة، يكتشفان ثانية في ماذا يشتركان.

في أحد الأيام تحدّثنا عنّا، عن الخطأ الذي حدث. ضمّتني وأخبرتني أنها تعرف أنها قاسية ولكنّ هذا حدث لأنها اضطرت للدفاع عن نفسها من نفسها، ومن تخريب عواطفها، ونقاط ضعفها. ضممتُها إليَّ ولم أستطع أن أقاوم نفسي. قلتُ للمرة الأخيرة لا تُبعديني. دفنتُ وجهي في شعرها. وضعتْ يدها على قفا عنقي وانتظرتْ برقة وصبر وأنا أفكّر حزيناً، إلى أن أعدتُ نفسي إلى تحت السيطرة، وهذا ما فعلته. لم أفكّر أبداً أنّها ستغيّر رأيها، ولكن سلوكها الآن، المحب واللطيف، جعلني أشعر بالتحسن قليلاً حيال الأشياء وحيال نفسي.

توقّفتُ عن الكتابة لجريدة الأوبزرفر. أرى الآن أنّ كلّ ما فعلتهُ للصحيفة كان ملطّخاً بستايب. كانت قصصي حقيقية وصحيحة. ولكن كما قالتْ إنيس، إن كونها حقيقية وصحيحة ليس هو المهمّ. فالحقائق يمكن أن تُستَخدم لخدمة مصالح معيّنة تماماً كالأكاذيب. كانت تمضي معظم أوقاتها جالسة إلى مكتبها تؤلّف مقالات عن هرب لومومبا واعتقاله من جديد. تكتب بهيام وغضب واستياء. تحتجّ على سجنه مع أوكيتو مبولو في معسكر هاردي. تحثّ الأمم المتحدة على التدخل لإنقاذ السجناء؛ تعتقد أنّ حياة باتريس معلّقة بخيط. تكتب شجباً غاضباً لموبوتو حين يأمر بأن يُرسل لومومبا والاثنان الآخران إلى إليزابيثفيل وأن يُوضعا هناك تحت "حماية ورعاية" تشومبي. حين لم يُسمع أي شيء عن الثلاثة بعد أسبوع في كاتانغا، كتبت إنيس مقالاً قالت فيه إن رئيس الوزراء الذي أُطيح به ورفاقه هم تقريباً موتى. اقتطفتْ من رسالة لومومبا الأخيرة إلى بولين:

أكتب هذه الكلمات وأنا لا أعرف إن كانت ستصل إليك، أو متى ستصل، أو أنني سأكون حياً حين تقرأينها. لا تبكي عليّ، يا زوجتي العزيزة. أعرف أنّ بلادي، التي تعاني كثيراً، ستعرف كيف تدافع عن استقلالها وحريّتها. تعيش الكونغو! تعيش أفريقيا!

باتريس

لا نعرف إذا كان لومومبا ميتاً، ولكنني قلتُ إن بولين ربما كانت تريد أن تكون كلماته الأخيرة لها أكثر شخصية. هزّت إنيس رأسها ببطء. وقالت: كلا، إنّ بولين تعرف كم يحبّها، وإنه حين عبر نهر سانكورو فعل ذلك من أجلها. ستعرف دوماً هذا ولن تقدر أية كلمات أن تعبّر لها عن ما قاله لها عبْر الفعل الذي قام به آنذاك. كان من الأفضل استخدام الكلمات القليلة التي سُمح له بها كي يؤكد لها أن حياته لم تمض عبثاً، أن الشيء الذي آمن به وضحّى من أجله سيحدث يوماً ما.

كان من الصعب بالنسبة إليها تحمّل صمت أوغوست. لا تعرف إن نجح في شق طريقه إلى ستانليفيل، إن كان ميتاً أو حيّاً. أراها أحياناً على مقعدها تحدق في الفضاء حزينةً وضائعة. تحاول أن تخبئ لحظات الإلهاء هذه. تعرف ما تفعله لي.

ملنا إلى البقاء معاً في تلك الأيام المعزولة. لم يشكّل الآخرون سوى أهمية قليلة لنا، وعلى الرغم من أننا كنا نتحدث، فإن كثيراً من وقتنا هيمن عليه الصمت. كنا نخرج للتنزّه في السوق مساء حين يكون الجو أكثر برودة والازدحام أكثر خفّة وآخر الباعة يقدمون سلعهم بأسعار مخفّضة. أحبّ الفاكهة هنا. أشتري الموز والمانغو والبرتقال والأناناس والتوت. تختار إنيس الخضار وأحياناً تشتري فرّوجاً أو

بعض السمك. من الصعب العثور على نبيذ جيد وهكذا نشتري البيرة من فتاة شابة لها مقعد صغير في بداية سوق اللحوم. كانت تزيد من السعر، ولكنّ إنيس أحبّتها وكانت تحرص على أن تدفع لها ما تطلبهُ.

أحياناً تضع إنيس يدها في يدي. لا أنظر إليها حين تفعل هذا. فقط أمنح يدها ضغطة خفيفة ونسير معاً إلى المنزل هكذا.

بعد العشاء نجلس في الفناء المطلّ على الحديقة وأقرأ لها. فقد أحبّتْ صوتي دوماً، على الرغم من أنه يميل إلى الاطّراد الرتيب ولأنّ نَفَسي غير مدرّب أتلعثم وأواجه مشكلات في نطق العبارات. أحياناً كنتُ أنظر إليها وأرى أن أفكارها في مكان آخر، مع شخص آخر. ولكنّ بعد لحظة ستسألني لماذا توقّفتُ وأبتسم وأبدأ ثانية. ننام في غرفتيْ نوم منفصلتين.

في صباح أحد الأيام وصلتْ رسالة.

عزيزي جيمس

من فضلك سامحْني على تأخّري في الكتابة إليك. كان السبب في التأخير هو الأشياء المألوفة: الأعمال الكثيرة التي تجري في المكتب، جبل المراسلات التي يجب التعامل معها، ناهيك عن مؤلف شاب متطلّب وعصبيّ يحتاج إلى رعاية قدّم روايته الثانية للنشر، يظنّ أنني موجود فقط كي ألبّي احتياجاته.

إن كتابك رائع، وفكاهيّ على الرغم من أنه يجب ألا يكون هكذا، وغامض. قرأه كلٌّ من بيتر وروزاموند ويمتلكان الرأي نفسه حياله. (أحد أسباب عدم كتابتي لك هو أنني كنتُ أنتظر ردّهما). لا تتوقّف روزاموند عن التحدث عنه. إنها تعتقد أنه أفضل كتبك حتى الآن. وهذا رأيي أنا أيضاً. صحيح أنه مزعج وبالكاد تفاؤلي، ولكنّه

بطريقته الباردة المريعة فهو مغو بشكل رائع، والسخرية نبيلة- أنا أعني هذا كإطراء كما تعرف.

خرجتُ لتوي من اجتماع مع أشخاص التسويق والإعلان والخطة هي نشره في أيّار. الجميع متحمّسون جداً. ستكون هنا في ذلك الوقت، أليس كذلك؟ إن وجودك سيكون مساعداً بشكل كبير.

لا أعرف ماذا أقول عن إنيس، سوى أنني آسف. هل انتهيت من الأمر؟ هل تكتب أي شيء الآن؟ فكّر بمتابعة سريعة، ألن تفعل؟ سيكون من الظريف الحصول على القليل من قوة الدفع.

لك أفضل أمنياتي وأتطلع إلى رؤيتك قريباً.

آلن

أخذتُ الرسالة كي أريها لإنيس. كانت في وسط مقالة طلبتْ فيها أن يقدم تشومبي برهاناً على أن باتريس ما يزال على قيد الحياة. وضعتْ عملها جانباً وقرأتْ بينما وقفتُ قرب المكتب. لم تظهر رد فعل في البداية. ثم هزتّ رأسها ببطء ونظرتْ إلى الأعلى من كرسيّها. ابتسمتْ ونهضتْ وضمّتني. قالت: برافو. تهانينا. كانت دائماً تستمتع بأيّ نجاح أقوم به. لم يغيّر أيّ شيء حدث بيننا هذا.

فيما بعد، بعد زيارتنا إلى السوق، سرنا على طول واجهة النهر. كان الصيادون يتوافدون والنساء والأطفال يستحمّون. الشمس منخفضة والنهر ذهبيّ. سألتني بهدوء ما الذي سأفعله الآن. قلتُ لها أعتقد أنني سأذهب إلى لندن قريباً، أنه سيكون هناك المسودات والغلاف كي ألقي نظرة عليها واجتماعات مختلفة كي أحضرها، وغداء أو اثنان مع آلن. نتابع السير، أحياناً نمسّ بعضنا بعضاً، أحياناً نتوّقف كي ننظر إلى ليوبولدفيل. تغرب الشمس. في لحظاتها الأخيرة

غروبها مفاجئ جداً. وقفنا معاً صامتين. أعي نَفَسَها، حضورها فحسب. أفكارنا مبعثرة، لا توجد مطاردة أو إمساك لها. يحملها الليل بعيداً. أخيراً أقول إن الظلام خيّم ويجب أن نذهب إلى المنزل. لا تتحرك وأسألها إن كانت على ما يرام. تهزّ رأسها وننطلق إلى المنزل.

في الفناء أبدو كأنني أفقد صوتي حين أقرأ لها.

قالت بهدوء: "تابع. لا تتوقّفْ الآن".

قلت: "كلا. لا أجد هذا الكتاب ممتعاً. أعتقد أنني سأنام باكراً".

تركتُها ودخلت. شعرتُ بأنني فارغ. قالت رسالة آلن كل ما أردتُ سماعه، ولكنها لم تمتعني. كم سيكون الأمر مختلفاً لو كنا ما نزال معاً.

كنتُ مستيقظاً حين جاءت إليّ.

سألتُها قلقاً ومشوّشاً: "هل كلّ شيء على ما يرام؟"

جلستْ على السرير. لم أستطع النظر إلى وجهها. إنه مزعج جداً. مرّرتْ يدها في شعري وأطبقتْ أصابعها حوله بلطف ولعبتْ به كأنها تريد أن تسحبني من صمتي.

سألتُها: "هل حقاً تريدين الذهاب إلى ستانليفيل؟ من يعرف كم يمكن أن يصمد غيزنغا ضدّ موبوتو؟ إن الشيء كلّه يمكن أن ينهار في أحد الأيام".

قالت: "أعرف ولكن يجب أن أذهب".

"لماذا يجب أن تذهبي؟"

أغمضتْ عينيها. وقالت: "إنّ العالم ينقسم إلى اثنين وأحياناً أتمنى أن أكون في عالمك يا جيمس، حيث لا تأبه بالسياسة، حيث تستطيع أن ترى وجهات النظر كلّها".

"ما الخطأ في هذا؟"

"لا يوجد خطأ في هذا. ولكن قلة من الناس تمتلك هذا الامتياز. حين تكون مع الجانب الخاسر في التاريخ، حين تكون فقيراً وملعوناً كي تأكل خبزاً، أن تقبل وجهة نظر عدوّك هو أن تقبل المجاعة والعبودية".

أصدرتُ صوتاً معبّراً عن السخط. إن هذا النوع من المفردات يدفعني إلى الجنون. أمسكتُ يدها ووضعتُها على شفتيَّ وسألتُ إن كان هناك أي شيء أستطيع قوله أو فعله سيجعلها تغيّر رأيها. أخبرتْني أنها ما تزال تحبّني. تصعد آمالي للحظة. ثم هناك تلك الكلمات الكريهة. تقول إنها ستحبني إلى الأبد. آه، أي نوع من الحب.

ومع ذلك في تلك الليلة كان هناك حب. لم تقف كي تذهب إلى غرفتها. جلستْ على طرف سريري وتحدثنا. فيما كان الليل ينتهي رفعتْ الغطاء فوق ساقيها العاريتين واقتربتْ مني. وضعتْ رأسها على صدري ولمستُ أذنها وحنجرتها وعنقها. وضعتْ يدها على ذراعي ورفعتْ وجهها. تبادلْنا القبل. تمددت وتسلّقت إلى فوقي. دفعتُ الفستان فوق رأسها. لثمتُ ثدييها الصغيرين ودفعتُ يدي وراء سروالها الداخليّ. مدّتْ ساقيها كي تجعلني أرفعهما. قلتُ لنفسي إنني لن أسمح لهذا أن يتوقّف. سأبقى داخلها طول الليل. لن أدعها تذهب أبداً.

اعتقدتُ أنني كنت نائماً، لا أظن وقتاً طويلاً. بعض الثواني. آمل بعض الثواني، فقط ثوان. لم أستطع تحمّل ضياع النوم المبدد. صوت تنفّسها يملأ الغرفة. أعرفها حين تكون هكذا، على جانبها، ملتفّة، ظهرها نحوي، نائمة وغامضة وراضية ورطبة بين ذراعي. أعرف أنني أستطيع أن أمتعها أكثر وليس عليّ أن أوقظها. أحكّها بلطف من الخلف وأهمس أموراً لها، ليس بطريقة ستوقظها. لا أريد أن أزعج أحلامها. أريدها محميّة وآمنة ولي، دائماً، أرفع يدي إلى قفا عنقها. أستطيع أن أشمّ رائحتها على أصابعي.

* * *

ذهبتْ في الصباح. قفزتُ من السرير وركضتُ إلى غرفتها. ليست هناك. ليست على مقعدها وليست في الحديقة. لبستُ ثيابي وذهني مضطرب، واندفعتُ خارجاً كي أبحث عنها.

وجدتها مسرعة عبر السوق في الطريق إلى المنزل. كانت في مكتب الأسوشييتد برس. رفعتْ الورقة. كان هناك إعلان عن باتريس. إنها ذاهبة إلى ليوبولدفيل الآن.

قلت: "لا تستطيعين الذهاب. هذا غير آمن".

لم تصغ لاعتراضاتي.

"سأذهب".

لن أتركك. ليس الآن. سنجازف معاً.

على العبّارة أطلعتْني على تقرير الأسوشييتد برس عن تصريح أطلقه في إليزابيثفيل تشومبي ووزير الداخلية في كاتانغا غودفرويد مونونغو. قالا إن لومومبا وأوكيتو ومبولو هربوا من الأسر في الحال بعد وصولهم إلى كاتانغا. تركوا السيارة المسروقة التي هربوا فيها بعد أن نفذ البنزين. عرضت حكومة كاتانغا مكافأة للقبض عليهم ولكن قبل أن تقبض عليهم قوى القانون والنظام قتلَ السكّان المحليّون لقرية صغيرة الرجال الثلاثة انتقاماً للفظائع التي ارتكبتها قوات لومومبا ضد شعب البالوبا. ربما تصرّف القرويّون بشكل متهوّر، كما تابع التصريح، ولكن أفعالهم معذورة وسيحصلون على المكافأة. لم تُحدّد القرية ولا مكان الدفن خوفاً من الأعمال الانتقامية من قبل أتباع لومومبا. وحين سأل أحد الصحفيين وزير الداخلية إن كانت له علاقة هو وتشومبي بعملية القتل، أجاب: "سأتحدث بحرية. إذا اتهمنا الناس بقتل لومومبا، سأجيب: برهنوا على هذا".

لماذ اليوم من بين جميع الأيام؟ ألم يكن بوسع هذه الأنباء أن تنتظر 24 ساعة أخرى؟ إنّ إنيس ليست لي أبداً في أوقات كهذه.

قالت: "هناك شيء آخر".

هبط قلبي.

سألتُها: "أوغوست؟"

هزّتْ رأسها. نظرتُ عبر النهر، إلى الزوارق والضفاف الرملية.

"جاء رسول من الحزب إلى المنزل هذا الصباح حين كنتَ نائماً. إنه في ستانليفيل".

قلت: "أنا سعيد أنه نجا. هل يريدك أن تذهبي إليه؟"

ـ "نعم".

ـ "هل ستذهبين؟"

لم تقل أيّ شيء. ما يزال هناك أمل.

* * *

سهّل دخولنا إلى الكونغو بدون الأوراق الملائمة مبلغ صغير دفعناه إلى رجليْ الشرطة الأعلى مرتبة اللذين كانا يؤديان الواجب في أرصفة المرفأ العامة. أسرعنا إلى الريجينا، للتحدث مع جورج، المسؤول الصحفي للأمم المتحدة، وإذا ما فشلنا في هذا، مع غرانت أو أحد المراسلين. لستُ متحمّساً للأمر من كل قلبي، ولكن ليس الوقت الآن للضغط على إنيس.

حين وصلنا إلى الفندق رأينا امرأة سوداء صغيرة تخرج. ترتدي تنوّرة سماوية داكنة ولكنها عارية من الخصر إلى الأعلى، شعرها مقصوص وعيناها حزينتان. كان حشد قليل من الناس يتبعها خارج الفندق ويحدق بها.

قلت: "إنها بولين".

توقّفنا وراقبناها وهي تشق طريقها نحو الجادة. انتشرت الكلمة. وتدفق الفوضوليون من المدينة الحديثة.

سألتُ جورج: "ماذا يجري؟"

أجاب: "جاءت كي تطلب من الأمم المتحدة أن تساعدها في استعادة جثة زوجها؟ المشكلة هي أنني لستُ متأكداً إن كانت هناك جثة".

جاء إلينا غرانت، الذي كان يقف بين مجموعة قليلة من الصحفيين والمصورين.

ـ "يا إلهي. لم أتوقّع أن أراك هنا ثانية".

بدا مسروراً بشكل حقيقي لرؤية كلينا. تصافحنا وسأل إن سمعنا الأنباء.

قال: "إن القصة عن القرويين كذبة جليّة وتشومبي ومونونغو لم يكترثا بأنه لم يصدقهما أحد. كنت أحاول أن أجمع خيوط ما حدث حين أرسلوا لوممبا إلى إليزابيثفيل. في الطائرة قُيِّدَ لوممبا وأوكيتو ومبولو معاً. ضربهم الجنود بطريقة ساديّة بحيث أن القبطان البليجيكي اضطرّ إلى إرسال الطيار المشترك كي يطلب منهم التوقّف لأنهم كانوا يعرضون الطائرة للخطر. في الوقت الذي وصلوا فيه إلى مطار إليزابيثفيل، كما قال جنود الأمم المتحدة السويديون الموجودون هناك، لم يكن بوسع لوممبا والآخرين السير خارج الطائرة. غير أنهم أُجبروا على السير بين خطوط متوازية من جنود تشومبي. بدا أنهم أُخذوا في تلك الليلة إلى منزل مزرعة يملكه بلجيكيّ. أنا متأكد من أنهم نفّذوا العمليّة هناك، بعد معاملة لا يعرف إلا الله طبيعتها. أنا متأكدّ أن تشومبي ومونونغو كانا هناك كي يراقبا. وربما قام مونونغو بإطلاق رصاصة الرحمة على لوممبا بنفسه: طعنه بحربة في الصدر كما يقولون".

قالت إنيس إنها ستلحق ببولين.

مصوّر بلكنة لندنية سأل غرانت: "ماذا عن إظهار المرأة السوداء لحَلْمتيها؟"

أجاب غرانت ببرود كالجليد: "إنها الطريقة التقليدية التي تندب بها النساء هنا".

اقترح أن نأخذ سيارته ونلحق ببولين في الجادة. ركبت أنا وإنيس في المؤخرة، وجلس أحد الصحفيين إلى جانب غرانت.

سأل غرانت ونحن ننطلق: "هل رأيت ستايب؟"

قلت: "كلا".

"سأبتعد عن طريقه لو كنتُ مكانك. لم يكن سعيداً حين عرف أنك خدعْتهُ".

سلك تمبر دي تابورا، وهو أحد الشوارع الأصغر التي تسير بموازاة الجادة.

قال مستديراً كي ينظر إليّ: "بالمناسبة، سمعتُ بما حدث في السجن المركزي".

استدار الصفحيّ الآخر الذي لا أذكر أنني رأيته سابقاً أيضاً.

قال والإعجاب باد في صوته: "نعم. كنتَ شجاعاً".

شعرتُ بإنيس تنظر إليّ.

قلتُ بغموض: "لا أعرف لماذا فعلتُ ذلك".

وضعتْ إنيس يدها فوق يدي.

قالت: "أنت تعرف".

يمكن أن تعتقد إنيس أنها تعرف، ولكنها لا تعرف. تظنّ أن دوافعي شريفة، وربما بطولية. لم تكن هكذا.

في جادة دو مارشي انعطفَ غرانت إلى اليمين. عثر على مكان صفَّ فيه وسرْنا إلى جادة ألبرت. هناك كان المنظر الأكثر غرابة. توقّف السير من كلا الجانبين فيما كانت بولين تسير بشكل يائس في الجادة. كان الناس يتدفقون من الشوارع الجانبية صغاراً وكباراً، رجالاً ونساء وأطفالاً. مئات البشر، آلاف البشر. كانوا يقفون خلفها وحولها، وشكّلوا حشداً كبيراً صامتاً. انطلقْنا للحاق بهم. شققتُ طريقي كي أبقى قرب إنيس. لم أعد أستطيع التراجع.

سألتُها: "أتعرفين ما الذين ستفعلينه؟"

توقفتْ ونظرتْ إليّ. سار غرانت ورفاقه.

أجابت: "نعم". عرفت ما هو قرارها لأنها قالت الكلمة بحزن.

قلت: "أعرف أنني أنانيّ. أنا أفكّر بنفسي فقط. أعرف أن هناك أشياء مهمّة، أنه لا توجد مقارنة بين ما أريده وما تريدينه، ولكن ماذا أستطيع أن أفعل بهذا الحب الذي أكنّه لكِ؟ من فضلك لا تذهبي".

إنها تبكي. نظرتُ بعيداً، إلى الأشجار والمنازل والسيارات، ركّزتُ على تلك الأمور. أمسكتُ يدها بيدي.

ـ "لا تذهبي".

شعرتُ بشخص يلمسني، ثم شخص آخر. كانت طليعة المسيرة. اندفعَ الناس عابرين كنهر أسود لا يمكن إيقافه.

نظرتُ إلى إنيس. خصتّني بابتسامة صغيرة.

قلت: "أهذا هو الأمر؟"

"نعم، يا حبي".

دُفعنا وضُربنا. تماسكتْ، حاولتُ التماسك، ولكنّ يدها أفلتت من يدي.

صحتُ: "إنيس! إنيس!".

تحركت مع التيار المندفع الساحق، وقد حملها بعيداً.

ـ "إنيس!"

اندفعْتُ خلفها ولكنّ هذا مستحيل. رأيتُها تنظر إلى الخلف قليلاً وتحاول أن ترفع يدها كي تودّعني. ثم غابتْ عن بصري نهائياً. غصتُ في الحشد. صارعتُ وقاتلت شاقّاً طريقي. ولكنني لم أتمكّن من العثور عليها. حدّقتُ بوجه فارغ في الحشد طويلاً. لقد ذهبتْ.

رجل أبيض شقّ طريقه بين الحشد. اتجه نحوي. وقف أمامي ونظر غاضباً. فحصني. أنا حقير، أنا رجل يستحق الاحتقار. ليست لديه كلمات لشخص كهذا. اندفع الحشد، دفعنا، شقّ طريقه عبرنا، وحولنا.

قال: "أيها الكاذب الحقير. بعد كل ما فعلتهُ لك".

ـ "لم تفعل أيّ شيء لي، يا مارك. جعلتني أفعل أشياء لك والشيء المحزن هو أنني لم أفهم هذا حتى وقت متأخر جداً.

ـ "يا يسوع، ما الذي فعلتهُ إنيس؟ لا بدّ أنها ناكتْكَ ليلة أمس. تبدو مثلها تماماً".

لم تهجره قدرته على وضع إصبعه بشكل صحيح على الشيء.

قلت: "كلا. لن أكون مثلها أبداً. لا أرى الأشياء بالطريقة التي تراها بها ولن أراها أبداً. ولكنني أرى ما كنتَ تحاول فعله. آمل أن يحدث ما يريدونه. آمل أن يطردوك أنت والدكتور جو وهاوثهوفد وكل الأشخاص الآخرين من هذا البلد إلى الأبد".

تدفق الحشد عبر الرجلين الأبيضين الذين كانا يحدقان بغضب وبعدم اكتراث إلى بعضهما بعضاً.

قال ستايب: "هذا لن يحدث. فقد اختار أوغوست الجانب الخطأ. حين يُقبض عليه ويضعونه على الجدار ربما سيدرك آنذاك أنه كان يجب أن يُصغي إليّ. ربما عندئذ سيعرف أنني كنتُ صديقاً أفضل له مما يمكن أن تكونه إنيس".

قلتُ: "كانت هذه دائماً طريقتك يا مارك. حالما يأخذ الشخص الآخر نصيحتك لا توجد مشكلة. في اللحظة التي يفكر فيها لنفسه يموت".

وجهه أحمر، ينبض جبينه. لم يعد يستطيع أن يحتوي نفسه.

قال: "إنها دائماً نصيحة جيدة. كان يجب أن يُصغي. وأنت أيضا؟"

ضربني بقبضته على وجهي. كان ستايب قوياً فعلى الرغم من أنه لم يكن يمتلك مجالاً كافياً كي يميل فإن الضربة أوقعتْني على الأرض. نظر ببرود إليّ وأنا على الأرض، ثم استدار وشقّ طريقه عبر الحشد، صارخاً بالناس، آمراً ولاعناً لهم. حاولتُ أن أنهض على قدميَّ ولكنّ المتظاهرين داسوا عليّ، مترنّحين وفاقدين للتوازن. صدرتْ تمتمة عصبية عن الحشد. حاولتُ ثانية أن أنهض ولكنني رُميتُ مرة ثانية. وقعتْ امرأة فوقي، تشابكتْ ساقاها مع ساقيّ. بدأتْ بالتعبير عن ذعرها وقاتلتْني كعدوّ كي تتحرر. سقط شخص آخر. ثم آخر. الناس يصرخون الآن ويدوسون بجنون. الدفع مرعب.

ثم، من لامكان، شعرتُ بذراعين قويين ومصمّمين يمسكانني، قبضة ثابتة، وأُرفع، تدفعني قوة لا تُقاوم. "يا عمّ".

نظرتُ إلى عيني الخادم المعتمتين وللمرة الأولى التقتْ نظرتانا.

سألني تشارلز بالفرنسية: "هل أنت بخير يا سيد جيمس؟"

ـ "شكراً يا تشارلز. أنا أفضل الآن".

تمت مساعدة المتظاهرين الساقطين على الوقوف وانتهى الـذعر. ابتسم تشارلز وقـادني مـن ذراعـي. تبعتـهُ ومـشيتُ إلى جانبـه. أُطلـق الحشد زئيراً مفاجئاً مُصمّاً.

ـ استقلال!

وللحظة ـ لجزء من الثانية حـين انفجـر الـصوت فـوقي ـ ظننـتُ أنني ألمح الأحلام التي تستطيع إنيس رؤيتها.

* * *

الجزء الرابع

باردونيكيا، آب/أغسطس 1969

الفصل الأول

كان لديّ أصدقاء في روما. وكان بعضهم لطيفين جداً. سألوني لماذا جئتُ إلى هنا، إلى الشمال البارد؟ إنّ العزلة تناسب هدفي، والطقس يتحسّن في منتصف حزيران/يونيو كما هي العادة. أمضيتُ الصيف هنا للسنة الثالثة على التوالي. فقد كنت أصلُ في أيار حين تتلاشى آخر آثار الثلج من الشوارع، وتبين منحدرات التزلج والسياح الوحيدون هم زوار نهاية الأسبوع من تورين وميلانو أو سيّاح نهاريون من فرنسا. أمكث عادة حتى نهاية آب\أغسطس. كان هناك بضعة أمور مسليّة وملهية. كان بوسعي أن أركز على عملي وأكتب من ثلاث إلى أربع ساعات في الصباح، أتناول غداء خفيفاً ثم أسير إلى الجبال. هناك عدد من الطرق التي كنتُ أسلكها، ولكنّ طريقي المفضّل كان يقود إلى الغرب من البلدة في فيا مودين. جاعلاً النهر البارد الصخريّ إلى يميني، أتسلق عابراً حطام البرج القديم. أسلكُ الطريق المتعرّج الذي يتجه إلى الحدود الفرنسية إلى أن أصل إلى ممر مسيّج يقود إلى منزل المزرعة الحجري المهجور. وراء المنزل هناك الأحراج المائلة وشديدة الانحدار حيث الغزلان والثعالب، ووراء الغابات هناك الجبل بركام أحجاره وصخوره وأغطيته البيضاء المتسخة من بقايا الثلوج.

في المساء أتناول عشائي في غاوتشو، المطعم الذي قرب فيا ميديل. الجوّ مُسترخ ووديّ، والطعام ممتاز. أحد النُدّل هناك، أنخيل، أرجنتيني جميل وحزين الوجه يأتي أثناء لحظاته الأقل انشغالاً إلى طاولتي ويسأل بلباقة إذا كان يستطيع الجلوس قليلاً. يحبّ أن يتحدث معي عن أمريكا الجنوبية وإيطاليا وأشياء القلب. كان يملك المطعم، ولكنّ خطأ لا يتكلّم عنه حدث فباعه لغاسبار، الصقليّ ذا العينين الزرقاوين الذي جاء إلى الجبال منذ ثمانية أعوام. أحياناً، إذا وصلتُ متأخّراً، أتناول الطعام مع غاسبار وتومي، النادل الآخر، وماسيمو طبّاخ البيتزا. أحياناً ينضم إلينا موريزيو وماتيّا من محلّ القرطاسية الصغير والمكتبة في الجانب الآخر من خط سكة الحديد، والذي تعرّفتُ عليه أثناء سكني الأول حين أصلحوا آلتي الكاتبة. كلهم مسرورون لأنني أشرب كثيراً، على الرغم من أنني لا أفرط في تناول الكحول. أختم المساء بكأس ليكور من الليمونتشيلو البارد أو بكأس براندي، وأحياناً باثنين. إن حديثهم دوماً حيويّ. إنهما زملاء مريحون يجعلون الوحدة التي فرضتُها على نفسي سهلة التحمّل. كانوا دوماً يسألونني، بعد ثلاث سنوات: ما الذي أفعله هنا؟ لماذا باردونيكيا؟ المكان الضائع؟ أجيبهم: كي أكتب، في طمأنينة وهدوء، على الرغم من أن هناك في الأمر ما هو أكثر من ذلك.

في هذا العام انضمّ آلن إليّ. نَمَتْ شهرتهُ كناشر مع شهرتي ككاتب. وما تزال نقطة خلاف من فعل أكثر للتالي. لا نستقصي هذا. نقبل الارتباط في حياتنا وعملنا، ونعرف غريزياً أن الطريقة الأفضل لتجنّب الخلاف الذي سيدمّرنا سوية هو ألا ندخل في تفاصيل أو تاريخ ارتباطنا. وكمثل كثير من الرجال المتوسطي العمر والمهنيين والمدينيين طوّرنا اهتماماً ذكياً وقويّاً بالعالم الطبيعي، وكانت هذه محاولة كالترياق لحيواتنا الورقية كما ظننتُ. وهكذا، مرتدين أبواطنا ومناظيرنا

وواضعين الأدلة في جيوبنا، كنا نمضي بعد الظهر في اقتسام مكتشفاتنا: طيور الثلج، السمّن المغرّد، الفراشات الصغيرة ذات اللون النحاسيّ، والفراشات ذات اللون البني المنقّط بالفضيّ النادرة.

في يومنا الأخير معاً، وفيما كنا نازلين من الجبل، سألني عن كتابي التالي.

ـ "أفكّر بتأليف رواية تاريخية".

قال مندهشاً: "حقاً. سيكون هذا شيئاً جيّداً بالنسبة لك".

قلت: "كنت أرتّب الشقة فعثرتُ على ملاحظاتي من أجل أطروحة الدكتوراه. حدثت جريمة قتل لرضيع وهي موثّقة جيّداً بالنسبة لتلك الأوقات. اعتقدت أنني يمكن أن أستفيد من هذه المادة".

قال: "يبدو هذا مهماً جداً".

استطعتُ أن أسمع خيبة الأمل في صوته.

ـ "لا توافق؟"

ـ "أنا متأكد أنه سيكون كتاباً مدهشاً".

ـ "هل هناك شيء آخر تعتقد أنني يجب أن أكتب عنه الآن؟"

قال: "كلا. كلا مطلقاً. إن آخر ما سأفعله هو أن أحاول أن أخبرك ما الذي ستكتبه، يا جيمس".

ـ "أنت تعترض على هذا كثيراً يا آلن".

أشار إلى منطقة صغيرة من العشب تخلو من الشجر إلى يسارنا. أسرع قارض خائفاً إلى وكره.

ـ "هل هذا مرموط؟"

ـ "نعم".

- "لم أر واحداً من قبل".

قلت: "إنّ هذه القوارض معروفة هنا".

في الشقة نحمل بيرتنا الباردة إلى الشرفة الصغيرة ونجلس في آخر ضوء الشمس.

سألني آلن: "هل تريد أن تستخدم الحمام أولاً؟"

قلت له إن بوسعه أن يستخدمه. تناولتُ زجاجة بيرة أخرى.

* * *

لماذا باردونيكيا؟ قاومتُ المجيء إلى إيطاليا لمدة ست سنوات. درّبتُ نفسي على تجنّب أي شيء يذكّرني بها. انفصلنا على نحو جيّد، على الأقل كما يستطيع المرء أن يفعل في هذه القضايا؛ استعدنا بعض الأرض الضائعة وأمضيتُ ليلة جميلة معها. غير أنه لا شيء من هذا أوقف استيائي وألمي. أعترف أنني كنتُ لوقت طويل - طويل جداً - يائساً وشقياً. أضعتُ نفسي في ظلمة عملي. كتبتُ تلك الرواية، التي جاءتني فكرتُها حين غادرتْ إنيس في البداية، تلك التي عن الفتاة المثالية والرجل الفاسق الذي في منتصف العمر وتشوش دوافعهما وهويتيهما. إنها ساخرة وسوداوية وكوميدية، وقد قُرئت كثيراً. وحققتْ نجاحاً كبيراً.

في النهاية أخرجتُ إنيس من نظامي وحرّرتُ نفسي من كآبتي. وصرتُ بعد فترة قادراً على مواصلة حياتي. بنيتُ علاقات غرامية؛ بعضها كان مهماً لي. وأثناء رحلة على الدراجة النارية في باريس في أحد الأعوام وصلتُ إلى مودين. واقترحت المرأة التي كنتُ معها أن نمضي يوماً على الجانب الإيطالي من جبال الألب. بالطبع، لماذا لا؟ فقد نفضتُها من ذهني، ولدي حياتي الخاصة، وعملي وعشيقتي، ولم أعد أفكّر بها. كانت إيطاليا آمنة. لم يكن فيها ذكريات، ولم تثر أي شيء من ماضيّ.

عبرْنا الحدود وجئنا إلى باردونيكيا. في اللحظة التي سمعتُ فيها اللغو ورأيت الإيماءات وتذوّقتُ القهوة الحلوة القويّة بدأتُ أرتجف. اختلقتُ عذراً واختصرنا النزهة وعدنا إلى باريس. في طريق العودة إلى إنكلترة كان كلُّ ما يمكنني التفكير به هو هي.

لم أكن صادقاً مع نفسي حيال المجيء إلى هنا. قلتُ إنني جئتُ من أجل الهرب من مقاطعات لندن، وكي أكتب في طمأنينة وهدوء. ولكن لم تكن هناك حاجة كي أجيء إلى إيطاليا. كان يمكن أن أذهب إلى أيّ مكان. والحقيقة هي أنني جئتُ من أجلها، مرة ثانية.

لم أرها منذ أن جرفها الحشد مني في جادة ألبرت. لم أتحدث أو أتصل معها بأية طريقة لمدة عامين. في الجاوتشو في إحدى الليالي أثناء صيفي الثاني، سمعتُ اسمها ينطقه شاب على طاولة أخرى. زحفت عليّ موجة من الغيرة. نظرتُ إلى المتحدّث، كان شاباً جميلاً ووسيماً، وفي لحظة مجنونة تخيّلتُ أنه عشيقها. سألني أنخل الذي كان يجلس معي إن كنتُ على ما يرام. طلبتُ منه أن يترجم ما يقوله الشاب لأصدقائه، ذلك أن إيطاليتي سيئة كما هي العادة. أصغى أنخل وقال لي إن الحديث كان عن فيتنام، عن شيء يتعلق بمقالة في صحيفة كتبتها إنيس سابياني. إنيس سابياني، قلتُ بغموض ومكر، أعرف هذا الاسم. أجاب أنخل: نعم إنها أحد أشهر الصحفيين في إيطاليا. وتعدّ سلسلة من التقارير الخاصة من فيتنام والشبان يتحدثون عنها. سألني أنخل عن إيرلندة، ما رأيي بما يجري هناك. قلتُ إنه الغباء. لماذا لا تكبر إيرلندا فحسب؟ طلب مني أن أشرح ماذا يجري. إنه التعصّب الأعمى والهمجيّة والعناد ورفض النظر إلى العالم الحديث في وجهه. يبدو أنّ الجنون عامّ ومقدّر عليه أن يسوء. فقد أصاب شقيقتي بعدواه، وأمي التي يجب أن تعرف على نحو أفضل. إنهما متظاهرتان متحمّستان في قضية الحقوق المدنية. سارت أمي مسافة من الطريق مع مجموعة من الطلاب يُدعون منظمة ديمقراطية

الشعب كان يسيرون من بلفاست إلى ديري كي يلقوا الضوء على مظلمة أو أخرى. كتبت لي شيبان قائلة إن الطلاب صفّقوا للمرأة العجوز حين تركتهم في غلينغورملي. حين أتحدث مع أسرتي، وهذا لا يجري غالباً، أتجنّب هذا الموضوع.

ذهبتْ إنيس إلى إيرلندة مرة ثانية. كان بوسعي أن أقرأ ما يكفي من الإيطالية كي أرى أنها لم تتغيّر. ذلك أنّ مقالاتها في صحيفة الأونيتا كانت عاطفيّة وشجبية كما هي العادة. سألتُ أصدقاء في روما عنها. كانوا يعرفون أصدقاء أصدقائها، ولكنني لم أعرف لماذا رجعتْ من ستانليفيل، أو متى بالضبط. ثمة قصص مختلفة. في إحداها تركت هي وأوغوست الكونغو بعد أن أُخمدت انتفاضة سيمبا وقضيا وقتاً قصيراً معاً في الغابون قبل أن ينفصلا لسبب غير محدّد. وتفيد قصة أخرى أنها غادرت بينما بقي أوغوست كي يشارك في حملة أخرى غير محظوظة ضدّ موبوتو. وفي لندن التقيتُ بغرانت خارج هاتشاردس. كان آنذاك متمرّساً وخبيراً بأفريقيا ومحترماً جيداً كصحفيّ، وكان قد نشر كتاباً من تأليفه. اشتريتُ نسخة وقّعها لي وذهبنا لتناول كأس في البيكاديللي وتحدثنا عن الأوقات القديمة. قال لي إن أوغوست شوهد آخر مرة قبل وقت قصير من كمين في كاساي هاجم فيه مرتزقة من أفريقيا الجنوبية القوة الصغيرة الكونغولية والكوبية المختلطة والتي كان هو جزءاً منها. ولكن بعد بضعة أسابيع أخبرني مراسل آخر أنّ أوغوست يعيش بشكل مريح في السنغال، وأن لديه وظيفة في الجامعة وتزوّج شقيقة وزير في الحكومة. أخبرني الصحفيّ نفسه أنّ ستايب استقال من خدمة الحكومة وعاد إلى الكونغو كي يصبح مديراً وفنيّ تصليح ومشرفاً على مصالح برنارد هاوثهوفد هناك.

خرج آلن من الحمام. أنهيتُ بيرتي وذهبتُ إلى غرفة النوم.

لم تتصل بي إنيس أبداً. أنا متأكد من أنها عرفت أنني سألتُ

عنها. حتى بعد تسع سنوات، وأنا في لندن، لم أفقد عادتي الصباحية في تفقّد البريد. ذلك أنني كنتُ في العام الأول متأكداً من أنّ رسالة ستصل. واعتقدتُ دائماً أنه في نقطة ما من وحدتي، في لحظة ما غير مليئة بالخطر أو الإثارة أو الآخرين، يجب أن تفكّر بي وستتصل. لكنها لم تفعل أبداً.

* * *

في الجاوتشو رحّب بنا غاسبار وموريزيو وماتيا بإثارة. هل كنا نشاهد التلفاز؟ الصور من ديري وبلفاست لا تُصدّق. أشياء مدهشة تحدث. لقد نشبتْ الحرب. آلن مهتم أكثر مني. يستعجلني وأنا آكل، يرفض الحلوى والقهوة. يريد أن يعود كي يشاهد الأخبار.

نجلس على كراسينا أمام التلفزيون. شوارع منقّطة بالأحجار، سيارات مشتعلة، أبنية مدمّرة، زجاجات حليب ممتلئة بالبنزين، شبان بلفاعات حول أنوفهم وأفواههم، مثيرو شغب ولاجئون وشرطة وجنود. إنه مسمّر.

قال: "يا إلهي. هل توقّعتَ أن يحدث هذا؟"

قلتُ إنني لم أتوقّع، وأعتقد أنني سأنام باكراً. في الصباح أسير مع آلن إلى المحطة. قال لي إنه أمضى وقتاً رائعاً.

قال فيما كان قطاره يتوقّف: "لا أفترض أنك تريد أن تكتب شيئاً عما يجري في إيرلندة. يمكنك أن تجعلها خلفية لرواية. خلفية مهمة جداً، ألا تظنّ ذلك؟"

أفكّر بصور التلفزيون. إن المكان لا يشدّ اهتمامي.

أجبت: "كلا. كلا. لا أظنّ. إنها ليست لي".

قال بعد وهلة: "كلا. أعتقد أنك محق".

ساعدتُه في حمل متاعه إلى القطار وصافحتْه. لآلن طموحاته، يمكن أن يكون أحياناً مدّعياً، لكنه رجل جيد. وقد حزنتُ لرحيله.

لا أشعر بالرغبة بالعمل حين أعود إلى الشقة. بدلاً من ذلك

أمشي إلى فيا ميديل على الجسر وعلى طول فيا مودين، متّبعاً طريقي المفضّل. أعبر البرج المحطّم والمنازل الحجرية القديمة بحديقتها من القرّاص وسقفها المنهار وألواحها الخشبية الرمادية التي تعلوها الطحالب. سرتُ عبر الأحراج إلى المنحدرات الصخرية حيث للحصى تحت الأقدام صوت الزجاجِ المحطّم.

جلستُ على جلمود صخر يطلّ على الوادي. قالت لي إنيس مرة في رسالة ما تزال معي إنها أرادتني أن أعرف أين أعثر عليها وكيف. استغرق الأمر معي وقتاً طويلاً كي أفهم ما الذي قصدتْهُ. كان عليّ أن أبحث في مكان حيث أشخاص مرتابون مثل ستايب وشكاكون مثلي، ومثل غرانت، ومثل روجر، ومثلِ معظمنا، لا يصدقون أن أيّ شخص يتمنى أن يكون في الواقع عاقلاً وراشداً وناضجاً وحصيفاً. إنه مكان نضحك عليه، ونزدريه، وأحياناً نقول إنه لا يوجد مطلقاً. ولكنني رأيته في نهر سانكورو حين خطا باتريس إلى المركب كي يعاود عبور النهر، ورأيته ثانية في يومي الأخير في ليوبولدفيل حين تبعتْ الحشودُ الصامتة بولين في الجادة ورفعني تشارلز عن الطريق. لمحتْهُ حين كنتُ مع إنيس. فقد شجّعتْني، وأغرتني كي أسير نحو الأمام. وعدتُ بأنني سأجدها هناك. ولكنني لم أستطع أبداً أن أنضمّ إليها. كنتُ دوماً مراقباً، قلماً؛ كنتُ منقسماً، غير مصدّق. إن أولويتي هي أولوية الكاتب: الهوامش وتجنّب التكتّلات والمراتب. فشلتُ في العثور عليها وأعرف أن هذا الفشل سيسم ما تبقى من حياتي.

لا أحد على الجبل. أنا هنا آمنٌ في تشوّشي. لا شيء سوى نعيب الحدآت، وسليل الأيائل والتدفق الانسيابي للمياه الذائبة. أعتقد أنني يجب أن أغادر هذا المكان دون رجعة.

* * *

بعض ما قيل في الرواية والمؤلف

رداً على من قال إنّ الإثارة الأدبية دُفنت مع غراهام غرين، تبرهن رواية **المتشائم** لرونان بينيت أن الروايات التي تحتوي على المكائد السياسية ما تزال قادرة على أن تكون معقدة أخلاقياً وغنية بالشخصيات.... إن بينيت موهبة رئيسية وذهن من المرتبة الأولى.

توني ماستروجيوجيو،

سان فرانسيسكو كرونيكل

حكاية حبّ وسط الخراب... رُويتْ بتشويق وتسبر الوضع البشري على نحو عميق.

مارك ستشوغول،

فيلادلفيا إنكوايرر

قلة من الروائيين اليوم تملك صوتاً واضحاً ومفكراً كصوت بينيت.

آدم هوتشتشايلد،

لوس أنجيليس تايمز

ألّف رونان بينيت إحدى الروايات الفائقة للعادة في السنوات الأخيرة.

روب ستاوت،

دالاس مورننغ نيوز

إنها رواية مؤثرة غنية بالحياة الحقيقية.

كلير ميسود،

واشنطن بوست بوك وورلد

فحص مثير وعميق لدور الكاتب أو غياب هذا الدور في العالم... مليئة بالتشويق والجنس والجريمة والدسائس السياسية وأفعال البطولة الشخصية والهيام أيضاً.

برايان أليكسندر،

سان دييغو يونيون ـ تريبيون

حين نُشرت هذه الرواية في أوروبا العام الماضي شبّه النقاد المؤلف بغراهام غرين. يمكن أن نقارنه أيضاً بكامو ومالرو.

جي. كي. زاتشاري

وول ستريت جورنال

إنجاز كبير. تمتلك الرواية رؤية وخيالاً ووقاراً. إنها تفعل ما تفعله الروايات العظيمة فحسب: تعلو على نفسها؛ وموضوعاتها تتجاوز سردها.

ماري لودون،

لندن تايمز

إن هذه الرواية المليئة بالدم تنبض بالفعل والجنس وتسلّط الضوء على دولة أفريقية في مجرى تغيّر عنيف.

دوريس ليسنج

هناك روايات تكون فيها جميع الشخصيات حقيقية وكاملة ومعقدة ومليئة بالأضواء والظلال، وقابلة للتصديق بشكل كامل. هناك روايات يسحرك فيها وصف المكان والحدث. وهناك روايات الكتابة فيها واضحة ودقيقة وعالمها يقف أمامنا مفتوحاً ومتماسكاً بشكل كامل. إن رواية المتشائم هي إحدى هذه الروايات. إنها في غاية الروعة.

كاري جيمس

باسيفيك سن

* * *



Ronan Bennett

The Catastrophist

تُعدّ روايته "المتشائم" من أهم الروايات التي صدرت في الأعوام الأخيرة باللغة الإنكليزية وتندرج في إطار الروايات التأسيسية وترقى إلى مستوى روايات غراهام غرين وجوزيف كونراد وألبير كامو وأندريه مالرو وغيرهم من كبار الكتاب..

إن هذه الرواية التي انتخبتْها صحيفة لوس أنجلوس تايمز كأفضل رواية لعام 1999 حظيتْ بمديح رفيع على طرفي المحيط الأطلسي. فهي رواية آسرة مليئة بالتشويق وتجري أحداثها في الكونغو البلجيكية قبل الاستقلال تماماً. في قلب الرواية قصة حب وهيام بين الروائيّ جيمس جيليسباي والصحفيّة المثالية النارية إنيس سابياني. يتبعها جيليسباي إلى أفريقيا فيما كانت علاقتهما تتدهور. كانا على عكس ما يكونه حبيبان: فقد كان جيليسباي بعيداً عن السياسة ومتيّماً بإنيس إلى درجة المرض، بينما هي مهووسة بالدراما السياسية المتكشفة للأحداث في الكونغو، وعالقة بالتاريخ وعبادة البطل، وقد دخلت في علاقة حب وهيام جديدة مع أفريقي. وفي بلاد ستدمّر نفسها فيما تولد من جديد انغمس جيليسباي في العنف والخيانة ودفعه الحب إلى فعل نبيل أخير.

في هذه الرواية المهمة الصادرة في أمريكا يعتمد بينيت تشويقاً يوقف القلب، ويثير تساؤلات أخلاقية عميقة ويرصد بتألق حباً كُتب عليه الفشل.

قالت الناقدة كارين ساندستروم في مقالة نُشرت في صحيفة بلين ديلر إنه سواء سمينا الرواية قصة حب سياسية أو تاريخاً رومانسياً مشحوناً بالهيام والأفكار فإنها رواية من النوع الذي تستمتع به وأنت تقرأه ثم بعد أن تنهيه تعود إليه في ذاكرتك إلى وقت طويل.

ويرى الناقد روب ستاوت إنّ هذه الرواية هي أهم رواية تشويقية صدرت في الأعوام الأخيرة.

9 789933 429423